موسوعة العصور الوسطى

العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

« بحث في النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية
في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ق ١٣ - ١٤ م »

الدكتور عادل زيتون
مدرس تاريخ العصور الوسطى بجامعة دمشق



الطبعـة الاولى
١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م



دار دمشق ـ شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٤٨
١١١٠٢٢

المحتوى

صفحة

ـ المقدمـــة ١١

ـ دراسة نقدية لأهم مصادر البحث ١٦

الباب الأول

عوامل ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابـع عشر الميلاديين

الفصل الاول ٢٧

ظهـور القومونـات الايطاليـة

ـ ايطاليا ظاهرة اقتصادية متميزة ـ ظهـور طبقة التجـار وقيـادة الحركة القومونية ـ العوامل التي ساعدت على ظهور القومونات الايطالية ـ نشأة القومونات (في البندقية وجنوة وبيزا) وسماتها المشتركة .

الفصل الثاني ٣٥

التنظيمات التجارية وأثرها في النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

ـ ظهور الشركات التجارية ـ الشركات العائلية ـ العقود التجاريـة وانواعها ـ طوائف التجار ـ الاسواق التجارية الكبرى وأثرها في النشاط التجـــاري .

الفصل الثالث ٤٥

انواع النقود والتنظيمات المصرفية وآثرها في النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

ـ استخدام المدن الايطالية للنوميسما والدينار ـ البندقيـة تسك عملة فضية ـ المدن الايطالية تسك عملات ذهبيـــة ـ أسباب انتشـــار

الفلورين والدوكات في مدن وموانىء شرق البحر المتوسط ـ ظهور المصارف ـ القروض وأنواعها ـ الحوالات .

الفصل الرابع ٥٥

تطور الملاحة وأثره في النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

ـ نماذج السفن التجارية في المدن الايطالية ـ حمولة السفن ـ اعداد الملاحين ـ تنظيم القوافل التجارية البحرية ـ أصحاب السفن والتجار ـ الاهمية التجارية لاستخدام البوصلة والخرائط البحرية .

الباب الثاني

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الدولة البيزنطية

خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

الفصل الاول ٦٥

دور المدن التجارية الايطالية في الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م

الامتيازات التجارية التي منحت للمدن الايطالية في بيزنطة على عهد آل كومنين ـ اعتقال البنادقة ومصادرة ممتلكاتهم في الامبراطورية عام ١١٧١م ـ مذبحة اللاتين في القسطنطينية عام ١١٨٢م ـ احوال النشاط التجاري للمدن الايطالية في ظل آل انجيلوس ـ الحملة الصليبية الرابعة تتجه الى القسطنطينية ـ مكاسب البندقية من الاستيلاء على القسطنطينية وتقسيم الدولة البيزنطية ـ أحوال الجنوية والبيازنة في بيزنطة في ظل الاباطرة اللاتين .

الفصل الثاني ٨٠

امبراطورية نيقية وأزمة التجار الايطاليين ١٢٠٤ ـ ١٢٦١ م :

قيام امبراطورية نيقية والمصالح التجارية البندقية ـ معاهدة عام ١٢١٩م بين البندقية وتيودور لاسكارس ـ السياسة الاقتصادية

والعسكرية التي اتبعها حنا الثالث وأثرها على النشاط التجاري للمدن الايطالية في نيقية ـ معاهدة عام ١٢٦١م بين جنوه وميخائيل الثامن باليولوغوس ـ أهمية هذه المعاهدة وأثرها على النشاط التجاري للمدن الايطالية ـ استرداد البيزنطيين للقسطنطينية (١٢٦١م) وبداية التفوق التجاري الجنوي في الامبراطورية .

الفصل الثالث ٩١

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في بيزنطة ١٢٦١ ـ ١٤٠٠ م

المعاهدات التجارية بين جنوه وآل باليولوغوس والتفوق التجاري الجنوي في الامبراطورية ـ المعاهدات التجارية بين البندقية وآل باليولوغوس والانحطاط التجاري البندقي في الامبراطورية ـ السلع والمتاجر المتبادلة بين المدن الايطالية والامبراطورية البيزنطية ـ الاخطار التي المت بالنشاط التجاري للمدن الايطالية في الامبراطورية ١٢٦١ ـ ١٤٠٠م .

الفصل الرابع ١١٤

احوال المستوطنات التجارية الايطالية في القسطنطينية ١٢٠٤ ـ ١٤٠٠

الاحياء التجارية الايطالية في القسطنطينية : البندقية ـ الجنوية ـ البيزاوية ـ ادارة هذه الاحياء وتنظيماتها ـ الاهمية التجارية لهذه الاحياء.

الباب الثالث

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في المدن والامارات الصليبية

في القرن الثالث عشر الميلادي

الفصل الاول ١٢٩

الامتيازات التجارية التي منحها الملوك والامراء الصليبيون للجمهوريات الايطالية

المدن التجارية الايطالية والحركة الصليبية ـ الامراء الصليبيون والتجار الايطاليون ـ أحوال الصليبيين في القرن الثالث عشر والوحدة الموضوعية للامتيازات ـ أهم الامتيازات التي منحت : للجنوية والبيازنة

والبنادقة في امارة انطاكية ومملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس – السمات الرئيسية لهذه الامتيازات .

الفصل الثاني ١٤٤

التنافس التجاري بين الجمهوريات في المملكة الصليبية
في القرن الثالث عشر

– ارتباط النشاط التجاري للايطاليين بمسألة الاستقرار السياسي – أثر النزاع بين كونراد مونتفرات وجاي لوزنجيان على النشاط التجاري للبيازنة والجنوية – أثر الصراع بين الجولفيين والجبيللين على النشاط التجاري للمدن الايطالية في الامارات الصليبية – حرب دير القديس سابا وأثرها على تجارة الايطاليين ومستقبلها في المدن الصليبية – التنافس بين المدن الايطالية ونهاية الدويلات الصليبية .

الفصل الثالث ١٥٤

الاحياء التجارية الايطالية في المدن والامارات الصليبية
في القرن الثالث عشر

– العوامل التي تحكمت بقيام الجاليات الايطالية في المدن الصليبية – تركز الجاليات التجارية الايطالية في المدن الساحلية وبروز عكا – استقرار التجار الايطاليين في عكا – موقع الأحياء الايطالية في عكا وحدودها – العلاقة بين الجاليات الايطالية والحكومة الصليبية – البايلو ادارة الحي البندقي – القنصل وادارة الحي البيزاوي – تطور الادارة الجنوية – من القنصل الى البودستا – الأحياء التجارية الايطالية في انطاكية وطرابلس وجبيل وبيروت وصور – أهميتها التجارية .

الفصل الرابع ١٦٩

أنواع السلع والمتاجر المتبادلة بين الجمهوريات الايطالية
والامارات الصليبية بالشام في القرن الثالث عشر

تنظيم المدن الايطالية لرحلات أساطيلها التجارية – مواعيد القوافل التجارية بين المدن الايطالية والموانىء الصليبية – حماية المدن الايطالية

لسفنها وتجارها في المدن والموانىء الصليبية – السلع والمتاجر الشامية والمصرية التي صدرها الايطاليون من الموانىء الصليبية – العلاقة بين التجار المسلمين والتجار الايطاليين – سلع ومتاجر الشرق الاقصى التي نقلها الايطاليون من الموانىء الصليبية – السلع والمتاجر التي جلبها الايطاليون الى المدن الصليبية – الضرائب والرسوم الجمركية التي دفعها التجار الايطاليون في المدن والموانىء الصليبية – الموازين والمكاييل والمقاييس .

الباب الرابع

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية مع القوى الاسلامية في مصر والشام خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر

الفصل الاول ١٨٧

تطور العلاقات التجارية بين الجمهوريات الايطالية ومصر والشام

المصالح الاقتصادية والتجارية للايطاليين في مصر والشام – المعاهدات التجارية بين البنادقة والايوبيين – العلاقات التجارية بين البندقية ومصر والشام (مابين ١٢٥٤ – ١٢٩١) – أثر سقوط مملكة بيت المقدس على تجارة البنادقة مع المماليك – « الامان الشريف » – النشاط التجاري للبنادقة في عهد السلطان الناصر قلاوون – البابوية وتجارة البندقية مع المسلمين – أثر حملة بطرس على العلاقات التجارية بين البندقية والمماليك – العلاقات التجارية بين البيازنة والفاطميين – تجارة البيازنة في مصر والشام في عهد الايوبيين – النشاط التجاري للبيازنة على عصر سلاطين المماليك – النشاط التجاري للجنوية – ازدهار تجارة جنوة في عهد الظاهر بيبرس – معاهدة ١٢٩٠ بين الجنوية والسلطان المنصور قلاوون – الجنوية والاشرف خليل – تجارة جنوة في عهد السلطان الناصر قلاوون – أثر حملة بطرس على تجارة جنوة – الجنوية والسلطان برقوق – ضعف تجارة جنوة في مصر والشام في أواخر القرن الرابع عشر .

الفصل الثاني ٢٢٥

التنظيمات التجارية والمعاملات المالية

تنظيم الاساطيل التجارية ــ أنواع السلع والمتاجر المتبادلة بين المدن الايطالية ومصر والشام ــ التأمين على التجار وسلعهم ــ الضرائب والرسوم ــ الاعفاءات الضرائبية ــ اصول المعاملات التجارية وأنواعها ــ التجار الايطاليون وتجار الشام .

الفصل الثالث ٢٤٣

الجاليات التجارية الايطالية في مصر والشام ونظمها

الفنادق وادارتها ــ القنصل ومهماته ــ الحرية الدينية ــ الاستقلال القضائي ــ العلاقة بين الجاليات والسلطات المحلية .

الباب الخامس

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

الفصل الاول ٢٥٣

النشاط التجاري للبندقية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط

النشاط التجاري للبنادقة في جزيرة قبرص : موقع قبرص واهميتها التجارية بالنسبة الى المدن الايطالية ــ الامتيازات التجارية والاقليمية والقضائية للبنادقة في جزيرة قبرص . امتلاك البندقية لجزيرة كريت وادارتها ــ أهمية كريت التجارية بالنسبة الى البندقية ــ امتلاك البندقية لجزيرة نيقربونت وادارتها ــ اهمية نيقربونت التجارية بالنسبة الى البندقية ــ امتلاك البندقية لمودون وكورون .

الفصل الثاني ٢٧٠

النشاط التجاري للجنوية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط

الامتيازات التجارية والاقليمية والقضائية التي منحت للجنوية في جزيرة قبرص ــ امتلاك الجنوية مدينة فماجوستا وأثره على النشاط التجاري الجنوي ــ النشاط التجاري للجنوية في جزيرة خيوس : اشتهار خيوس بالمصطكى ــ بداية النشاط التجاري الجنوي في خيوس ــ ادارة آل زكريا الجنوية لخيوس واحتكارهم تجارة المصطكى ــ احتلال جنوه لجزيرة خيوس ــ بروز آل جستنياني ــ اهمية خيوس التجارية بالنسبة للجنوية ــ الادارة الجنوية في خيوس .

الخاتمة ٢٨٦

المصادر والمراجع ٢٨٩

أولا : المصادر الاوربية .

ثانيا : المراجع الأوربية .

ثالثا : المصادر العربية .

رابعا : المراجع العربية .

المقـدمة

يعتبر موضوع النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، من الموضوعات ذات الاهمية البالغة في التاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى الشرقية والغربية ، واكتسب هذا النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية أهمية خاصة لانه كان تجسيدا للعلاقات الاقتصادية والحضارية التي قامت بين الشرق والغرب في حقبة من انشط حقب العصور الوسطى . يضاف الى ذلك ان النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في شرق البحر المتوسط هو في حقيقته تجديد للنشاط التجاري الذي قامت به المدن والموانىء العربية في شرق البحر المتوسط في الغرب الاوروبي قبل حركة الفتوح العربية الاسلامية وبعدها .

وتبرز اهمية النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين ، في أنه كان نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والحضارية التي اجتاحت الغرب الاوربي منذ أواخر القرن الحادي عشر . كما أنه ألقى ضوءا على الكثير من القضايا التجارية وغيرها المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لبلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتظهر اهمية هذا الموضوع أيضا في كشف الاصول التي قام عليها الاقتصاد الاوروبي في العصر الحديث .

ولما كانت دراسة التاريخ الاقتصادي من أعقد فروع الدراسات التاريخية وأصعبها ، فضلاً عن أنها ما تزال بكرا ، فان الدراسات الحديثة التي تناولت بعض جوانب النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط لا زالت قليلة وتفتقر في معظمها الى العمق . يضاف الى ذلك ان معظم الذين قاموا بهذه الدراسات هم من الباحثين الاوربيين الذين نظروا الى مسألة النشاط التجاري للمدن الايطالية في شرق البحر المتوسط من وجهة نظر أوربية أو من وجهة نظر الجمهوريات الايطالية ومصالحها التجارية الكبرى في بلدان الحوض الشرقي للبحر

المتوسط . ولهذا اخترت دراسة موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين » من وجهة النظر الشرقية ، ولكشف مغاليقه وأهميته لا بالنسبة الى المدن الايطالية فحسب وانما بالنسبة الى بلدان شرق البحر المتوسط في فترة من أخصب فترات التاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى .

وكان من الصعوبة بمكان دراسة النشاط التجاري لكافة الجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولهذا فقد قام هذا البحث على دراسة النشاط التجاري لأبرز هذه الجمهوريات وأكثرها أهمية وهي : البندقية وجنوه وبيزا . وذلك لأن هذه المدن الايطالية الثلاث كانت من أقدم المدن التجارية الايطالية التي أقامت علاقات تجارية منظمة مع بلدان شرق البحر المتوسط. وكانت في مقدمة المدن الايطالية التي تحولت الى قومونات تجارية حرة وتطورت تنظيماتها التجارية والمالية والبحرية لتلبية متطلبات المتاجرة مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . كما هيمنت البندقية وجنوه وبيزا على تجارة شرق البحر المتوسط ، حتى أن استمرار وتطور التجارة بين الشرق والغرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كان مرهونا بالعلاقات التجارية التي أقامتها هذه الجمهوريات التجارية الثلاث مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط من جهة وبالعلاقات التي قامت بين هذه الجمهوريات الثلاث من جهة ثانية .

واتبعت في دراستي لهذا الموضوع منهجا علميا قائما على الوصف والتحليل للحقائق التاريخية . ومقارنة روايات المؤرخين المعاصرين ، ومراعاة قرب كل منهم أو بعده عن الواقعة التاريخية . ولم تكتف الدراسة بعرض الحقائق التاريخية وانما اتبعت منهج النقد والتحليل والتفسير في محاولة لربط الحقائق التاريخية ووضع الوقائع في أماكنها الصحيحة بغية الوصول الى الحقيقة التاريخية .

واقتضى منهج البحث دراسة كل جمهورية ايطالية،من الجمهوريات الثلاث : البندقية وجنوه وبيزا ، على حده ، كوحدة مستقلة لها مصالحها التجارية الخاصة ولها نظرتها الخاصة في فهم الأمور التي تخدم هذه المصالح ، ولها أساليبها وسياستها الخاصة للوصول الى اهدافها

الاقتصادية الكبرى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ومهدت لهذه الدراسة ببحث تطور النشاط التجاري لكل مدينة من المدن الثلاث والظروف التي احاطت بهذا النشاط التجاري والعوامل التي ادت الى ازدهاره او انحطاطه . واقتضى البحث دراسة أحوال الجاليات التجارية الايطالية التي عاشت في مدن وموانىء الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، والمعاملات التجارية والمالية السائدة وقتذاك .

واقتضت طبيعة دراسة هذا الموضوع أن ينقسم البحث الى خمسة أبواب يتلوها خاتمة . درست في الباب الاول موضوع « عوامل ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين » وانتهى بحث هذا الموضوع الى أن هناك أربعة عوامل رئيسية كان لها دور كبير في ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية التجارية وهي : ظهور القومونات الايطالية ، وتطور التنظيمات التجارية والتنظيمات المصرفية والمالية اضافة الى تطور الملاحة في المدن الايطالية وأثره على النشاط التجاري لهذه المدن في الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

وفي الباب الثاني عالجت موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الدولة البيزنطية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين» موضحا فيه أن هذا النشاط قد ارتكز على أربع مسائل رئيسية وهي دور الجمهوريات التجارية الايطالية في الحملة الصليبية الرابعة وامبراطورية نيقية وازمة النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في هذه الامبراطورية، والنشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في بيزنطة فيما بين ١٢٦١ — ١٤٠٠ م ، وأحوال الأحياء التجارية الايطالية في القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٤٠٠ م) واهميتها الاقتصادية .

واقتصر الباب الثالث على دراسة موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في المدن والامارات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي » وألقت الدراسة الكثير من الضوء على الامتيازات التجارية التي منحها الملوك والامراء الصليبيون للمدن التجارية الايطالية وأبرزت أثر التنافس التجاري الذي نشب بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية على النشاط التجاري لهذه المدن . ودرست في هذا الباب الأحياء التجارية الايطالية في المدن الصليبية وادارتها واهميتها التجارية ، والتنظيمات

التجارية للمدن الايطالية في المدن الصليبية وانواع السلع والمتاجر التي تم تبادلها بين المدن الايطالية والمدن الصليبية خلال القرن الثالث عشر الميلادي .

وفي الباب الرابع تناولت موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية مع القوى الاسلامية في مصر والشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر » . واقتصر هذا الباب على دراسة تطور العلاقات التجارية بين المدن الايطالية ومصر والشام ، مفسرا تلك المعاهدات التجارية التي تم توقيعها بين الطرفين ، والظروف التي أحاطت بالنشاط التجاري للمدن الايطالية على امتداد القرنين الثالث عشر والربع عشر . وعالج الباب الرابع أيضا موضوع التنظيمات التجارية والمعاملات المالية التي اتبعتها المدن الايطالية في نشاطها التجاري في مصر والشام ، واحوال الجاليات التجارية الايطالية في موانىء مصر والشام والامتيازات التجارية التي حظيت بها المدن التجارية الايطالية .

وبحث الباب الخامس موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط » وذلك بغية استكمال صورة نشاط الجمهوريات في الحوض الشرقي للتوسط . وشرح هذا الباب النشاط التجاري للبندقية في جزيرة قبرص والامتيازات التجارية . التي حصل عليها البنادقة في هذه الجزيرة . وناقش الباب موضوع استيلاء البندقية على جزر كريت ونيقروبونت ومودون وكورون وأهمية هذه الجزر التجارية بالنسبة الى النشاط التجاري للبنادقة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتناول الباب الخامس أيضا موضوع النشاط التجاري للجنوية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط مبيناً الامتيازات التجارية التي حصل عليها الجنوية في جزيرة قبرص ، واستيلائهم على مدينة فماجوستا . وانتهى هذا الباب بدراسة موضوع النشاط التجاري للجنوية في جزيرة خيوس ، ثم احتلال جنوة لهذه الجزيرة منذ أواسط القرن الرابع عشر .
وفي الخاتمة : عرضت لأهم النتائج والاستنتاجات التي توصل اليها البحث .

وبعد لا يسعني الا أن أسدي الشكر خالصاً الى استاذي الفاضل الدكتور حسنين محمد ربيع واستاذي الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور لتشجيعهما ونصائحهما العلمية القيمة .

كما اتقدم بالشكر الى أعضاء هيئة التدريس بمدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن لاستضافتهم لي لمدة عام ، وكذلك للسادة أمناء مكتبات دار الكتب المصرية ، مكتبة جامعة القاهرة ، ومكتبات البودليان وكمبردج والمتحف البريطاني بانجلترا .

والله أسأل أن أكون قد وفقت ، فيما ذهبت اليه ، والله ولي التوفيق .

القاهرة ١٩٧٨/٨/١٥

عادل زيتون

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث :

اعتمد البحث على ثلاث مجموعات رئيسية من المصادر هي : المصادر اللاتينية والمصادر اليونانية والمصادر العربية .

أولا ـ مجموعة المصادر اللاتينية ، وتنقسم بدورها الى ثلاثة أقسام :

آ ـ الكتابات التاريخية :

وهي كتابات ابرز المؤرخين اللاتين المعاصرين الذين دونوا الحوادث كشهود عيان ، أو نقلوها عن الباحثين السابقين . ويعتبر المؤرخ **وليام الصوري** William of Tyre من أبرز المؤرخين الصليبيين في القرن الثاني عشر الميلادي . وعرض هذا المؤرخ في مؤلفه : **تاريخ الأعمال المنجزة فيماوراءالبحر** (١) (A History of deeds done beyond the Sea, 2 vols) أحداث مملكة بيت المقدس منذ عام ١٠٩٩ م حتى عام ١١٨٤ م . وذكر وليام الصوري معلومات هامة عن الامتيازات التجارية التي منحت للايطاليين في المدن والامارات الصليبية حتى عام ١١٨٤ م ، وعن أحوال الجاليات التجارية الايطالية في المدن الصليبية والعلاقات السياسية والاقتصادية التي قامت بين الايطاليين والصليبيين .

وتلى كتاب وليام الصوري في الاهمية كتابات المؤرخ الصليبي يعقوب دي فتري Jacques de Vitry ، الذي يعتبر مؤرخ مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر . وكان يعقوب اسقفا على مدينة عكا في عام ١٢١٧ م ، ثم أصبح بطريركا لمملكة بيت المقدس وقد أفادنا في كتابه المسمى: تاريخ القدس (The History of Jerusalem) عند دراسة النشاط

(١) اعتمدت على الترجمة الانجليزية للاصل اللاتيني :

William of Tyre, Hist. of deeds. , 2 vols. Trans. By E. A. Babcock and A. C. Kery, Newyork, 1943.

التجاري للمدن الايطالية في المدن والامارات الصليبية وأمدنا بمعلومات قيمة عن التنافس التجاري الذي نشب بين المدن التجارية الايطالية في القرن الثالث عشر ، وأثره على مستقبل مملكة بيت المقدس(٢) . كما تحدث ديفتري في كتابه عن أحوال الجاليات التجارية الايطالية في مملكة بيت المقدس ، وأشار الى أنه اعتمد على المؤرخ وليام الصوري في تأريخه للحوادث المتعلقة في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

ويعتبر فيليب نوفار Philip de Novar مؤرخ مملكة بيت المقدس وقبرص في القرن الثالث عشر . وكتب فيليب مؤلفة (٣) المسمى : حروب فردريك الثاني ضد آل ابيلين في سورية وقبرص فيمابين عامي ١٢٤٣ـ١٢٤٦م. (The wars of Frederick 11 against the Ibelins in Syria and Cyprus) وكان فيليب فارسا تابعا لآل ابيلين Ibline أصحاب بيروت . وأمدنا فيليب نوفار بمعلومات هامة عن الامتيازات التجارية التي منحها حنا ابيلين للجنوية في بيروت وقبرص عام ١٢٢١ م ، وعن الامتيازات التجارية التي منحت للجنوية والبنادقة في تلك الفترة أيضا . وتحدث فيليب نوفار في كتابه عن الانقسام الذي حدث بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية عند وصول الامبراطور فردريك الثاني ، والصراع بين الجولفيين والجبليين في المدن الصليبية وأثر ذلك كله على النشاط التجاري للمدن الايطالية في المملكة الصليبية وقبرص . ويظهر المؤرخ نوفار تعاطفا واضحا مع الجنوية ضد البيازنة وربما السبب في ذلك أن الجنوية وقفوا الى جانب أسياده من آل ابيلين ضد الامبراطور فردريك الثاني في حين أن البيازنة ظلوا انصار الامبراطور ومؤيديه .

ومن كتابات المؤرخين اللاتين المعاصرين التي أفادت البحث كتاب جوفري فيل هاردوان : فتح القسطنطينية

(٢) اعتمدت على الترجمة الانجليزية للاصل اللاتيني في مجموعة :

Palestine pilgrims Text Society , vol. XI, London, 1896

(٣) اعتمدت على الترجمة الانجليزية للاصل اللاتيني :

Philip de Novar, The Wars of Frederick 11 against the Ibelins in Syria and Cuprus, Trans. By J. L. Lamonte , Newyork, 1936.

(Villehardouin, G. The Conquest of Constatinople,)

وفي هذا الكتاب (٤) أشار هاردوان الى دور المدن التجارية الايطالية في الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م وأثر سقوط القسطنطينية بأيدي اللاتين على تجارة المدن الايطالية في بيزنطة والبحر الاسود والقى هذا الكتاب الضوء على أحوال البيازنة والجنوية في بيزنطة وامبراطورية نيقيه بعد احتلال اللاتين للقسطنطينية وتبرز أهمية ما أفادنا به فيل هاردوان أنه كان واحدا من الذين خططوا للحملة الصليبية الرابعة وشاركوا فيها . ويلي كتاب هاردوان في الاهمية كتاب روبرت كلاري : فتح القسطنطينية . : (٥) Clari, R., The Conquest of Constantinople

ومن المعروف أن روبرت كلاري شارك في الحملة الصليبية الرابعة كصليبي عادي ، وأمدنا بمعلومات قيمة عن دور المدن الايطالية في هذه الحملة وتقسيم الدولة البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة عام ١٢٠٤م .

ب ـ كتابات الرحالة والحجاج اللاتين :

وتعتبر كتابات الرحالة والحجاج اللاتين الذين زاروا بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين من أهم مصادر البحث لما احتوت عليه من معلومات هامة لانجدها في كتب التاريخ المعروفة . وابرز هؤلاء يأتي الرحالة الالماني بركارد : Burchard الذي زار بلاد الشام ومصر عام ١٢٨٠ ، وأقام عشر سنوات في جبل صهيون في فلسطين والف كتابه وصف الارض المقدسة (Adescription of the Holy land) ١٢٨٣ (٦) . وقد أمدنا هذا الرحالة بمعلومات طيبة

---

(٤) اعتمدت على الترجمة الانجليزية :
Clari, R., The Conquest of Constantinople, Newyork, 1936 .

(٥) اعتمدت على الترجمة الانجليزية :
Villehardouin, G., The Conquest of Constantinople (Eng. Trans.), Londn 1976 .

(٦) اعتمدت على الترجمة الانجليزية الموجودة في مجموعة :
P. P. T. S.,, vol., X11, London, 1897

عن ثروات المدن الشامية والمصرية التي كانت موضع اهتمام التجار الايطاليين ، وتحدث في رحلته عن أحوال الجاليات التجارية الايطالية المتناثرة في المدن الصليبية وعلاقات هذه الجاليات فيما بينها . ومما يؤخذ على كتاب الرحالة بركارد أنه لم يذكر المصادر التي اعتمد عليها فيما أمدنا به من معلومات ، الا أن النقد التاريخي يثبت أنه نقل كثيرا من كتابات وليام الصوري ويعقوب دفتري فيما كتبه عن مملكة بيت المقدس في الفترة التي لم يعاصرها .

أما الرحالة الالماني لادولف Ludolph فقد قام برحلته الى مصر والشام في عام ١٣٤١م . وكتب مؤلفه المسمى وصف الارض المقدسة . (Description of the Holy land) عام ١٣٥٠ م (٧) . وأفادنا هذا الرحالة عند الحديث عن الجاليات التجارية الايطالية في المدن الصليبية والصراع الذي اندلع بين الجوافيين والجبيللين في أواسط القرن الثالث عشر في مملكة بيت المقدس وأثره على النشاط التجاري للمدن الايطالية ، كما أمدنا بمعلومات قيمة عن الجاليات التجارية الايطالية في أواسط القرن الرابع عشر ، ومما يؤخذ على هذا المؤرخ أنه حمّل مسؤولية سقوط مملكة بيت المقدس في أيدي العرب المسلمين (١٢٩١ م) الى المدن التجارية الايطالية التي انهمكت في البحث عن الارباح والسلع دون الاهتمام بمصالح المملكة والصليبيين .

واستفاد البحث كثيرا مما كتبه الرحالة الايطالي نيقولا Niccolo الذي زار مصر والشام فيما بين سنتي ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨ م . وسجل نيقولا مشاهداته في المدن الشامية والمصرية . وأشار الى الجاليات التجارية الايطالية التي كانت تعيش في موانىء مصر والشام ، وأمدنا بمعلومات طيبة عن أحوال هذه الجاليات وفنادقها وأنواع السلع والمتاجر التي كانت موضع اهتمام التجار الايطاليين . وبالرغم من أن نيقولا لم يحدد مصادر معلوماته بدقة الا انه كان يشير الى أن هذه المعلومات أخذها من التجار الايطاليين او التجار الفرنجة بصفة عامة ، الذين كان يلتقي بهم أثناء رحلته في موانىء مصر والشام .

---

(٧) اعتمدت على الترجمة الانجليزية الموجودة في مجموعة :
P. P. T. S.,, vol., X11, London, 1895

وهناك كتابات بعض الرحالة اللاتين المعاصرين الذين زاروا بيزنطة والشرق الاقصى بمهمات رسمية من قبل البابوية أو ملوك أوربا . فقد استفاد البحث من كتابات الرهبان الفرنسيسكان مثل الراهب كاربيني Carpini الذي بعثه البابا انوسنت الرابع الى بلاط خان المغول عام ١٢٤٥ م ، وكتابات الرحالة الراهب روبروك الذي بعثه الملك لويس التاسع الى خان المغول عام ١٢٥٣ . وأمدنا هذان الراهبان بمعلومات قيمة عن سلع ومتاجر الشرق الاقصى التي كان ينقلها التجار الايطاليون من بيزنطة والبحر الاسود الى الغرب الاوربي .

ج ـ مجموعات الوثائق :

نشر تافيل وتوماس Tafel and Thomas ، مجموعة الوثائق التي تتعلق بتجارة مدينة البندقية في بيزنطة ومصر والشام (٨) وقد زود توماس وتافيل هذه الوثائق بملاحظات نقدية هامشية توضح الظروف السياسية التي واكبت توقيع كل وثيقة .

واعتمد البحث على مجموعة الوثائق التي نشرها ماس لاتري : Mas Latrie (٩) والتي تتعلق بتاريخ جزيرة قبرص . وفي الجزء الثاني من مجموعته نشر ماس لاتري المعاهدات التجارية المعقودة بين حكام المدن الايطالية والملوك القبارصة ، منذ اعتلاء آل لوزجنان العرش في قبرص حتى عام ١٤٣٢ م . ونشر ماس لاتري مجموعة اخرى تحت اسم : Traité des paix et de Commerce وهي المعاهدات التي عقدتها البندقية مع السلاطين الايوبيين والمماليك وتتكون هذه المجموعة من / ١٤ /وثيقة باللغة اللاتينية اشتملت على الامتيازات التجارية التي تمتع بها البنادقة في مصر . كما اعتمدت الدراسة على مجموعة الوثائق التي نشرها ميخائيل آماري (١٠) : Micheal Amari في دراسة العلاقات التجارية بين بيزا ومصر والشام ، وبصفة خاصة المعاهدات التجارية التي

(8) urkunder zur alteren Handels-und Staatsges
3 vols. (1856—57).

(9) Hist. de L'ile de Chypre , 3 vols. , Paris, 1861.

(10) Amari, M. DILOMI ARABI de R. Archivio Florentino, 1863 .

وقعها البيازنة مع الخلفاء الفاطميين وسلاطين الايوبيين . وألقت هذه المعاهدات ضوءا على أحوال الجاليات التجارية البيزاوية في مصر والشام والامتيازات التجارية التي تمتعت بها . واستفاد البحث من مجموعةالوثائق التي نشرها فيليب ارجنتي Philip Argenti والتي تتعلق باستيلاء الجنوية على جزيرة خيوس والادارة الجنوية لهذه الجزيرة منذ أواسط القرن الرابع عشر والمجموعة (The occupation of Chios by The Genoese مؤلفة من ثلاثة أجزاء ، احتوى الجزء الاول على وثائق باللغة اللاتينية وبعضها بالايطالية القديمة في حين احتوى الجزء الثاني والثالث على دراسة الباحث آرجنتي لهذه الوثائق .

ثانيا : المصادر اليونانية :

واستفاد البحث من عدد من المصادر اليونانية التي تعود الى الفترة موضوع البحث خاصة ما كتبه المؤرخ نيقفوروس جريجوري (١١) N. Gregorae (١٢٩٥ ـ ١٣٦٠ م) فقد كان كاتبا موسوعيا ، وكتب تاريخا يمتد من ١٢٠٤ الى عام ١٣٥٩ م . قدم فيه ملخصا عن تاريخ امبراطورية نيقيه والسنوات الاولى من تاريخ الامبراطورية البيزنطية في القسطنطينية بعد استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١م .

وقد أفدنا في البحث من مؤلفه في دراسة النشاط التجاري للمدن الايطالية في بيزنطة خلال عهد الامبراطور اندرنيق الثاني والثالث بصفة خاصة ، وفي القاء الضوء على احوال الجاليات التجارية الايطالية في بيزنطة . وفي بحث التنافس التجاري الذي قام بين الجنوية والبنادقة في الإمبراطورية البيزنطية والبحر الاسود . ومما يؤخذ على هذا المؤرخ الكره الشديد الذي يكنه للاتين عامة وللتجار الايطاليين بصفة خاصة .

واستفاد البحث من مصدر يوناني آخر هو تاريخ الامبراطور حنا كنتاكوزينوس (١٢) Kantakouzenos الذي ولد عام ١٢٩٥ م ، واعتلى

(11) Gregorae, N., Byzantine Historia, in C. S. H. B., 3 vols. Bonn, 1829, 1830 , 1855 .

(12) Kantakouzenos, Historiarum, 3 vols. in C. S. H. B., Bonn, 1828 — 32 .

العرش البيزنطي عام ١٣٤٧ م والف كتابه بعد ان خلع عن العرش عـام ١٣٥٤م وقبل وفاته في ١٣٨٣م . وقد أوجز المؤرخ في مقدمة كتابه تاريخ الامبراطورية البيزنطية منذ عام ١٣٢٠ الى عام ١٣٤٧م ، ثم توسـع في كتابته عن الاحداث التي عاشتها بيزنطة من عام ١٣٤٧م حتى عام ١٣٨٢م . والقى تاريخ الامبراطور حنا ضوءا على الصراع الذي دار بين الجنوية من جهة وبيزنطة والبندقية من جهة ثانية فيما بين عامي ١٣٤٩ ـ ١٣٥٢ م كما استفاد البحث كثيرا من تركيـز المؤرخ الامبراطور حنـا على النفوذ الاقتصادي والمالي الكبيرين اللذين تحققا للجنوية في الامبراطورية البيزنطية عامة ومستوطنة غلطا بصفة خاصة .

ومن المصادر اليونانية الهامة التي استفاد منهـا البحث ، مؤلف المؤرخة البيزنطية آناكومنين ، ابنـة الكسيوس كومينـين المسمـى The Alexiad وفي هذا الكتاب تحدثت آنا كومنين عن الامتيازات التجارية التي حصلت عليهـا البندقية في بيزنطة بموجب معاهـدة عام ١٠٨٢ م . واعتمـدت على كتاب المؤرخ حنـا كنـاموس J. Kinnamos في بحث النشاط التجاري للايطاليين في بيزنطة في عهد الامبراطور حنا كومنين وابنه الامبراطور مانويل . كما اعتمدت على كتـاب المؤرخ نيقتاس كونياتس Nicetas Choniates في دراسة النشاط التجاري للمدن الايطالية في الامبراطورية البيزنطية منذ عام ١١٨٠ م حتى عام ١٢٠٥ م .

ثالثا : المصادر العربية :

وامدتنا المصادر العربية المعاصرة بمعلومات هامة لدراسة النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وتعتبر مخطوطة الحنبلي « شـفاء القلوب في مناقب بني أيوب » من أهم المصادر العربية التي تحدثت عن النشاط التجاري للمدن الايطالية في مصر والشام في عهد الايوبيين وبخاصة في عصر السلطان الملك العادل الاول .

اما كتاب محي الدين بن عبد الظاهر « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » فقد القى الضـوء على العلاقة بين الجنوية والسلطان الظـاهر بيبرس والتنافس بين الجنوية والبنادقة في مصر والشام . وترجع اهمية كتاب شافع بن علي « الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور »

الى انه أشار الى نشاط المدن الايطالية في مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون والسياسة الاقتصادية التي اتبعها قلاوون تجاه التجار الايطاليين واهتمام السلطان بحماية التجار الايطاليين وفنادقهم في مصر . أما كتاب بيبرس المنصوري «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » فقد القى ضوءا كبيرا على النشاط التجاري للمدن الايطالية في بيزنطة والبحر الاسود فضـلا عـن مصر والشام في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

ومن المصادر العربية التي أمدت البحث بمعلومات قيمة عن النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط كتاب القاضي عبد الباسط « نيل الامل في ذيل الدول » الذي كتبه ليكون تكملة لكتاب الحافظ شمس الدين الذهبي « دول الاسلام » . وكتاب « صبح الاعشى في صناعة الانشا » للقلقشندي ، ومجموعة مؤلفات أحمد بن علي المقريزي خاصـة : « ثغر دمياط » و « اغاثة الامة في كشف الغمة » و « كتـاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » و «كتاب السلوك لمعرفة الملوك ». وكتابي ابن اياس « جوهر السلوك في اخبار الخلفاء والملوك» و « نشق الازهار في عجائب الاقطار » . وكتـاب ابن حجـر « بـذل الماعون في فوائـد الطاعون » . وكتاب « الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين » . وكتاب «الانتصار لواسطة عقد الامصار» لابن دقماق . وكتاب ابن صصري «الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية » . وكتاب ابن ظهيرة « الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة » . وكتاب « قوانين الدواوين » لابن ممـاتي . و « مفرج الكروب في اخبار بني ايوب » لابن واصل . وكتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » لابن شاهين . و « المنهاج في علم خراج مصر » للمخزومي . وكتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للدمشقي . و « تاريخ بيروت » لصالح بن يحي . وبالاضافة الى ذلك كله اعتمد البحث على ماكتبه الصيرفي والعمري والصفدي وابن القلانسي وابن العديم وابن بطوطه وابن جبير وبنيـامين التطيلي وابن سـعيد المغربي وابن المجـاور والادريسي والبلوي والنويري السكندري وغيرهم .

الباب الأول

عوامل ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية

في الحوض الشرقي للبحر المتوسط

خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر

الفصل الأول

ظهور القومونات الإيطالية

عاش الغرب الاوربي منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وحتى بداية القرن الحادي عشر فترة انهيار تجاري ، وذلك لان التنظيم الاقتصادي الذي فرض نفسه ، على امتداد هذه الحقبة التاريخية ، في الغرب الاوربي ، كان تنظيما زراعيا ، شكل النظام الاقطاعي فيه القاعدة الاساسية ، في حين لم يكن للتجارة والصناعة الا دور محلي ضئيل (١) .

وخلال الحقبة نفسها ، كانت ا لصورة في الدولة البيزنطية مغايرة تماما لما كان يجري في الغرب الاوربي ، حيث استمرت القسطنطينية قوة بحرية وصناعية كبرى في عالم البحر المتوسط ، ومركزا رئيسيا التجارة الدولية وسوقا مزدهرا لمتاجر روسيا والهند والصين وفارس والشام ومصر وشمال أفريقية (٢) .

وفي ظل هذا التغاير ، بين اقتصاد الغرب الاوربي واقتصاد الدولة البيزنطية ، شكلت شبه الجزيرة الايطالية ظاهرة اقتصادية متميزة ، مكنتها في النهاية من أن تلعب دورا هاما في أقتصاد العصور الوسطى ، وذلك لان ايطاليا لم تصل الى قمة النظام الاقطاعي الذي وصلته البلاد الواقعة خلف جبال الالب ، كما استمرت التجارة والصناعة فيها اكثر ازدهارا ونشاطا من اية بقعة أخرى في الغرب الاوربي (٣) . وربما كان

(1) Latouche, R. the birth of western economy (London, 1961), P. 301 ; Pirenne, H., History of Europe (London , 1961) P. 20 .

(2) Atiya, A.S., Crusade, Commerce and culture (Bloomington, 1962) , P. 164 ; Pirenne ; Med. Cities (Princeton, 1939) , PP. 84 — 85.

(3) Thompson, J. W. , Economic and social history of the middle ages (Newyork , 1959) , vol. 1, P. 317.

مرجع ذلك الى أن ايطاليا كانت ، لقرون طويلة ، قلب الامبراطورية الرومانية وحضارتها ، فانحسار التراث الروماني فيها كان أكثر بطئا مما كان عليه في غاليا واسبانيا (٤) ، فقوانين الرومان وتقاليدهم كانت في ايطاليا اكثر صلابة ورسوخا من أي مكان آخر ، والطرق التجارية الرومانية فيها لم تندثر كلية ، كما أن غزوات القوط واللمبارديين لم تدمر كل معالم الحياة المدنية فيها ، بل سرعان ما استأنفت معظم المدن الايطالية تطورها كمراكز رئيسية للتبادل الاقتصادي ، وفضلا عن ذلك كله فقد استمرت طبقة التجار والصناع الحرفيين تمارس نشاطها في المدن الايطالية في الوقت الذي انعدمت فيه هذه الطبقة في الغرب الاوربي قاطبة آنذاك (٥) .

واذا أضفنا الى العوامل السابقة الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة الايطالية ، الذي مكنها من أن تفرض نفسها كقوة بحرية تجارية في عالم البحر المتوسط (٦) ، يمكننا أن نفسر لماذا كانت ايطاليا رائدة الاحياء التجاري في القرن الحادي عشر ، ومنطلق الحركة القومونية .

ويلاحظ أن حركة الاحياء التجاري ونمو المدن التجارية الايطالية عامة ، والبندقية وجنوه وبيزا خاصة ، ادى الى تغيرات كبيرة في البناء الاجتماعي والسياسي لهذه المدن ، وكانت القوة الرئيسية الفاعلة في هذه التغيرات هي ظهور طبقة التجار .

ان عقائد المجتمع الاقطاعي وتقاليده حددت دور كل انسان والطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، فسكان المدينة الايطالية كانوا – قبل حركة الاحياء التجاري – من رجال الدين والنبلاء والاقنان وحكومتها كانت اقطاعية كهنوتية ، ومعيار الثروة فيها ملكية الارض ومواردها ، وفي الوقت الذي كانت فيه السلطة السياسية والاقتصادية في المدينة بأيدي الطبقة الاولى ، أي رجال الدين والنبلاء ، كانت الطبقة الثانية ، أي الاقنان ، تعتبر ارتباطها بالارض قدرها ، وخدمتها للطبقة الاولى المهمة الاساسية لوجودها ، ولهذا عمل رجال الدين والنبلاء على ابقاء النظام

(4) Pounds, N. G. , An Economic history of Med. Europe (London, 1974), PP. 103 — 104.

(5) Ibid. ; Bautire, R. H. The Economic development (London, 1971), P. 65 ; Pirenne ; Med. cities ; P. 112.

(6) Bautire, Op. cit., P. 65.

القائم للاشياء ، حفاظا على مصالحهم السياسية والاقتصادية (٧) .

واثار ظهور طبقة التجار تغييرا كبيرا في المجتمع الاوربي الوسيط ، اذ نظر رجال الدين (٨) الى التجارة على أنها خطر على روح الانسان وحياته لما بها من الربا الفاحش (٩) ، واعتبر النبلاء التجار أعداء النظام الاقطاعي القائم وتنظيماته (١٠) ، في حين رأى الاقنان في التجار منقذين لهم من العبودية وفي التجارة مثلا أعلى للحرية الاجتماعية والاقتصادية .

ولم يرغب التجار ، في البداية ، في تحطيم النظم القائمة داخل المدينة الايطالية ، وانما أن تعترف الطبقة الاولى بحقهم في المساهمة في وضع قوانين مدينتهم ونظمها ، وفي الحصول على امتيازات ضرورية لطبيعة حياتهم التجارية (١١) ، الا أنه لم يكن باستطاعة رجال الدين والنبلاء فهم التغيرات الاجتماعية التي أحدثتها حركة الاحياء التجاري في المدينة الايطالية ، وما واكب ذلك من ظهور « الطبقة الوسطى » من التجار ، فقد حاولوا تطبيق النظم المفروضة على الاقنان على هذه الطبقة الجديدة من التجار (١٢) ، وصموا آذانهم عن مطالب التجار ، ومن هنا بدأ النزاع بين الطرفين ، في القرن الحادي عشر ، والذي تجسد بالحركة القومونية ، التي قادها التجار ومن خلفهم سكان المدينة ضد القوى السياسية والاقتصادية السائدة أو بتعبير آخر ضد الاساقفة والنبلاء ومن خلفهم الامبراطورية والبابوية (١٣) .

(7) Pirenne, Hist. of Europe, P. 220 ; Idem, Med. Cities, PP. 224 — 25.

(٨) كان رجال الدين من كبار ملاك الارض ، وقد قدرت ثروة الرهبان وحدهم بثلث ثروة الدولة في بعض الاحيان ، كما كان الرهبان والاساقفة وغيرهم من رجال الدين يقتنون الاقنان اقتناءهم للارض كما هو حال العلمانيين ويتصرفون بالعبيد بالبيع والشراء . انظر : كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، الترجمة العربية ، ص ١١٧ .

(9) Atiya, crusade, Commerce., P. 165.

(10) Pirenne, Hist. of Europe, P. 210.

(11) Idem, Med. Cities, PP. 126, 169 — 70.

(12) Ibid., PP. 173 — 74 ; Idem, Hist. of Europe, P. 220.

(13) Bautire, op. cit. p. 106.

ان اصطلاح قومون Commune يعني المدينة التي تتمتع بالاستقلال السياسي والحكم الذاتي ، وفقا لقوانين وتنظيمات تخدم مصالح الطبقة التجارية ، ويختار أهلها حكامهم وموظفيهم بأنفسهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجي يتحكم فيها (١٤) .

واختلف الباحثون في شرح جذور الحركة القومونية ، فاعتبرها البعض ارثا جرمانيا وارجعها البعض الآخر الى جذور رومانية (١٥) ، إلا أن ما يهمنا أن نؤكده هو أن ظهور الحركة القومونية في المدن الايطالية كان تحت تأثير حركة الاحياء التجاري من جهة وظهور طبقة التجار من جهة أخرى ، ولم يكن تحت تأثير ارث جرماني أو روماني .

وبالرغم من مقاومة النبلاء ورجال الدين لمطامح التجار وأهدافهم فان هؤلاء ، حتى بداية القرن الحادي عشر ، لم يقوموا بأي اعمال عنف ضد النظام القائم ، فاذا كانت مدينة ميلان قد تحولت ، عام ١٠٥٧ م الى قومون عن طريق استخدام القوة ضد رئيس أساقفتها (٣) ، الا أن العنف لم يكن عاملا أساسيا في تحول المدن التي تعنينا في البحث وهي البندقية وجنوه وبيزا ، الى قومونات مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، وذلك لان الحركة القومونية التي قادها التجار في المدن الاخيرة هذه كانت تطورا مسايرا للتطور السياسي والاقتصادي لهذه المدن الايطالية نتيجة للاسباب التالية :

أولا : لقد افادت الحركة القومونية في هذه المدن من الفوضى التي دبت في النظام الاقطاعي نتيجة حركة الاحياء التجاري (١٧) ، ومن التمزق الاجتماعي والاقتصادي الذي كانت تعانيه طبقة الاقنان (١٨) ، وادت حركة

---

(14) Pirenne : Med. Cities, PP. 171, 212 .

انظر ايضا : عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٠٧

(١٥) انظر مناقشة هذه المسألة في :

Hutchinson, oriental trade and the rise of the lombard commuens' PP. 413 — 14.

(16) Pirenne, Med. cities, PP. 171 , 175.

(17) Bautire, op. cit., P. 106.

(١٨) لقد انضم الى الحركة القومونية عدد من الرهبان ورجال الدين للتخلص من فساد الكنيسة والاساقفة . كما يعتقد هنري بيرين : انظر :

Pirenne, Med. cities, P. 174.

الاحياء التجاري وقيام المدن الى تحرير الاقنان ، بحيث اخذت اعداد كبيرة منهم في مغادرة أراضي أسيادهم واللحاق بالمدن ، خاصة وان المشاريع التجارية ادت الى استخدام أعداد من طبقة الاقنان في العمل التجاري مقابل أجر نقدي (١٩) .

ثانيا : قاوم النبلاء الحركة القومونية أول الامر ، وتمكنوا من اعاقة تقدمها حينا ، الا أنهم لم يتمكنوا من كبح جماحها وبالتالي خضعوا للتغييرات الجديدة خوفا من أن معارضتهم للحركة القومونية سوف تؤدي بهم الى خسارة كل شيء ، ولهذا سرعان ما بدأ العديد من النبلاء في العمل التجاري والانخراط في صفوف التجار ، بل لم يتوان بعضهم عن مد أيديهم الى أكياس التجار للحصول على قروض للاشتراك في النشاطات التجارية (٢٠) ، وهذا أعطى الحركة القومونية دفعا قويا الى الامام ولعل أبرز مثال على ذلك هو تحول نبلاء مدينة جنوه الى رجال أعمال (٢١) .

ثالثا : لقد افادت الحركة القومونية من الازمات التي كانت تعانيها الامبراطورية الغربية ومن الصراع بين هذه الامبراطورية والبابوية وذلك لان هذه الصراعات وتلك الازمات كانت فرصة أمام القومونات الايطالية لتطور أهدافها ، فبعد أن كانت مطامح التجار – وهم قادة الحركة القومونية ، أن تعترف الطبقة الاولى بشرعية وجودهم كطبقة متميزة لها أهدافها ومصالحها الخاصة ، أخذوا يطالبون باستقلال مدينتهم وبأن تحكم نفسها بنفسها وفق أنظمة وقوانين تخدم مصالحهم التجارية وهذا أدى في القرن الثاني عشر والثالث عشر الى صراع طويل بين الاباطرة من جهة والقومونات من جهة أخرى ، وخرجت القومونات ظافرة من هذا الصراع (٢٢) .

---

(19) Lopez, R. S., The Dollar of the Middle Ages' JEH, X1 (1951) . P. 220 .

(20) Waley, D., The Italian city - Republics (London, 1972), P. 20 ; Hodgett, Asocial and Economic History of med. Europe, PP. 60 — 61 .

(21) Lopez, ' Market expansion ' , P. 448.

(22) Hutchinson, op. cit., PP. 431 — 32 .

لقد كانت البندقية ، وحتى مستهل القرن الحادي عشر ، تعتبر مدينة بيزنطية ، ويحكمها مندوب يعينه الامبراطور البيزنطي ، يطلق عليه اسم الـ Dux (٢٣) ، وهو الذي حولته اللهجة البندقية الى دوج Doge (٢٤) ، الا أن الضعف الذي دب في أوصال الدولة البيزنطية ، في أواخر القرن الحادي عشر ، أعطى الفرصة لسكان البندقية ، وبصفة خاصة الطبقة التجارية فيها ، لمعالجة مشاكلهم بأنفسهم دون العودة الى ممثل الامبراطور أو القسطنطينية ، وبالتالي لم يعد الدوج يعين من قبل الامبراطور البيزنطي وانما أصبح ينتخب من قبل سكان المدينة (٢٥) .

وبالرغم من أن منصب الدوج لم تحتكره عائلة بندقية بذاتها لفترة طويلة ، الا أن مجلس القومون البندقي (السناتو) ، الذي تشكل لاول مرة عام ١١٤٣ م ، كان في معظمه بأيدي العائلات البندقية الثرية (٢٦) ، ولكن اتساع هذا المجلس واختصاصه ـ فيما بعد ـ جعله يضم في عضويته كل رجال الاعمال البنادقة ، ومن هذا المجلس انبثقت كل التنظيمات التجارية والادارية والسياسية والعسكرية ، التي حكمت البندقية ومستوطناتها التجارية في الخارج ، وشكل القومون البندقي خلية اجتماعية متماسكة تمثلت فيها فكرة الوحدة البندقية (٢٧) .

وكان للبراءات والامتيازات التي منحها الاباطرة الالمان ، لكل من مدينتي جنوه وبيزا ، دورا هاما في توطيد تطور الحركة القومونية فيهما ،

---

(23) Mcneill, Venice, P. 4 .

(٢٤) قال ابن سعيد « وملكهم يدعى بالدج » ، وقال أبو الفداء والقلقشندي « وملكهم من أنفسهم يقال له الدوك » . انظر : ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص ١٨٢ ، ابو الفداء : تقويم البلدن ، ص ٢١١ ، القلقشندي : صبح الاعشى : ج ٥ ، ص ٤٠٤ .

(25) Hyde, J. K. , Society and politics in Med. Italy (London, 1973) , P. 59.

(26) Ibid. , P. 59 .

(27) Brown, H. F. , Studies in the history of venice (London, 1907) , PP. 336 — 37.

فمنذ عام ١٠٥٦ م حصل أهل جنوه على امتياز امبراطوري أكد حقهم في الحصول على الرسوم الجمركية من اسواقهم (٢٨) . ويعتبر هذا الامتياز خطوة هامة نحو تشكيل القومون الجنوي ، بحيث لم يكد ينتهي القرن الحادي عشر حتى شكلت جنوه قومونا تحت قيادة القناصلة المنتخبين من سكان المدينة (٢٩) . وفي عام ١١٩١م أنهى الجنوية نظام اختيار القناصل (٣٠) من العائلات القديمة ، وقاموا بانتخاب البودستا (٣١) من النبلاء الجنوية لمدة سنة واحدة (٣٢) ، وشكل القومون الجنوي كتلة اجتماعية واقتصادية واحدة (٣٣) .

ولقد حصل أهل بيزا أيضا على براءة من الامبراطور هنري الرابع عام ١٠٨١ م ، منحهم بموجبها حقهم في السيادة الكاملة على مدينتهم ، كما وعدهم بألا يعين أي مركيز في تسكانيا دون موافقة القناصلة الاثني عشر الذين ينتخبهم البيازنة لحكم مدينتهم (٣٤) ، وبعد أربع سنوات من هذه البراءة (١٠٨٥م) شكلت مدينة بيزا قومونا مستقلا (٣٥) ، واتخذ القناصلة مكانهم في ادارة المدينة بدلا من السادة الاقطاعيين (٣٦) .

وبالرغم من أن ظروفا وعوامل عديدة قد ساهمت في ظهور القومونات في كل من البندقية وجنوه وبيزا ، الا أنها جميعا اتصفت بسمات عامة مشتركة : أولا : ان قيام القومونات في هذه المدن لم يحدث نتيجة قرارات

---

(28) Waley ; op. cit. ; P. 20 ; Hyde , op. cit., P. 50 .

(٢٩) قال بنيامين التطيلي أن جنوه « لا يحكمها ملك بل شيوخ ينتدبهم الاهلون للقضاء» بنيامين ، الرحلة ، ص ٥٨ .

(30) Hyde, op. cit. , PP. 51 — 52.

(٣١) تحدث القلقشندي عن حكام جنوه قائلا أنهم « جماعة متفاوتو المراتب وهم : البودشطا والكبطان والمشايخ » انظر : القلقشندي : صبح الاعشى : ج٨ ، ص ٤٦ .

(32) Reynold, ' Business Class' , P. 8.

(33) Ibid., P. 4 .

(34) Bautire, P. 106 ; Hyde , PP. 49 — 50 .

(٣٥) قال بنيامين ان البيازنة : « لا يدينون بطاعة لملك وانما يمنحون السلطة شيوخا ينتدبونهم للحكم » . انظر : بنيامين ، ص ٥٨ .

(36) Beazley , The dawn of modern Geography, 11, P. 427 ; Hyde op. cit., P. 50.

بابوية أو امبراطورية ، وانما نبعت من الاحوال الواقعية والمبادرات المحلية(٣٧) . ثانيا : ان تطور القومونات في هذه المدن كان نتيجة تطور القوى الاقتصادية عامة والتجارية خاصة في كل منها (٣٨) . ثالثا : لقد هيمنت ، عمليا ، علىمجالس القومون ، في كل من البندقية وجنوه وبيزا ، العديد من العائلات الثرية ، ففي البندقية احتكرت حوالي / ٢٧ / عائلة نصف مقاعد المجلس الاعلى للقومون ، وفي بيزا احتكرت حوالي / ٣٠ / عائلة ثرية الحكم والمناصب الادارية العليا التابعة للقومون(٣٩) . رابعا : ان القومونات في المدن الآنفة الذكر : اتصفت ، كما يقول المؤرخ يعقوب ديفتري ، de Vitry بأن أعضاءها « يضعون قوانينهم الخاصة بأنفسهم ويحكمون انفسهم بأنفسهم تحت قيادة رئيس ينتخب من بينهم ويحافظون على تقاليدهم وقوانينهم بدقة وحرص شديدين » (٤٠) .

وبذلك لم يواجه التجار الايطاليون ، أثناء سعيهم لتحويل مدنهم الى قومونات مستقلة ، وأثناء صراعاتهم مع النبلاء والاساقفة ، أي تمييز عرقي أو ديني معاد لهم كما واجه التجار اليهود ، ولم يكن التجار الايطاليون بعيدين عن البحر المتوسط ، الذي كان قلب التجارة بالنسبة الى الشرق والغرب ، كما هو الحال بالنسبة الى الاسكندنافيين كما انهم لم يكونوا مقيدين بنظم اقتصادية قديمة أو بقوانين تجارية مفروضة عليهم من السلطات الامبراطورية أو الحكومات المحلية ، كما هو الحال بالنسبة الى التجار البيزنطيين ، ولهذا سرعان ما تحللوا من القيود التي كانت تربطهم بالسادة القدماء ، وتخلصوا من القوانين التي لا تخدم مصالحهم التجارية، وشكلوا قومونات حرة في مدنهم ، هي في حقيقتها : حكومات للتجار وبواسطتهم ومن أجلهم ، قومونات قادت تجارة عالم البحر المتوسط وتحكمت بثرواته خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

(37) Hyde, op. cit., P. 54 .

(38) Hutchinson, op. cit. , PP. 431 — 32.

(39) Gies, F., Life in a med. city ; P. 200 .

(40) Devitry, J., The Hist. of Jerusalem, P. 57.

الفصل الثاني

التنظيمات التجارية وأثرها في النشاط التجاري للجمهوريات

ومن أهم عوامل الازدهار التجاري للمدن الايطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، هو التطور الكبير الذي حدث في التنظيمات التجارية للقومونات الايطالية (البندقية وجنوه وبيزا) ، وذلك بظهور الشركات التجارية وتطور أشكال العقود التجارية . فقد خضعت التجارة الايطالية عبر البحر المتوسط الى بعض الظروف ، أبرزها الاخطار الناتجة عن القرصنة في البحر والحروب والمنافسات التجارية بين الدول التجارية نفسها أو بينها وبين سواها ، وهذا كله منع التجار من المتاجرة كأفراد فيما « وراء البحار » بأنفسهم(١) ، ولهذا ظهرت انواع من الشركات التجارية استهدفت تمويل التجارة الخارجية خاصة عبر البحر المتوسط ، وتوزيع المسؤوليات بين الافراد المشتركين في هذه المشاركة أو الشركة : Partenership وسمحت ، بالتالي ، باستخدام اكبر قدر ممكن من رؤوس الاموال في العمل التجاري(٢) .

ويعتبر التجار الايطاليون من أوائل التجار الأوربيين الذين استخدموا الشركات التجارية ، ويعود ذلك الى ازدهار النشاط التجاري في المدن الايطالية ، حتى أننا نستطيع أن نتلمس البدايات الاولى لمثل هذه الشركات التجارية في البندقية منذ القرن التاسع وفي مدينة جنوه منذ أواسط القرن الثاني عشر(٣) .

وخلال القرن الثاني عشر حل التاجر المقيم محل التاجر المتجول في المدن التجارية الايطالية ، فعندما انتظمت الرحلات التجارية البحرية وتأسست مستوطنات تجارية للمدن الايطالية في بلدان الحوض الشرقي

(1) Lopez, The Commercial Revolution, P. 73.

(2) Miskimin, The Economy of Early Renaissance , P. 118 ; Byrne , commercial contracts, P. 135 .

(3) Hodgett, op. cit., P. 62

للبحر المتوسط ، لم يعد امرا ضروريا أن يسافر التاجر بنفسه لجلب السلع والمتاجر ، وانما استخدم بعض هؤلاء التجار وكلاء أو مندوبين عنهم مهمتهم البحث عن المشترين والسلع والمتاجر ، الا ان المسألة التي واجهت التاجر المقيم في هذه الحالة ، هي ايجاد من يثق به في الاسواق التجارية النائية ، ومن هنا كان الحل الاول لهذه المسألة هو ظهور الشركة العائلية(٤) .

لقد كانت الشركة العائلية Family Partnership أقدم التنظيمات التجارية التي عرفتها المدن الايطالية(٥) ، وبالتالي القاعدة الاساسية للحياة التجارية وتطورها في ايطاليا بصفة عامة والبندقية بصفة خاصة (٦) . واستمد هذا الشكل من التنظيمات التجارية اصوله من طبيعة الحياة العائلية ذاتها ، فالأخوة كانوا يعيشون ، في معظم الأحيان في منزل واحد ، ولهذا اتفقوا على استثمار أموالهم أو منتجاتهم في مشروع تجاري مشترك(٧) ، فأحد الأخوة مثلا كان يعيش في البندقية ، في حين كان يعيش الأخوة الآخرون فيما وراء البحار ، ويتبادلون فيما بينهم الصفقات التجارية(٨) ، ولدينا مثال على ذلك ، يعود الى اواسط القرن الرابع عشر ، وهو أن ثريا بندقيا اسمه فدريكو كورنر F. Corner ومعه أخويه الاثنين ، احدهما عاش في قبرص واخذ يشحن التوابل والقطن والمتاجر الشرقية الاخرى الى مدينة البندقية ، في حين قام الأخ الآخر بتسويق هذه السلع والمتاجر في البندقية نفسها ، وأرسل بعد ذلك الى أخيه في قبرص اموالا نقدية للحصول على مشتريات أخرى ، وكان يرسل له بعض المتاجر لكي تباع في قبرص ، وفي مثل هذه الحالة فان كل أخ مسؤول مسؤولية كاملة عن ديون أخيه(٩) .

وقد شاع هذا النوع من الشركات العائلية في البندقية بصفة خاصة، حيث اشتركت العديد من العائلات الثرية في البندقية في هذه الشركات(١٠) ،

(4) Lane F., Amaritime Republic, P. 137.
(5) Mcneill, op. cit., P. 17 .
(6) Lane, ' Family Partnerships. ' P. 178.
(7) Ibid. , PP. 178 — 80
(8) Idem, Amaritim Republic, P. 138.
(9) Ibid., P. 138.
(10) Ibid., P. 138.

ولقد اثبت لين Lane ان العديد من عائلات البندقية قد عاشت في ظل هذا التنظيم « كوحدة تجارية متكاملة » وقامت بنشاطاتها التجارية كشركاء بدون اية عقود رسمية فيما بينهم وسرعان ما اصبحت الشركات العائلية ابرز أشكال التنظيمات التجارية انتشارا في البندقية(١١) .

وتطلب الازدهار التجاري في المدن الايطالية ، وما تبعه من تعدد المشاريع والنشاطات التجارية استخدام رؤوس اموال كبيرة ، ولهذا اتسعت التنظيمات التجارية وتعددت ، فبعد أن كانت ضمن العائلة الواحدة – كما رأينا – اتسعت لتشتمل على رؤوس اموال من خارج نطاق العائلة الواحدة(١٢) . وبذلك ظهرت تنظيمات تجارية اشتملت على افراد من عائلات عديدة ، وساهم هؤلاء الافراد بمبالغ كبيرة بهدف القيام بمشاريع تجارية مشتركة(١٣) . واتخذت هذه المشاريع او التنظيمات التجارية ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، شكل مشاركة بعقود تجارية رسمية ، تمّ توقيعها بين طرفين أو اكثر لتنفيذ مشروع تجاري معين ، وحددت في هذه العقود التجارية مدة المشروع ورأس المال ومسؤولية كل طرف من الاطراف الموقعة عليه ونسبة الارباح التي يجب أن يتقاضاها كل منهما ، وكانت العقود التجارية هذه النواة الاولى لقيام الشركات الحديثة .

وكانت العقود المسماة في البندقية الـ Colleganza وفي بقية المدن الايطالية الـ Commenda أي بمعنى زمالة(١٤) ، من ابرز العقود التجارية التي استخدمتها المدن الايطالية بصفة عامة والبندقية وجنوه بصفة خاصة،(١٥)،

(11) Idem, ' Family partnerships ' , P. 179.
(12) Atiya, crusade, Commerce ; P. 196.
(13) Lane , ' Family Partnerships , P. 178.

(١٤) يقابل نظام الكومندا هذا ، في تاريخ التجارة عند المسلمين ، نظام « القراض والمقارضة » . وبالتالي لم يكن الايطاليون هم الذين ابتدعوا هذا النظام التجاري وانما وجد في العالم الاسلامي قبل ان تعرفه أوربا . بل من المؤكد ان التجار الايطاليين قد أستفادوا من التجربة الاسلامية في هذا الميدان . انظر : نجاة الباشا : التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن للهجرة ، ص ٧٣ – ٧٥ .

(15) Mcneill, op. cit. , P. 17 ; Lopez ; commercial Revolution , P. 76. Byrne ; ' Commercial contracts ' P. 152.

لتمويل مشاريعها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وهي عقود تجارية رسمية تم توقيعها بين تاجرين ، أولهما : مقيم في المدينة — كجنوه أو البندقية مثلا ، ويسمى الـ Stans ويساهم بكامل راس مال المشروع التجاري ، وثانيهما الشريك المسافر ويسمى الـ Tactator وهو لا يساهم بأي مبلغ في رأس المال وانما مهمته ، استثمار الاموال فيما وراء البحار بعمل تجاري يحدده له الطرف الاول(١٦) ، وكان الطرف الثاني يتحمل مسؤولية كل الاضرار والمخاطر الناتجة عن الرحلة ، في حين كان الطرف الاول يتحمل مسؤولية كافة الخسائر التي تلحق براس المال (١٧) . وبعد العودة كان يتقاسم الطرفان أرباح المشروع التجاري بينهما وفقا لنسب اتفقا عليها مسبقا ، الا أن الدراسات التي قام بها عدد من أبرز المتخصصين في التاريخ الاقتصادي حول هذه المسألة ، أمثال بيرن Byrne ولين Lane ولوبز Lopez وباوندس Pounds وهودجت Hodgett وغيرهم ، أثبتت أن الارباح في مثل هذه العقود كانت تتوزع بين الطرفين ، بحيث يأخذ الطرف الاول ٣/٤ الارباح في حين يأخذ الطرف الثاني الـ ١/٤ الباقي(١٨) .

وهناك نوع آخر من العقود التجارية ، انتشر استخدامه في المدن الايطالية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، سميت بالعقود البحرية Societas Maris وقد تم توقيعها بين طرفين أولهما الـ Stans وهو يقيم في الوطن ، ويساهم بـ ٢/٣ من راس المال اللازم للمشروع التجاري ، وثانيهما الـ Tactator وهو الذي سيقوم بعملية استثمار الاموال فيما وراء البحار ويساهم بـ ١/٣ الباقي من راس المال اللازم(١٩)،

---

(16) Hodgett, op. cit., P. 62., Pounds, op. cit., PP. 420 — 21.
(17) Lopez, The commercial Revolution, PP. 76 — 77.
(18) Byrne ; commercial contracts ' , PP. 152 — 53 ; Lane . Amaritime , PP. 138 — 39 ; Lopez, The commercial Revolution, PP. 76 — 77 ; Pounds, op. cit., PP. 420 — 21 ; Hodgett, op. cit. ; P. 62 ; Mcneill, op cit., P: 17: Gies, op: cit:, P: 214
(19) Byrne, ' Commercial contracts ' , P. 136 .
Miskimin , op. cit., P. 118 .

وفي هذا النوع من العقود يحق للطرف الاول ، اي المستثمر ، أن يقرر المكان الذي يجب ان يتجه اليه الشريك الثاني وأنواع المتاجر التي يجب ان يجلبها معه ، في حين يجب على الشريك الاول نفسه انيتحمل مسؤولية بيع كل المتاجر التي يجلبها الشريك الثاني معه منرحلته ، وفي هذه النماذج من العقود تكون الارباح مناصفة بين الشريكين المتعاقدين(٢٠) وقد كشف بيرن Byrne ان معظم العقود التجارية التي استخدمها الجنويه في شرق البحر المتوسط بصفة عامة والشام بصفة خاصة ، كانت من هذا النوع من العقود ، كما أوضح بيرن ان راس المال اللازم في هذه العقود قد يكون سلعة او قد يكون مبالغ نقدية(٢١) .

ولقد تطورت العقود التجارية تطورا ملموسا ، بحيث أصبح بالامكان اشراك رؤوس اموال كثيرة لاستثمارها في مشاريع تجارية(٢٢) ، ولهذا نجد ان الايطاليين قد استخدموا أنواعا أخرى من العقود التجارية ، اشتملت على عدة أطراف ، وليس على طرفين ، كما هو الحال في عقود « الزمالة » والعقود البحرية ، ولكن كانت هذه العقود محددة بفترة زمنية معينة أو لرحلة تجارية واحدة . وكانت الارباح والخسائر توزع في النهاية بين المساهمين جميعا في هذا المشروع(٢٣) ، فمثلا كان يجمع عدد من الاشخاص مبلغا كبيرا من المال لشراء المتاجر من ما وراء البحار ، كشراء الفلفل من سلطان مصر ، وبعد أن ينفذ العقد يتم توزيع الارباح بين المساهمين في المشروع كل وفقا للمبلغ الذي شارك به(٢٤) .

كما انتشرت في البندقية وجنوه بصفة خاصة ، عقود تجارية أطلق عليها اسم عقود السفينة ، وهي أن يقوم عدد من التجار باستئجار سفينة تجارية من حكومة المدينة (البندقية أو جنوه) ، لرحلة تجارية واحدة(٢٥)

---

(20) Hodgett, op. cit., PP. 62 — 63.
(21) Byrne , Commercial contracts ' , PP. 136 — 37 , 144.
(22) Lopez, ' The Dollar ' , P. 224 .
(23) Byrne, ' Commercial contracts ' , PP. 142 — 43 .
(24) Lane , Amaritime ., P. 138
(25) Ibid., P. 138 .

او ان يقوم عدد من التجار بشراء سفينة تجارية عن طريق المشاركة ، وفي هذه الحالة فان التجار ، وهم ملاك السفينة او مستاجروها ، سيعملون على تأمين الحماية لانفسهم وسفينتهم ومتاجرهم ، وبذلك تضاءلت نسبة الخسائر في مثل هذه العقود التجارية ، لان الخسائر كانت توزع في حال حدوثها ، وفقا لاسهم المشتركين في السفينة (٢٦) .

وفي أواخر القرن الثالث عشر ومستهل القرن الرابع عشر حدث تطور في العقود التجارية ، فبعد أن كان عقد المشاركة صالحا او محددا برحلة تجارية واحدة ، ظهرت نماذج أخرى من العقود التي تستمر الشركة بين اطرافها لعدة سنوات أو لا تنتهي الشركة بمثل هذه العقود الا بموت أحد الشريكين المتعاقدين (٢٧) .

ويلاحظ أن السجلات المتعلقة بكافة العقود التجارية أو عقود الشركات التي استخدمتها المدن التجارية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، اشارت الى الفئات الاجتماعية التي استثمرت أموالها في مشاريع تجارية عبر البحر المتوسط ، بحيث اشتملت على التجار المحترفين والنبلاء ورجال الدين والصناع والحرفيين والارامل واصحاب الحوانيت (٢٨) .

وكانت طوائف التجار أولى التنظيمات التجارية التي أقامها تجار المدن الايطالية(٢٩) ، ورغم ان هذه الطوائف تمثل في حقيقتها غريزة التضامن للمحافظة على الذات الا انها كانت في الوقت نفسه جهدا بناء واعيا(٣٠) . وتعود أصول الطوائف التجارية الى حصول تجار المدن الايطالية على براءة من سادة هذه المدن او بعض الاباطرة انطوت على حقهم في تشكيل تنظيمات تجارية(٣١) . وبالرغم من اننا لا نستطيع ان نحدد التاريخ الدقيق لظهور

(26) Hodgett, op. cit., P. 64.
(27) Roover, ' The Commercial Revolution ' ; P. 35 .
(28) Hodgett, op. cit. ; P. 63 .
(29) Pounds, op. cit. , P. 287.
(٣٠) كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، الترجمة العربية ص ١٩٥ .
(31) Pounds, op. cit. , PP. 287 — 88 .

طوائف التجار في المدن الايطالية ، الا أن معظم المؤرخين قد اتفقوا على أن الطوائف التجارية المنظمة كانت موجودة في بعض المدن الايطالية التي كانت تابعة للدولة البيزنطية في العصور المبكرة ، مثل تلك الطوائف التي كانت تدفع ضرائب الى حكام المدينة ، مقابل حصولهم على حق احتكار تجارتها(٣٢) .

وحتى أواسط القرن الثاني عشر ، كانت طوائف التجار ، في المدن الايطالية ، لا تضم التجار فحسب وانما انضم اليها العديد من الحرفيين والصناع وارباب المهن ، بحيث اتسمت الطوائف التجارية فيها بسمة تجارية ومهنية في آن واحد(٣٣) ، ولكن سرعان ما حدث التخصص داخل الطوائف التجارية ، فنشأت طوائف أرباب الحرف وهي مجموعة طوائف او نقابات مهنية كانت تضم أفراد الحرف الواحدة لرعاية مصالح هذه الحرفة وأعضائها كطائفة الخبازين ، وطائفة تجار الحرير والفراء والصوف وتنوعت حتى وصلت الى الذروة في القرن الرابع عشر (٣٤) .

واستهدف التجار من خلال طوائفهم التجارية حماية انفسهم من اعتداءات الامراء ونهبهم من ناحية ورعاية مصالحهم التجارية من ناحية اخرى(٣٥) ، فضلا عن ان الطوائف التجارية فتحت للتجار فرصا تجارية في المدينة وخارجها(٣٦) .

الا أن ازدهار القومونات في كل من البندقية وجنوه وبيزا ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، قد أدى الى تقلص دور الطوائف التجارية ونفوذها في هذه المدن ، وذلك لان تجار هذه القومونات قد شعروا بأنهم ليسوا بحاجة الى اي تنظيمات خاصة للعناية بمصالحهم التجارية طالما أن الاهتمام الاول لحكومات قوموناتهم هو العناية بشؤونهم التجارية وحماية

(32) Luzzato, An Economic History of Italy, P. 82 .
(33) Ibid. , P. 82 .
(٣٤) انظر : كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ، الترجمة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٢٦ ، ايضا :
Pounds, op. cit., P. 288
(35) Hodgett, P. 58 .
(36) Pounds , op. cit. ; P. 288 .

مصالحهم واعمالهم التجارية في داخل مدنهم وخارجها(٣٧) .

ومن أبرز سمات التنظيمات التجارية في حياة المدن في ذلك الدور من تاريخ العصور الوسطى كان انعقاد الاسواق التجارية الموسمية في هذه المدن من جهة وتردد تجارها بصورة منتظمة على الاسواق التجارية الكبرى من جهة ثانية ، وهذا كله شكل بدوره أحد العوامل الهامة في ازدهار النشاط التجاري لهذه المدن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وكانت تعقد أسواق تجارية موسمية في المدن الايطالية ، واتفق موعد انعقادها مع وصول القوافل التجارية الايطالية من الشرق ، كما هو الحال في سوق عيد الميلاد في مدينة البندقية ، الذي كان يعقد مع وصول الاسطول التجاري للبندقية من الاسكندرية وبيروت في شهر اكتوبر ، وعلى الرغم من أن معظم الذين كانوا يشهدون هذه الاسواق هم تجار المدن المجاورة للبندقية ، الا أنها اعطت دفعا قويا لتجار المدن الايطالية ونشاطهم وحققت لها سمعة عالمية(٣٨) .

ومنذ أواخر القرن الحادي عشر ، أخذ التجار الايطاليون يترددون على الاسواق التجارية الكبرى التي كانت تعقد في الغرب الاوربي ، مثل سوق سانت مارتين St. Martin في مقاطعة بروفانس وسانت دينس St. Denis قرب باريس(٣٩) . والدليل على ذلك أن البابا جريجوري السابع كتب الى العديد من الاساقفة الفرنسيين ، عام ١٠٧٤ م ، يهاجم الملك الفرنسي الذي سمح لتجار ايطاليين في زيارة اسواق فرنسا وسلبها(٤٠) .

الا أن أشهر الاسواق التجارية الكبرى التي تردد عليها تجار المدن الايطالية بشكل منظم ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، كانت إسواق

(37) Lane, Amaritime Republic , P. 104 ; Brown, Studies PP. 345 — 46.
(38) Lane, ' Fleets and Fairs ' PP. 134 — 35 .
(39) Bautrie, The Economic development, PP. 108 — 109 .
(40) Ibid., P. 109 .

شامبيني Champagne ويقع اقليم شامبني بين فرنسا والفلاندر ، مما جعله الملتقى الطبيعي لتجار الجنوب بتجار الشمال ، والمركز المفضل لتبادل التجارة بين عدد كبير من تجار اوربا ج(٤١) . حيث جذب اليه تجارا من الفلاندر والمانيا وفرنسا وايطاليا وصقلية وإسبانيا(٤٢) .

وكانت أسواق شامبني في معظمها أسواق لبيع الجملة ، وتعقد على مدار السنة كلها(٤٣) . وحقق أمراء شامبيني الامن والحماية للتجار الذين يشهدون هذه الاسواق ، وفرضوا عقوبات صارمة على كل تاجر يخالف القوانين والانظمة المرعية في الاسواق(٤٤) ، كما اقاموا شبكة متطورة من الطرق والمواصلات واشادوا العديد من الابنية التجارية في الاسواق(٤٥) كما أقاموا أيضا المحاكم في الاسواق ، بحيث كان يحق لاي تاجر ، مهما تكن جنسيته ، ان يتجه اليها للدفاع عن حقوقه(٤٦) .

واجتاز التجار الايطاليون الممرات الالبية ، وخاصة ممر القديس برنارد St. Bernard الوصول الى أسواق شامبني(٤٧) ، وكانوا يحملون معظم متاجر بلدان البحر المتوسط وسلعها ، مثل المنسوجات الصوفية من ايطاليا والشب من مصر(٤٨) ، والذهب والفضة من شمال أفريقية والسجاد من فارس ، فضلا عن متاجر الشرق الاقصى كالحرير الصيني ، والتوابل الهندية(٤٩) ، في حين اشترى تجار المدن الايطالية الكبرى البندقية وجنوه وبيزا ، من أسواق شامبيني الاقمشة والمنسوجات

(٤١) انظر : عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١١٨ .
(42) Roover, op. cit., P. 34 .
(43) Gies, op. cit., PP. 211 — 13 .
(44) Pirenne, Economic and Social, PP. 99 — 100 .
(45) Bautire, op. cit., , P. 110 .
(46) Gies, op. cit., P. 213.
(47) Baker, med. trade routes, P. 11 , ; Hodgett , op. cit. , PP. 106 — 107 .
(٤٨) كان الشب يستخرج في مصر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أي قبل أن تبدأ جنوه باستثمار مناجم الشب في آسيا الصغرى . انظر :
Bautire, op. cit. , P. 112 .
(49) Atiya, Crusade, Commerce, P. 178 .

الفرنسية والفلمنكيــة Flemish ، والتي اصبحت على ايدي التجــار الايطاليين الصادرات الرئيسية للغرب الاوربي الى بلدان شـرق البحـر المتوسط (٥٠) .

والذي يهمنا ان نؤكده ان أسواق شامبني كانت عاملا اساسيا مــن عوامل ازدهار النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وخاصة اذا عرفنا ان هذه الاسواق كانت المصدر الرئيسي للاقمشة المختلفة التي انتقلت الى أيدي التجار الايطاليين من شمال أوربا ، والتي اخذت طريقها الى أسواق بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مثل بيزنطة ومصر والشام(٥١) .

(50) Roover, ' The commercial Revolution ' , P. 34 .

(51) Bautire , op. cit. , P. 112 .

الفصل الثالث

أنواع النقود والتنظيمات المصرفية وأثرها في النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

ولعل من أهم عوامل ازدهار النشاط التجاري للمـدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط هو اصدار بعض المدن التجارية الايطالية عملات ذهبية مستقلة خاصة بها مكنتها من تحرير تجارتها من النظم النقدية السائدة وقتذاك في عالم البحر المتوسط من جهة ، وتطوير تنظيماتها المالية والمصرفية من جهة أخرى .

فمن المعروف أن العملة الذهبية للامبراطورية البيزنطية ، وهـي النوميسـما Nomisma (١) ، قـد تمتعت بالتفـوق المطلق على جميـع العملات النقدية فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين وفرضت نفسها على شعوب عالم البحر المتوسط(٢) ، وتعود هذه الشهرة النوميسما الى وزنها الذهبي ونقائه من جهة (٣) والى ثبات قيمتها واستقرارها من جهة ثانية (٤) ، والى قوة الاقتصاد البيزنطي وازدهاره من جهة ثالثة(٥).

(١) ان النوميسما البيزنطية هي الوارثة الشرعية للصولدي الروماني Solidius وقد اطلق الاغريق على الصولدي في العصور الوسطى اسم النوميسما كما سميت بالبيزانت Bezant وفي القرن الثاني عشر اتخذت اسم الهيبروبيرون Hyperperon عن ذلـك انظـر Cipolla, Money, Prices and civilization , P. 16, N. 5.

(2) Cipolla, op. cit., P. 16 ; Rabie , The Financial System, P. 190

(٣) توصل عدد من الباحثين الى أن محتويات النوميسما البيزنطية من الذهب كانت ٤ره٥ جراما أي أكثر وزنا من أية عملة ذهبية معاصرة انظر :

Lopez , The Dollar ' P. 211 .

(4) Ibid. , P. 220 .

(5) Atiya, Crusade , Commerce , PP. 163 — 64 .

وفي العقد الاخير من القرن السابع الميلادي ظهر الدينار الاسلامي الذهبي ليشكل نقطة تحول حقيقية في التاريخ النقدي لشعوب البحر المتوسط(٦) ، فعلى الرغم من أن الدينار لم يتمتع بثبات النوميسما وسمعتها(٧) ، الا انه نجح في منافستها في المعاملات التجارية والمالية لا في الحوض الشرقي للبحر المتوسط فحسب وانما في ايطاليا وأوربا الغربية أيضا(٨) .

وفي الوقت الذي كانت السيادة فيه للعملات الذهبية البيزنطية والاسلامية في التجارة الدولية ، كانت شبه الجزيرة الايطالية ، ومعها أوربا الغربية ، غارقة في نظام نقدي يعتمد على الفضة كأداة للتبادل التجاري والمعاملات المالية(٩) . ــ وذلك لان النظم الاقطاعية ، التي فرضت نفسها على الغرب الاوربي ــ كما اسلفنا ــ اعتمدت على المقايضة، والضرائب كانت تدفع نوعية (عينية) وليست نقدية . ولهذا لم يكن أمام تجار المدن الايطالية ــ في مرحلة الاحياء التجاري ــ سوى استخدام العملات الذهبية

---

(٦) يرى سيبولا ان دوافع الخليفة عبد الملك بن مروان في سك الدينار الذهبي الاسلامي هي رغبته في التخلص من نفوذ النوميسما البيزنطية والدرهم الفضي الفارسي ، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي والمالي للعالم الاسلامي . انظر :

Cipolla, op. cit., P. 19 .

« الا ان العودة الى المصادر العربية تؤكد أن عبد الملك قد سك العملة العربية الاسلامية لغرض سياسي ، وهو العمل على الغاء الصلح الذي كان بينه وبين البيزنطيين والذي كان يؤدي عبد الملك بمقتضاه أتاوة سنوية . وهذا ما حدث فعلا ، حيث امتنعت بيزنطة عن أخذ عملة عليها آيات قرآنية ، واعتبرتها اهانة موجهة للدولة البيزنطية ، ثم توترت العلاقة بين العرب والروم وتخلص عبد الملك من اداء هذه الاتاوة نتيجة لسكه هذه العملة . وفضلا عن ذلك كله فقد أراد عبد الملك بسكه هذه العملة العربية الاسلامية استكمال تعريب دولته » .

(٧) توصل سيبولا في دراسته الى ان محتويات الدينار الاسلامي من الذهب كانت ٤ر٢٥ جراما . انظر : Ibid., P. 22 .

(٨) انظر : مارك بلوك : « مشكلة الذهب في العصر الوسيط » الترجمة العربية ، ص ٢٠ .

(٩) توقف سك الذهب في الغرب الاوربي في مستهل القرن التاسع . انظر مارك بلوك : مشكلة الذهب ، ص ١٢ ، ١٦ .

البيزنطية والاسلامية(١٠) ، في تجارتهم مع بلدان شرق البحر المتوسط(١١) .

وكان أن أدركت البندقية ضرورة ايجاد عملة فضية أكثر أهمية من العملات الفضية التي ورثتها ايطاليا من الامبراطورية الكارولنجية(١٢) وذلك لمواجهة متطلبات نشاطها التجاري والمالي ، وكان الدوج آنريكو داندولو Enrico Dandolo أول من سك عملة فضية للبندقية ، وذلك عام ١٢٠٢ م ، لتمويل الحملة الصليبية الرابعة ، وأطلق عليها اسم Groats أو Grosso (١٣) ، وكان وزنها ١٨ر٢ جراما ، ونسبة الفضة فيها ٥ر٩٦ ٪(١٤) ، وعلى الرغم من الجدل القائم بين الباحثين ، فيما اذا اقتصر انتشار العملة الفضية للبندقية على شبه الجزيرة الايطالية ، كما ذهب الى ذلك باوندس Pounds (١٥) أو فيما اذا انتشرت في منطقة البحر المتوسط ، جنبا الى جنب النوميسما البيزنطية والدينار الاسلامي ، كما ذهب الى ذلك سيبولا(١٦) ، فان الذي يهمنا أن نؤكده أن العملة الفضية التي أصدرتها البندقية قد مهدت الطريق للتطورات الاقتصادية التي حدثت بعد ذلك في البحر المتوسط .

---

(١٠) سك المرابطون في سيجلماسه دينارا ذهبيا عام ١٠٥٨ (٤٥٠ هـ / عرف باسم الدينار المرابطي ، وكانت نسبة الذهب فيه ٢ر٩٢٪ واعتمد على الذهب القادم من السودان ؛ ولقد نال هذا الدينار أحتراما في الاسواق الدولية بصفة عامة وانتشر في المدن الايطالية التي كانت لها نشاطات تجارية واسعة في شمال افريقية في القرن الثاني عشر انظر تفصيل ذلك :

Messier, R. A. , ' The Almoravids ' , JESHO , XVII (1974) PP. 32 — 34 .

(11) Lopez, ' The Dollar' , P. 219 ; Idem, The Commercial Revolution, PP. 70 — 71 ; Lane , operation ' P. 188 .

(١٢) كان الامبراطور شارلمان قد سك دنانير فضية Silver Denarius وزنها ٧ر١ جراما ونسبة الفضة ٩٥٪ . انظر : Pounds , op. cit., PP. 114 — 15 .

(13) Watson A. M. , ' Back to Gold — and silver ' P. 17 , Bautire , op. cit., 16 ; Gies, op. cit., P. 100 .

(14) Lane , A maritime. , PP. 148 — 49 .

(15) Pounds, op. cit., P. 118 .

(16) Cipolla , op. cit. , P. 20 .

وكانت أول محاولة جرت في ايطاليا ، في العصور الوسطى ، لسك عملة ذهبية ، كانت تلك التي قام بها الملك النورماني روجر الثاني ، ملك صقلية وجنوب ايطاليا ، عام ١١٤٠ م ، والتي اشتهرت بالتارين Tarin (١٧) .

ويتساءل الباحث عن السبب في أن أول محاولة لسك العملة الذهبية في أوربا العصور الوسطى قد بدأت في صقلية ؟ ويبدو أن تفسير ذلك هو أنه عندما احتل النورمان صقلية وطردوا العرب منها – في أواخر القرن الحادي عشر – وجدوا امامهم تراثا نقديا عربيا اسلاميا في الجزيرة ، وبالتالي لا بد أنهم استفادوا من التجربة العربية الاسلامية التي جرت في صقلية في هذا الميدان .

وبعد قرابة قرن جرت المحاولة الثانية في ايطاليا لسك عملة ذهبية ، وكانت تلك التي أصدرها الامبراطور فردريك الثاني في مسينا وبرانديزي ، عام ١٢٢٨ م ، والتي اشتهرت باسم الاغوستاليس Augustalis (١٨) .

ان دخول المدن الايطالية ميدان التجارة العالمية ، وخاصة في عالم الشرق – حيث كانت توجد أكثر من عملة ذهبية معروفة (بيزنطية واسلامية) استلزم من المدن الايطالية ان تكون لها عملاتها الذهبية وبالتالي نقدا ذا قيمة عالية ، وقاعدة نقدية ذهبية لتمويل مشاريعها التجارية ، ولهذا بدأت بعض المدن الايطالية ، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، باصدار عملات ذهبية اعتمادا على الذهب الذي كان يتدفق عليها من خلال تجارتها الخارجية النشطة . فمدينة جنوه ، التي اعتادت استخدام النوميسما البيزنطية والدينار الاسلامي في تجارتها في عالم البحر المتوسط ، كانت أول مدينة ايطالية سكت نقدا ذهبيا مستقلا ، وذلك عام ١٢٥٢ م ، عرف باسم Januino أو Genovino ، وكان وزنها ٣٫٥ جراما من الذهب الخالص تقريبا(١٩) . وفي العام نفسه أصدرت فلورنسا عملة ذهبية

(١) مارك بلوك : « مشكلة الذهب » ، ص ٥ ، ايضا : Atiya Crusade , Commerce. , P. 188 .

(18) Cipolla, op. cit. , P. 24 ; Bautire, op. cit. , P. 163 .

(19) Hodgett, op. cit., P. 104 ; cipolla, op. cit., PP: 20 — 21 ; ; pounds, op. cit. P. 118 . ...

عرفت باسم الفلورين Florino d'ore ، وكان وزنها ٣٫٥٣ جراما من الذهب الخالص تقريبا(٢٠) . ولم يمض وقت طويل حتى أصدرت البندقية عملة ذهبية عام ١٢٨٤(٢١) ، عرفت باسم الدوكات Ducat (٢٢) ، وكان وزنه ما بين ٣٫٥٥ جراما و ٣٫٥٦ جراما ونسبة الذهب فيه ٩٩٫٧٪ (٢٣) .

ويجدر بنا ان نشير الى أهم المصادر التي استمدت منها هذه المدن الذهب الذي مكنها من اصدار عملاتها الذهبية ، فمن المعروف أن ايطاليا تفتقر الى مناجم الذهب ، وأن المدن الايطالية التجارية قد حصلت على الذهب من خلال تجارتها الخارجية النشطة في شمال افريقية(٢٤) وبيزنطة(٢٥) ومصر والشام(٢٦) ، وكانت المدن الايطالية تشتري السلع والمتاجر من الغرب الاوربي بالفضة وتتسلم أثمانها في أسواق البلدان التي تتاجر معها بالذهب ، وفضلا عن ذلك كله فقد أصبحت مناجم ألمانيا – منذ أوائل القرن الرابع عشر – مصدرا هاما للذهب بالنسبة للمدن الايطالية ، وبصفة خاصة البندقية(٢٧) .

وعلى أية حال ان ظهور العملات الذهبية الايطالية أحدث تطورا كبيرا في تجارة البحر المتوسط ، فاذا كانت للنوميسما البيزنطية والدينار الاسلامي السيادة في عالم البحر المتوسط حتى أواسط القرن الثالث عشر تقريبا ، فان الفلورين الفلورنسي والدوكات البندقية ، قد انطلقا من ايطاليا ، وتحققت لهما السيادة في تجارة عالم البحر المتوسط من اواسط

(20) Lopez, ' The Dollar ' ; P. 213 ; Bautire, op. cit. , PP. 163 — 64 ; Cipolla, op. cit. PP. 20 — 21 .

(21) Rabie, op. cit. ; P. 190 ; Watson . op. cit. ; PP. 15 — 17 .

(٢٢) أشار القلقشندي الى الدوكات البندقية بقوله « ودنانيرهم أفضل دنانير الفرنجة ويقال له دوكات نسبة الى الدوك الذي هو ملكهم » . انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٤٤١ . ج ٥ ص ٤٠٤ – ٤٠٥

(23) Lane, Amaritime . PP. 148 — 49 ; Rabie, op. cit. , P. 191 .

(24) Watson, op. cit., P. 14.

(25) Lopez, ' The Dollar ' , P. 229 .

(26) Rabie, op. cit. , P. 186 ; watson, op. cit. ; PP. 14 ; 16 .

(٢٧) مارك بلوك « مشكلة الذهب » ، ص ٣٦ .

القرن الثالث عشر حتى نهاية العصور الوسطى(٢٨) .

ان احتفاظ الفلورين والدوكات بقيمتهما ، من حيث نقاء ذهبهما وثبات وزنهما ، كان عاملا أساسيا أيضا في انتصارهما ، وذلك لانه مكنهما من أن يصبحا من وسائل التبادل التجاري والمالي ، وأن يقبلهما التجار في جميع انحاء البلاد ، وأن يستمرا ضمانا ماليا حتى أواخر العصور الوسطى(٢٩) . حقيقة ان نجم الفلورين الفلورنسي أخذ بالافول منذ أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ، وذلك نتيجة اصدار فلورنسا لنماذج من الفلورين أقل في وزنها ومحتواها الذهبي من عملتها الاصلية الاولى، فضلا عن ان عددا من دور السك خارج فلورنسا أخذت في تقليد الفلورين أقل في وزنها ونقائها من الفلورين الاصلي(٣٠) . ولا ريب في أن هذا التدهور الذي ألم بالفلورين ترك الدوكات البندقي تشق طريقها كعملة نقدية معترف بها في التجارة العالمية وقتذاك حتى أواخر العصور الوسطى، فالتنظيمات المالية والمصرفية لجمهورية البندقية لعبت دورا هاما ــ الى جانب قوة الاقتصاد البندقي ــ في الحفاظ على القيمة الذهبية للدوكات ، سواء في وزنها أو نقائها ، فالمرسوم المتعلق بسك الدوكات ، والمؤرخ في ٣١ اكتوبر عام ١٢٨٤م ، نص على أن الدوكات يجب أن تكون أكثر نقاءا في ذهبها من الفلورين(٣١) ، كما أن دور البندقية في نظام المعاملات التجارية ونشاطاتها المصرفية ساعدت على استقرار الدوكات البندقي وثباته (٣٢) .

وتجدر الاشارة الى أن تدهور النوميسما البيزنطية كان عاملا هاما في تفوق العملات الايطالية وانتشارها في التجارة الدولية ، فمنذ القرن الحادي عشر تم انقاص المحتوى الذهبي للنوميسما(٣٣) نتيجة تدهور الاقتصاد البيزنطي وانتقال مركز التجارة في عالم البحر المتوسط من القسطنطينية الى المدن الايطالية(٣٤) . الا أن الكارثة الحقيقية التي ألمت

---

(28) Cipolla , op. cit., P. 21 .

(29) Atiya, crusade, commerce, P. 188 .

(30) Cipolla, op. cit., P. 23 .

(31) Hodgson , op. cit ; PP. 181 — 82 .

(32) Rabie, op. cit. ; P. 190 .

(33) Cipolla op. , cit. , P. 23 ; Lopez, The Dollar P. 212 .

(34) Lopez, ' The Dollar ' P. 239 .

بالنوميسما جاءت مع احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤م (٣٥) ، فبالرغم من أن اباطرة نيقية البيزنطيين قد استمروا في اصدار النوميسما البيزنطية ، والتي احتوت على ثلثي وزنها ذهبا ، الا أن ذلك لم يكن كافيا ــ كما يعتقد لوبز ــ لتحافظ النوميسما على مركزها النقدي ، واستمر تدهور النوميسما حتى بعد عودة الاغريق الى القسطنطينية عام ١٢٦١م ، واخذت العملات الذهبية للمدن الايطالية تحل محلها في التجارة الدولية(٣٦) .

ولا شك أن اختفاء الدينار الذهبي الاسلامي ، واعتماد الفضة كقاعدة جديدة للنقد بدلا من الذهب في مصر والشام ، منذ بداية العصر الايوبي(٣٧) ، وحتى أواخر القرن الثالث عشر ، وتحول الذهب الى سلعة من السلع(٣٨) ، كان ذلك كله عاملا هاما في انتصار العملات الذهبية ، الفلورين والدوكات في تجارة البحر المتوسط .

ولقد انتشر الدوكات البندقي في الدولة البيزنطية انتشارا واسعا ، حتى أن الاصلاحات النقدية التي جرت في الامبراطورية ، خلال عهد الامبراطور اندرنيق الثاني (١٢٨٢ ــ ١٣٢٨م) وخلفائه ، كانت تحت تأثير الدوكات البندقي(٣٩) ، كما أن الادارة البيزنطية وافقت ، خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، أن يتم دفع الاجور في الدولة بالبيزانت البيزنطي وفقا لقيمته بالنسبة الى الدوكات(٤٠) .

---

(٣٥) انظر : مارك بلوك : « مشكلة الذهب » ، ٣٧ .

(36) Lopez , ' The Dollar ' PP. 213 — 14 , Ostrogorsky , Hist of the Byzantine State, P. 430 .

(٣٧) في أواخر عهد الدولة الفاطمية ، وبسبب ما طرا على هذه الدولة ما ضعف واضطراب في أحوالها الداخلية ، وخاصة سوء احوالها الاقتصادية منذ أيام الشدة المستنصرية (المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧ ــ ٤٨٧ هـ) ، أدى ذلك كله الى ندرة الذهب والعملة الذهبية ، وكان ذلك مما حمل صلاح الدين الايوبي ، فيما بعد ، على اصدار قرار يتضمن جعل الفضة قاعدة للتعامل ، كما ان نفقات الحروب الصليبية اضطرته سنة ٥٨٣ هـ الى ضرب دراهم من خليط معدني من الفضة والنحاس .

(٣٨) لتفصيل ذلك انظر :

Rabie, the financial system PP. 162 — 63 ; 169 — 73 , 175 — 76 ; 184 — 94 .

(39) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire , II , P. 686 .

(40) Lopez, ' The Dollar ' P. 214 .

كما لقيت العملات الذهبية الايطالية رواجا كبـيرا في مصر والشام ، فقد بدأ غزو الدوكات البندقي لمصر منذ عام ١٣٠٢م ، وذلك عندما قبلته السلطات المصرية عند دفع الضرائب المقررة علـى البضائـع في مينـاء الاسكندرية ، وسرعان ما انتشر الدوكات انتشارا واسعا في مصر ، خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، وحققت انتصارا كبيرا على الدينـار الذهبي المصري وقتذاك بسبب نقاوة هذه الدوكات من جهة وحجم تجارة مصر مع البندقية من جهة أخرى(٤١) ، ولم يأت القرن الرابع عشر على نهايته حتى امر السلطان الناصر فرج بن برقوق بسك دنانير ذهبية « على زنـة الدنانير الافرنتية(٤٢) » ، اي على زنة الدوكات والفلورين(٤١) .

وتعتبر التنظيمات المصرفية في المدن الايطالية عاملا هاما من عوامل ازدهار النشاط التجاري لهذه المدن في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فمن المؤكـد أن الاعمـال المصرفيـة Banking في العصور الوسطى قد تطورت اصلا من نشاطات الصيارفة الذين كانوا يقومون باستبدال العمـلات المتداولـة في المـدن الايطاليـة التجاريـة(٤٤) .

وكانت المصارف التي تأسست في المدن الايطالية التجارية مصـارف تجارية ، اقتصرت مهمتها بشكل رئيسي – منذ نهاية القرن الثاني عشر على قبول الودائع النقدية Deposits من جمهور التجار ، الذين كانوا يخشون على أموالهم من الضياع والسرقة خلال رحلاتهم التجارية ، وتسلم هـؤلاء التجار مقابل ذلك شهادات بودائعهم مع حقهم في سحبها في أي وقت(٤٥) . وفي مستهل القرن الثالث عشر اتسعت النشاطات المصرفيـة في المـدن الايطالية ، فاقامت المصارف مندوبين او فروع لها في المراكـز والاسـواق التجارية الكبرى ، واصبح بامكان التجار نقل مبالغ من أموالهم من مـكان الى آخر عن طريق المندوبين(٤٦) ، وهذا كله اعطـى دفعـا قويـا للنشاط

(41) Rabie, op. cit. ; PP. 190 — 91 , 194 .

(٤٢) القلقشندي ، صبح الاعشي ، ج ٣ ، ٤٣٧ .

(43) Rabie, op. cit. ; P. 194 .

(44) Pounds, op. cit. ; P. 409 .

(45) Bautire, op. cit., P. 146.

(46) Hodgett, op. cit., P. 69 .

التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

الا ان ابرز النشاطات المالية للمصارف الايطالية ، في القـرن الثالث عشر ، هو تحويل الودائع التي بحوزتها من اموال خاملة الى أموال نشطة، فعندما تبين لها أن جملة الودائع لديها تزيد دائما عن جملة الاموال التـي تسحب منها ، قامت باعطاء القروض الى طرف ثالث(٤٧) مقابل نسبة معينة من الفائدة تحسم من القرض(٤٨)، وبذلك تحول الصيارفة الى مقرضين(٤٩).

ويعتقد باوندس Pounds ان جذور « الثورة التجارية » ترجع الى تقديم القروض أو التسليف Credit ، وبالرغم من معارضة الكنيسة لكل اشكال « الفائدة » الناتجة عن القروض ، باعتبارها « عدوانا روحيا » فقد انتشر « الربا » في أوربا الغربية بصفة عامة والمدن الايطالية التجارية بصفة خاصة(٥٠) . وبدأ التجار الايطاليون في اقتراض أموال من الأثرياء لتمويل مشاريعهم التجارية وذلك مقابل فائدة بلغ حدها الاقصى ٢٠٪ (٥١) .

الا ان ابرز القروض التجارية ، التي لعبت دورا هاما في ازدهـار النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحـر المتوسط ، كانت قروض البحر The Sea Loans ولقد قصد من قروض البحر وضع مبلغ من المال بين يدي احد التجار ليقوم باستثماره بعمل تجاري فيمـا « وراء البحار(٥٢) » ، مثل اقتراض تاجر جنوي مبلغا من المال ليشتري به سلعة او متاجر من أسواق جنوه ليبيعها في أسواق القسطنطينية أو مصر او الشام ، أو يستخدم هذا المبلغ في شراء متاجر من الشرق مباشرة(٥٣) . وقد حصل صاحب المبلغ من المقترض على فائدة تراوحت ما بين ٢٠٪ الى

(47) Bautire, op. cit., P. 147 .

(48) Pounds , op. cit., 409 .

(49) Gies, op. cit., P. 104 ; Thompson, op. cit., 1, P: 431

(50) Pounds, op. cit., PP. 405 — 406 ; Hodgett, op. cit., P. 64 .

(51) Lane, A maritime. , P. 146 .

(52) Hoover, ' The Sea Loan in Genoa ' , PP. 498, 511 .

(53) Ibid. , P. 502 ; Byrne , Genoese shipping , PP. 14 — 15 .

(54) Hoover, ' The Sealoan ' ; P. 505 .

٥٠٪ (٥٤) ، وبذلك شارك أصحاب الاموال ، الذين ظلوا في بيوتهم ، بأرباح التجارة الخارجية دون بذل أية جهود(٥٥) .

ويرتبط بالتطورات التجارية والمصرفية ، التي ادت الى ازدهار النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، استخدام الحوالة The bill of exchange ، أو كما يسميها الايطاليون Cambiale (٥٦) ، وهي تعني سندا أو صكاً ينطوي على امر Order من شخص أو مصرف الى شخص آخر أو مصرف في مدينة اخرى بأن يدفع مبلغا معينا من النقود ، بمجرد الاطلاع أو في تاريخ معين ، لحامل هذا السند أو الحوالة(٥٧) . وقد استخدمت الحوالات لتجنب مخاطر نقل المعادن الثمينة كالذهب والفضة(٥٨) ، فاذا اراد تاجر من مدينة البندقية أو جنوه ان ينتقل الى أسواق القسطنطينية لابرام عملية تجارية ، فانه لا يحمل معه كل ما يحتاجه من نقود معدنية خشية ضياعها أو سرقتها في الطريق ، بل يتوجه الى احد الصيارفة ويقدم له مبلغا من نقود البندقية ، فيسلمه الصيرفي حوالة يأمر فيها مراسله أو مندوبه في القسطنطينية بأن يدفع للتاجر البندقي أو الجنوي مبلغا مقابلا من النقود البيزنطية ، وكان يمكن لحامل الحوالة نقلها أو بيعها نقدا الى شخص آخر(٥٩) .

ولعل ابرز مثال على انتشار الحوالات في المدن الايطالية التجارية ، ما رواه الرحالة طافور Tafur ، الذي حمل « سكوكا » نقدية من وطنه اسبانيا الى تجار في جنوه ، وسكوكا اخرى الى البندقية لتدفع له من قبل صيرفي بندقي اسمه مورسيني Morosini ، واخرى من البندقية الى تجار في الفلاندرز Flanders (٦٠)

---

(55) Byrne, Genoese shipping, P. 15 .
(56) Pounds, op. cit. , P. 415 .
(57) Pirenne, Eonomic and social, P. 102
(٥٨) عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام ، ص ١٤٦ .
(59) Lane, A maritime, PP. 141, 146 — 47 .
(60) Tafur, op. cit., PP. 27, 32 — 33 , 173 .

الفَصل الرّابع

تطوّر الملاحة وأثره في النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في القرنين الثالث عشر والرّابع عشر الميلاديين

ويعتبر **تطور الملاحة** عاملا هاما من عوامل ازدهار النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فلقد ادركت الجمهوريات الايطالية البندقية وجنوه وبيزا ، ان نشاطها التجاري ومستقبله في بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، يتوقف على بناء اساطيلها التجارية وتطويرها من جهة ، وعلى تنظيم قوافلها التجارية البحرية وحمايتها من جهة أخرى ، ولهذا فقد اهتمت اهتماما بالغا بصناعة السفن التجارية واعداد الملاحين وتنظيم الرحلات التجارية البحرية ، وذلك للوفاء بمتطلبات التجارة في شرق البحر المتوسط .

وعلى الرغم من أن المدن الايطالية التجارية قد استخدمت نماذج متعددة من السفن في تجارتها المحلية والاقليمية ، الا أن الرحلات الطويلة عبر البحر المتوسط والظروف التي أحاطت بهذه الرحلات ادت كما يعتقد بيرن ، الى وحدة في نماذج السفن التي استخدمتها هذه المدن في نقل متاجرها(١) .

وكان ان استخدمت البندقية ، ما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر ، نموذجين **اساسيين من السفن التجارية** في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، اولهما : السفن المستديرة Round Ships (٢) ، وقد بنيت لتعمر اطول فترة ممكنة ، ولتستخدم في نقل الشحنات الثقيلة ، وهي

---

(1) Byrne, Genoese Shipping , P. 5 .
(٢) ان هذه السفن كانت معروفة عند العرب المسلمين في حوض البحر الابيض المتوسط ، واسمها الجفنة ، وجمعها أجفان ، وهي أشبه بالقصعة .

تعتمد بشكل كلي على الشرع[٣] ، وثانيهما : السفن الطويلة Galley [٤] ، وقد بنيت لاغراض حربية[٥] ، وكانت مجهزة بالمجاذيف[٦] وهي اقل ارتفاعا واقل اتساعا من النموذج الاول[٧] . وبالرغم من هذه الفروق بين النموذجين ، فان بعض السفن المستديرة قد بني ليستخدم في القتال ، كما أن بعض السفن الطويلة قد صممت لنقل المتاجرالخفيفة من حيث وزنها والثمينة من حيث قيمتها ، مثل التوابل من الشرق الى البندقية[٨] .

اما بالنسبة الى السفن التي استخدمتها جنوه في رحلاتها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فانها كانت تنقسم الى ثلاثة نماذج أولها : السفن الشراعية ، والتي تسمى Navis أو : Nefau Nave [٩] ، وثانيها ، السفن الشراعية المزودة بمجذاف أو مجذافين ، وتسمى باللاتينية Sagitta [١٠] ، وثالثها : نوع من السفن التجارية ما بين النموذجين السابقين ، وتسمى باللاتينية Tartana [١١] ، وهو أثقل من

---

(3) Lane ; ' Venetian shipping ' , PP. 219 — 20 ; Idem, ' Merchant Galley ' , P. 180 .

(٤) وتسمى بالعربية الشيني والجمع شواني ، وهي أقدم أنواع السفن وكانت أهم القطع التي تألف منها الاسطول الاسلامي في العصور الوسطى ، لانها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة . وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد / ١٥٠ / رجلا ويجذف بمائة مجذاف . انظر : سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، ص ٣٥٢ .

(5) William of Tyre, Hist. of deeds, 1 PP. 548 — 49 .

(6) Fulcher of chartres, Ahist. of the expedition . P. 238 .

(7) Lane , ' Venetian shipping ' , P. 200 .

(8) Ibid.

(٩) وتسمى بالعربية البطسة والجمع بطس ، وهو ضرب من مراكب البحر الكبيرة ، ويصل عدد الشرع في البطسة الواحدة الى أربعين شراعا . انظر : سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية ، ص ٣٣١ .

(10) Byrne, Genoese shipping , PP. 5 — 6 .

(١١) وتسمى بالعربية الطراد ، والجمع الطرايد ، وهي من صنوف السفن التي تجري في بحر الروم ، مفتوحة المواخير بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب . انظر : سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية ، ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

النموذج الاول وكان مزودا بالمجاذيف والشرع ، وقد استخدم الجنوية هذا النموذج لنقل الخيول والمؤن للصليبيين ، ولكن عند نهاية القرن الثالث عشر ، اخذ الجنوية في أستخدام هذه السفن لنقل متاجرهم من شرق البحر المتوسط[١٢] .

ولقد حرص البنادقة والجنوية على ضمان مزيد من الراحة للتجار والمسافرين على سفنهم ، وتوفير أماكن اكثر اتساعا للمتاجر والسلع ، فطوروا سفنهم التجارية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بزيادة طول السفن وعرضها ، وزيادة عدد شرعها وسطوحها[١٣] .

وقد تباينت آراء المؤرخين فيما يتعلق بحمولة السفن التجارية التي استخدمتها المدن الايطالية التجارية ، في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وفي مجموعها اتفقت أن حمولة السفينة تراوحت بين ٣٠٠ — ٦٠٠ طنا[١٤] .

وعلى اية حال فقد اتخذت حكومات المدن الايطالية تدابير شديدة لمراقبة حمولة السفن تجنبا للاخطار الناتجة عن الحمولة الزائدة ، وبصفة خاصة بالنسبة الى اساطيلها التجارية التي كانت تتجه الى الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فقد كان من اختصاصات الحكومة البندقية تحديد كمية الشحن اللازمة لكل سفينة وبالنسبة لكل سلعة ومراقبة السفن وتفتيشها قبل اقلاعها ، وكان القناصلة أو مندوبوهم يذهبون الى الميناء للتأكد من عدم وجود حمولة زائدة[١٥] ، ويفرضون غرامات مالية على

---

(12) Byrne, Genoese shipping, PP. 5 — 6 .

(١٣) انظر تفصيل ذلك في :

Byrne, Genoese shipping, PP. 6 — 9 ; Boase , op. cit. , PP. 37 — 38 .

(14) Ludolphvon suchem op. cit. , P. 22 ; Byrne, Genoese shipping , 3 . 11. Menahem , The Journal, P. 200 .

(15) Lane , ' A Maritime law ' , P. 238 .

ربابنة السفن الذين لا يتقيدون بالاوزان المحددة ، وذلك حرصا من حكومة البندقية ، على الا تشغل الحمولة الزائدة الاماكن المخصصة للمسافرين والملاحين من جهة وتلك المخصصة للدفاع عن السفينة في حالة تعرضها للهجوم من جهة ثانية والى الا تؤدي الحمولة الزائدة الى عطب أو اضرار في السفينة ذاتها من جهة ثالثة(١٦) .

ولقد أعارت الجمهوريات الايطالية اهتماما كبيرا باعداد الملاحين لسفنها التجارية التي تبحر الى الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وذلك بقصد تحقيق تماثل في نظم الملاحين وسلوكهم ، ولهذا فقد الزمت كل ربان سفينة تجارية أن يصطحب معه عددا من النبلاء الشباب لتدريبهم على الملاحة(١٧) ، كما لقي المستوى الغذائي للملاحين والاجور التى كانت تدفع لهم ، أثناء التدريب وبعده ، رعاية كبيرة من حكومات المدن الايطالية بصفة عامة والبندقية وجنوه بصفة خاصة(١٨) .

ولقد تولت حكومات المدن الايطالية مسؤولية تنظيم قوافلها التجارية ومواعيد اقلاعها الى بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فالبندقية الزمت سفنها التجارية بالسفر على شكل قوافل الى شرق البحر المتوسط ، كما انها لم تسمح بنقل التوابل من الشرق الى البندقية الا بواسطة القوافل التجارية ، كما الزمت جنوه سفنها التجارية بالسفر على شكل قوافل ، حتى ولو كان ذلك في سفينتين(١٩) . وكانت هذه القوافل ترافق عادة بسفن حربية لحراستها والدفاع عنها ضد القراصنة(٢٠) .

أما بالنسبة الى مواعيد اقلاع القوافل التجارية الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط فقد ارتبطت بالظروف المناخية وحركة الرياح كما

(16) Ibid., PP. 240 — 41 ; Idem ; ' Cotton cargos and regulation against overleading ' , PP. 21 — 22 .

(17) Brown , Studies, P. 347 .

(١٨) عن أطعمة الملاحين واجورهم انظر :

Lane, ' Diet and wages ' , PP. 134 — 36 .

(19) Lane, ' The merchant marine ' , PP. 143 ,145 .

(20) Atiya, crusade, commerce, P. 176 .

يؤكد ذلك وليام الصوري(٢١) ، ولهذا وضعت حكومات المدن الايطالية جداول تحددت فيها مواعيد رحلات سفنها التجارية الى شرق البحر المتوسط ، حتى أننا لنجد أن معظم المدن الايطالية اقتصرت على رحلة تجارية واحدة خلال السنة تبدأ في الربيع وتعود الى ايطاليا في بداية الخريف ، أو أن تبحر في الخريف وتعود أواخر الربيع (٢٢) بعد أن تمضي السفن فصل الشتاء في احدى موانيء بلدان شرق البحر المتوسط ، غير أن الاساطيل التجارية الايطالية قد اخذت ، منذ أواسط القرن الثالث عشر ، تقوم برحلتين سنويا في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وذلك نتيجة استخدام البوصلة والخرائط البحرية ، أولاهما : رحلة الربيع وثانيتهما : رحلة الصيف(٢٣) .

ولقد لعبت العلاقة ، التي قامت بين اصحاب السفن والتجار دورا هاما في تطوير الملاحة وتنظيماتها من جهة وفي ازدهار النشاط التجاري المدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر من جهة أخرى . ففي عصر كانت التجارة فيه لا تزال عملا يتسم بالمخاطرة ، كان وجود ترتيبات أو قوانين تنظم العلاقة بين الطرفين مسألة بالغة الاهمية . الا أن مثل هذه الترتيبات أو القوانين كانت ، حتى أواسط القرن الثالث عشر ، عبارة عن عقود شفوية اعتمدت على الثقة المتبادلة بين أصحاب السفن والتجار(٢٤) . ولكن ازدهار النشاط التجاري للمدن الايطالية أدى الى وجود قوانين رسمية أو عقود كتابية نظمت العلاقة بين الطرفين وحددت مسؤولية كل منهما تجاه الآخر ، ومن ذلك أن هذه القوانين اعفت التاجر وخادمه وأمتعته من تكاليف النقل والزمته بدفع تكلفة شحن متاجره فقط(٢٥) . الا انه كان يصعب على اصحاب السفن ارضاء التجار ،

(21) William of Tyre , op. cit., 1, PP. 54 — 59 .

(22) Lane, The Economic Meaning of the invention of the compass , P. 608 .

(٢٣) انظر تفصيل ذلك في :

Lane, The Economic meaning , P. 608 ; Idem ; Rhythm and rapidity , P. 110 .

(24) Byrne , Genoese shipping , P. 28 .

(25) Ibid. , PP. 29 — 30 .

في بعض الاحيان ، فمن الصعاب التي كانت تواجه أصحاب السفن كره التجار لوجود الحجاج على ظهر السفن أو وجود الحيوانات فيها ، ولهذا كانوا يشترطون عدم نقل الخيول وغيرها من الحيوانات على السفينة(٢٦) .

وتطورت ملاحة المدن الايطالية تطورا كبيرا نتيجة لاستخدام البوصلة وعرف الايطاليون البوصلة منذ أواخر القرن الثاني عشر ، الا انهم لم يستخدموها في البحر المتوسط الا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر(٢٧) . واحدث استخدام البوصلةتطورا كبيرا في عالم الملاحة والتجارة، في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، بالنسبة الى المدن الايطالية التجارية. فبعد أن كان الملاحون الايطاليون يعتمدون على التخمين والشمس والنجوم لتحديد الاتجاهات الاربعة ، أصبحوا يعتمدون على الابرة المغنطة ، وادى ذلك الى ازدياد حركة الشحن بين المدن الايطالية وبلدان شرق البحر المتوسط ، بحيث أصبحت الاساطيل التجارية الايطالية تقوم بأكثر من رحلة في السنة الواحدة ، وبالتالي تمكن التجارمن استثمار أموالهم اكثر من مرة في العام الواحد(٢٨) .

وقد بلغت الملاحة في المدن الايطالية ذروتها عندما استخدم الملاحون الايطاليون ، الى جانب البوصلة ، الخرائط البحرية التي رسموها وفقا لخبرتهم الطويلة في الملاحة عبر المتوسط ، وقد حددت هذه الخرائط ، التي تحققت لها دقة متناهية في مستهل القرن الرابع عشر ، حركة الرياح واتجاهاتها في البحر المتوسط على مدار السنة ، ومكنت ، بالتالي ، الملاحين من تحديد اتجاهاتهم ومحطاتهم البحرية من جهة وزيادة سرعة سفنهم من

---

(26) Ibid., PP. 7 — 8 , 10 .

(٢٧) يبدو ان الصينيين كانوا أول من اخترع الابرة المغنطة ، ومن ثم استخدمها المسلمون ، ومن بعدهم استخدمها البحارة الايطاليون قبل كل الشعوب الاوربية ، وكانت مدينة بيزا أول مدينة ايطالية استخدمت البوصلة وذلك عام ١٢٨٠ . عن ذلك انظر :

Lane, The Economic meaning , P. 608 , Hitti, Hist. of Syria, P. 620 .

(28) Lane, ' The Economic meaning, PP. 606 — 607 , 610 , 17 .

جهة ثانية وتطوير نماذج جديدة من السفن التجارية من جهة ثالثة(٢٩) .

وعلى الرغم من هذا التطور الكبير في ملاحة المدن الايطالية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد استمرت بعض الاخطار تحيط بقوافلها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كالقرصنة والعواصف والمعابر المائية الخطرة وتيارات الخلجان ، قرب شواطيء آسيا الصغرى والاسماك الكبيرة ، قرب شواطيء الشام(٣٠) .

وهكذا فقد كانت التنظيمات ، التجارية والمالية والمصرفية والبحرية، التي تبنتها المدن الايطالية التجارية (البندقية وجنوة وبيزا) ، من اهم عوامل ازدهار النشاط التجاري لهذه المدن في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، فقد تمكنت هذه المدن ، من خلال تلك التنظيمات من تمويل تجارتها مع بلدان شرق البحر المتوسط ، باستخدام منظم لاكبر قدر ممكن من رؤوس الاموال ، ومن تحطيم النظم النقدية السائدة وتحقيق الانتصار لعملاتها الذهبية في أسواق الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ومن تنظيم رحلات أساطيلها التجارية ، وبالتالي فقد تمكنت المدن الايطالية ، من خلال هذه التنظيمات جميعا من الافادة لا من ثروات بلدان شرق البحر المتوسط ومنتجاتها فحسب وانما من أهم ثروات بلدان الشرق الاقصى ومنتوجاتها ايضا .

---

(٢٩) انظر تفصيل ذلك في :

Ibid. , PP. 609 — 610 , 614 .

(٣٠) انظر تفصيل ذلك في :

Ludolph , Description of the Holy land the way thither , PP. 11, 13, 15 — 16 .

الباب الثاني

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الدولة البيزنطية
خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

الفصل الأول

دور المدن التجارية الايطالية في الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة ظاهرة بالغة التعقيد في العلاقات بين الغرب الاوربي والامبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى وخاتمة للعلاقات السياسية والاقتصادية ، التي قامت بين المدن الايطالية والدولة البيزنطية ، خلال القرن الثاني عشر ، وبداية حقبة جديدة لا في تاريخ العلاقات البيزنطية ـ الايطالية فحسب وانما في تاريخ النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ايضا .

وكان أن تمتعت المدن الايطالية التجارية ، في ظل أسرة آل كومنين (١٠٨١ ـ ١١٨٥ م) ، بامتيازات تجارية واسعة في الدولة البيزنطية ، فعندما أراد الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م) ، أن يكافيء جمهورية البندقية ، على المساعدة البحرية التي قدمتها لصد الغزو النورماني ، الذي قاده روبرت جيسكارد ضد بيزنطة عام ١٠٨١ م، أصدر مرسوما (في مايو ١٠٨٢ م) منح بموجبه البندقية امتيازات تجارية فائقة الاهمية في الدولة واعفى التجار البنادقة من كل الضرائب والرسوم الجمركية ، وخصهم بحي في القسطنطينية للاقامة الدائمة [١] . ويعتبر هذا المرسوم ذو أهمية خاصة لانه كان أساسا لكل المراسيم البيزنطية التي منحت تجار المدن الايطالية امتيازات تجارية في بيزنطة ، فضلا عن أنه كان بداية التفوق التجاري للبندقية في الدولة البيزنطية .

كما أصدر الامبراطور مرسوما خاصا عام ١١١١ م ، منح بموجبه البيازنة امتيازات تجارية في الدولة ، وتخفيضا في الضرائب والرسوم

---

١ انظر النص الكامل لمرسوم الكسيوس كومنين عام ١٠٨٢م عند آنسه كومنين .
Anna Comnene, The Alexiad, PP. 144 — 47 .

الجمركية(٢) ، وخصهم بحي في القسطنطينية ، وذلك لكي يكسب البيازنة الى جانبه في نزاعه ضد أمير انطاكية النورمانديبوهيموند بن جيسكارد(٣) .

وأدرك الامبراطور حنا كومنين (١١١٨ – ١١٤٣ م) ، خطورة الامتيازات التجارية التي كان قد منحها والده للبنادقة ، والطوق الذي احكمه هؤلاء على عنق الاقتصاد البيزنطي ، وصلف التجار البنادقة الذين امتلأت بهم أسواق بيزنطة ، ولهذا رفض حنا ، في مستهل عهده ، تجديد هذه الامتيازات للبنادقة(٤) . ولكن سرعان ما ردت جمهورية البندقية على ذلك بمهاجمة الجزر البيزنطية في البحر المتوسط وبحر ايجه ، وذلك فيما بين سنتي ١١٢٢ – ١١٢٦(٥) م واضطر الامبراطور البيزنطي – راغما – ازاء ذلك الى تجديد الامتيازات التجارية للبنادقة في عام ١١٢٦ م(٦) .

وفي عام ١١٣٦ م جدد الامبراطور حنا كومنين الامتيازات التجارية التي كان قد منحها والده للبنادقة عام ١١١١ م(٧) . ويرى بعض الباحثين ان ذلك قد تم نتيجة لخوف حنا كومنين من احتكار البنادقة للتجارة مع الدولة البيزنطية ، فضلا عن رغبته في أثارة المنافسة بين الجمهوريتين الايطاليتين ، والحد من نفوذ البنادقة الاقتصادي الذي أصبح عبئاً ثقيلا على البيزنطيين(٨) .

---

(٢) كانت الضريبة التي يدفعها البيازنة على المتاجر ١٠٪ فأصبحت بموجب هذا المرسوم ٤٪ فقط انظر مناقشة هذه النقطة في :

Danstrup, J. , indirect taxation , PP. 148 — 52 .

(3) Heyd, Hist. du Commerce, 1, PP. 193 — 94 , Chalandon, Les Commenes, 11, P. 156 .

(4) Kinnamos, J. , Epitome Historiarum , in C. S. H. ; B: , P. 281

(5) Fulcher of Charter, A Hist. of the expedition, P. 270 .

(6) Kinnamos, op. cit. , P. 281 ; Nicetas , C. , Historia, in C. S. H. B. , P. 25 .

(7) Heyd, op. cit., 1, P. 197 ; Chalandon, op. cit. , 11, PP. 159 — 61 . Danstrup, ' Manuel's Coup ' , P. 203 .

(8) Diehl, C. , Hist. of the Byzantine Empire, P. 122 ; Vryonis, Byzantium and Europe, P. 144 .

وعندما اعتلى عرش الدولة البيزنطية الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ – ١١٨٠ م) أصدر مرسوما (عام ١١٤٨ م) جدد فيه الامتيازات التجارية التي منحت للبنادقة عام ١٠٨٢ م ، وذلك مقابل المساعدة البحرية التي قدمتها جمهورية البندقية للدولة البيزنطية في استرداد جزيرة كورفو من النورمان عام ١١٤٧ م(٩) ، كما اشتمل المرسوم على امتيازات اخرى أتاحت للبنادقة مد حدود الحي الخاص بهم في القسطنطينية ، وعلى اعفائهم من الرسوم الجمركية في جزيرتي كريت وقبرص اللتين لم ينص عليهما مرسوم الكسيوس كومنين الصادر عام ١٠٨٢ م (١٠) .

كما أصدر مانويل كومنين مرسوما عام ١١٥٥ م ، منح بموجبه امتيازات تجارية لجمهورية جنوه في الدولة البيزنطية ، وكان هذا هو أول مرسوم بيزنطي لصالح الجنوية ، واشتمل على تخصيص حي لهم في القسطنطينية ، وعلى تخفيض في الرسوم الجمركية ، أي أصبح للجنوية نفس الامتيازات التي منحت للبيازنة عام ١١١١ م(١١) .

ولم يتمتع الجنوية بالامتيازات التجارية الجديدة التي حصلوا عليها ، وذلك لان البيازنة والبنادقة ، ربما بتحريض من البيزنطيين، قاموا بمهاجمة الحي الجنوي في القسطنطينية عام ١١٦٢ م ، وعام ١١٦٣ م . ولم تستقر أحوال الجنوية في بيزنطة الا بمعاهدة « التحالف » التي وقعها الامبراطور مانويل معهم عام ١١٦٩ م ، والتي منحهم فيها حيا خاصا بهم خارج أسوار القسطنطينية ، وجدد لهم فيها أيضا امتيازاتهم التجارية السابقة . ولم يمض عامان على هذه المعاهدة حتى قام البنادقة بمهاجمة الحي الجنوي الجديد (١١٧١ م) واضطر الامبراطور الى دفع التعويضات للجنوية نتيجة

---

(9) Otto of Freising, The two cities, PP. 69 — 70 ; Hussey, Byzantine World, PP. 63 — 64 .

(10) Heyd, 1, P. 200 ; Brown, ' The venetian Quarter . ' P. 74 .

(11) Fotheringham ; Genoa and the Fourth crusade , P. 26 ; Hodgson, Venice in the thirteenth and Fourteenth Centuries, P. 29 ; Wolf , " Romania " ;, P. 11 ; Danstrup " Manul's coup " , PP. 203 — 204 .

الاضرار التي لحقت بهم(١٢) .

وعندما هاجم البيازنة الحي الجنوي في القسطنطينية في سنتي ١١٦٢ و ١١٦٣ م نقل الامبراطور ما نويل كومنين الحي البيزاوي الى خارج أسوار القسطنطينية ، ولكن لم يستمر هذا النفي طويلا اذ سرعان ما عقد مانويل هذه المعاهدة مع جمهورية بيزا سنة ١١٧٠ م وسمح للبيازنة بموجبها بالعودة الى حيهم في العاصمة(١٣) .

ولا ريب في أن الامتيازات التي منحت للتجار الايطاليين ، وبصفة خاصة للبنادقة ، قد الحقت أبلغ الاضرار وأخطرها في بيزنطة واقتصادها ، وأدت الى منافسات غير شريفة بين هؤلاء التجار الايطاليين عبر الامبراطورية ، وخلقت الحقد والحسد في نفوس البيزنطيين ، الذين نظروا الى هؤلاء الاجانب ، وهم ينهبون ثرواتهم ويسيطرون على أسواق امبراطوريتهم واقتصادها بقوة السيف ، ومن يقرأ ما كتبه المؤرخان البيزنطيان المعاصران كناموس ونيقيتاس ، حول هذه الامور ، يدرك الآثار العميقة التي تركتها هذه الامتيازات التجارية التي منحت للمدن التجارية الايطالية ، في قلوب البيزنطيين(١٤) ، ويبدو ان هذه العوامل كانت وراء الخطوة الجريئة التي قام بها الامبراطور مانويل كومنين في ١٢ مارس عام ١١٧١ م ، عندما قام باعتقال البنادقة ومصادرة ممتلكاتهم ومتاجرهم في القسطنطينية ، وكافة أرجاء الدولة البيزنطية ، وفق خطة تم تنظيمها وتنفيذها بدقة فائقة(١٥) .

وكانت اجراءات الاعتقال والمصادرة هذه نكبة حقيقية بالنسبة الى

(12) Finlay, Hist. of Creece, 111 , PP. 155 — 56 ; Brand, Byzantium Confronts the west, PP. 20, 207 ; Fortheringham, op. cit., PP. 26 — 27 .

(13) Nicetas, op. cit., PP. 259 — 60 ; Danstrup , " Manul's coup " , P. 205 .

(14) Kinnamos, op. cit., PP. 280 — 84 ; Nicetas, op. cit., PP. 222 — 26 .

(15) Kinnamos, op. cit., PP. 280 — 86 ; Nicetas , op. cit., PP. 220 — 26 .

البنادقة ومستوطناتهم التجارية في بيزنطة ، وصدمة عنيفة لجمهورية البندقية ومستقبلها التجاري في الدولة البيزنطية فضلا عن انها كانت نقطة تحول خطيرة في العلاقات بين البندقية وبيزنطة(١٦) . ويرى براند Brand انه لم تتم بعد ذلك مصالحة بين البنادقة ومانويل كومنين ، ولم تستأنف جمهورية البندقية تجارتها في بيزنطة حتى وفاته ، في حين ظل الجنوية والبيازنة يشكلون العناصر اللاتينية الرئيسية التي تسكن القسطنطينية حتى نهاية عهد مانويل(١٧) .

وبعد وفاة مانويل كومنين ، عاشت الامبراطورية فترة اضطرابات (١١٨٠ — ١١٨٥ م) قام خلالها سكان القسطنطينية بثورة أبريل عام ١١٨٢ م ضد كل اللاتين الذين يعيشون في العاصمة ، وتفجرت فيها ومن خلالها الاحقاد السابقة ، وفتك البيزنطيون باللاتين من تجار ورهبان ونساء وأطفال ومرضى ، وتحولت مستوطناتهم في القسطنطينية الى رماد ، وهربت اعداد من اللاتين على ظهر أربع وأربعين سفينة وقاموا في طريقهم بنهب مدن السواحل البيزنطية وتدميرها(١٨) .

لقد كان البيازنة والجنوية ، الذين يعيشون في القسطنطينية هم ضحايا تلك الثورة ، وذلك لان اعداد البنادقة في العاصمة آنذاك كانت ضئيلة ، نتيجة لما حل بهم عام ١١٧١ م وعلى أثر ذلك انسحب التجار الجنوية والبيازنة من كافة المدن البيزنطية الاخرى(١٩) . ورغم ان الجمهوريتين ، جنوه وبيزا ، لم تقوما بأي انتقام رسمي لما حل برعاياهما ، الا انهما أطلقتا العنان لافرادهما للقيام بالقرصنة ضد الامبراطورية

(١٦) حول دوافع هذه الاجراءات واثرها على العلاقات بين بيزنطة والبندقية . انظر :
Chalandon, op. cit. , P. 587 ; Brown, The venetian, PP. 82 — 86 ; Ostrogorsky , op. cit. , PP. 345 — 46 ; Vasiliev, op. cit. , 11 , P. 425 ; Brand, op. cit. , PP. 15 — 16 ; Fortheringham, PP. 26 — 27 .

(17) Brand ; op. it. , PP. 20 , 197 .

(18) Nicetas, op. cit. , PP. 325 — 26 .

(19) Brand, op. cit. , PP. 41 — 42, 67, 196, 208 .

البيزنطية(٢٠) .

وعندما اعتلى اندرنيق الثاني كومنين العرش البيزنطي سنة ١١٨٣ م أخذ يتقرب من البنادقة ، فأفرج عن بقايا المعتقاين منهم في القسطنطينية منذ عام ١١٧١ م ، ودفع بعض التعويضات لهم(٢١) ، رغبة منه في أن يتم التحالف مع جمهورية البندقية ضد النورمان ، ومع أن البنادقة قد عادوا الى مستوطنتهم في القسطنطينية ، واستأنفوا نشاطهم التجاري في الامبراطورية ، الا أنهم رفضوا الدخول في مثل هذا الحلف(٢٢) .

وبعد ان اعتلى العرش البيزنطي اسحاق انجيلوس سنة ١١٨٥ م وقع معاهدة مع البندقية في فبراير ١١٨٧م ، انطوت على تجديد لكل الامتيازات التي حصل عليها البنادقة في الامبراطورية منذ عام ١٠٨٢م ، وحصل البنادقة بموجبها أيضا على بعض التعويضات عن خسائرهم عام ١١٧١م(٢٣) .

وفي (أبريل) عام ١١٩٢م وقع الامبراطور اسحاق معاهدة مع جمهورية جنوه ، تنازل فيها الطرفان عن المطالبة بالتعويض عن الاضرار التي الحقها كل طرف بالآخر عام ١١٨٢ م . ووفقا لهذه المعاهدة جدد الامبراطور الامتيازات التي حصل عليها الجنوية في عهد مانويل كومنين ، وسمح بتوسيع مستوطنتهم في القسطنطينية(٢٤) . وفي العام نفسه (فبراير ١١٩٢م) ، أبرم اسحاق معاهدة مع جمهورية بيزا ، صدق بموجبها على الامتيازات التي كان قد حصل عليها البيازنة منذ أيام الكسيوس كومنين ،

(20) Ibid. , PP. 42 — 43 , 208 .

(21) Tafeland Thomas, urkunder, 1, doc. 67, P. 175 .

(22) Brand, op. cit. , PP. , 169 — 97 ; Heyd. , op. cit. , 1. PP. 223 — 24 .

(٢٣) انظر النص الكامل لمعاهدة عام ١١٨٧م بين البندقية واسحاق انجيلوس في :
Tafel and Thomas, 1, docs. 70, 71, 72, PP. 179 — 88, 189 — 94 , 195 — 203 .

(24) Nicetas, op. cit., PP. 481 — 86 ; Fotheringgham, P: 28 ; Brand, op. cit., , PP. 209 — 210 .

ووعد بتوسيع مستوطنتهم في القسطنطينية (٢٥) .

وفي عام ١١٩٥ م ثار الكسيوس الثالث انجليوس في القسطنطينية على أخيه اسحاق واعتلى العرش ، وكان ذلك بمثابة صدمة قاسية للبنادقة ، نظرا لان العاهل الجديد أعاق تنفيذ بنود معاهدة ١١٨٧م ، وخرق الامتيازات الممنوحة لهم بانتزاع الضرائب والرسوم الجمركية منهم ، بالاضافة الى انه فضل البيازنة والجنوية عليهم ، بل أخذ يحرض البيازنة للاغارة على قوافل التجار البنادقة ومستوطنتهم في القسطنطينية(٢٦) ، وذلك رغبة منه في الحد من نفوذ البنادقة وهيمنتهم على اقتصاد بيزنطة وتجارتها . ولكن الدوج البندقي آنريكودا ندولو Enrico Dandolo كان حريصا على انقاذ تجارة البندقية في الشرق البيزنطي بأي ثمن ، فأرسل سفارة نجحت في ابرام اتفاقية مع البيزنطيين ، تمثلت في مرسوم امبراطوري صدر في نوفمبر عام ١١٩٨م ، انطوى على تجديد لكل الامتيازات التي منحت للبنادقة منذ أيام الكسيوس كومنين بما في ذلك الامتيازات التي منحت لهم في عام ١١٨٧م(٢٧) وبالرغم من كل ذلك فقد استمر الامبراطور الكسيوس انجيلوس في انتزاع الضرائب والرسوم الجمركية من البنادقة ، بدون وجه حق ، واستمرت المضايقات ضد البنادقة في الامبراطورية(٢٨) .

وبالرغم من تعاطف الامبراطور الكسيوس الثالث انجيلوس مع الجنوية في مستهل عهده ، وذلك رغبة منه في الحد من النفوذ التجاري البنادقة في بيزنطة واثارة التنافس بين البنادقة والجنوية ، الا أن القرصنة الجنوية ضد بيزنطة في البحر المتوسط ، اضطرته الى تغيير موقفه ، فقبض على الجنوية الموجودين في القسطنطينية وحرمهم من امتيازاتهم(٢٩) ، واخذت

(25) Nicetas , op. cit., PP. 482 — 86 ; Heyd, 1, PP. 230 — 31 .

(26) Beazley, op. cit., 11 ; P. 414 .

(٢٧) يحدد تافل وتوماس « تاريخ المعاهدة في نوفمبر ١١٩٩م » . انظر :
Tafel and Thomas, 1, doc. 85, PP. 246 FF.

(28) Mcneal The fourth crusade. in Setton, op. , cit., 11, P. 162

(29) Brand, op. cit., PP. 213 — 14 .

جنوه تبعث بسفارة اثر أخرى الى القسطنطينة في محاولة للخروج من هذه الازمة واطلاق سراح المعتقلين ، الى أن وقعت معاهدة بين الطرفين في (في اكتوبر ١٢٠١ م) . وفي هذه المعاهدة تم تجديد الامتيازات التي حصل عليها الجنوية في معاهدة عام ١١٩٢م وتوسيع المستوطنة الجنوية في القسطنطينية الا أنه من غير المؤكد أن يكون الامبراطور قد التزم بجميع بنود هذه المعاهدة(٣٠) .

أما فيما يخص علاقة الكسيوس الثالث انجيلوس بالبيازنة فمن الواضح أنه استخدمهم للحد من نفوذ البنادقة وسيطرتهم على التجارة البيزنطية ، عن طريق منحهم مزيدا من الامتيازات التجارية وعن طريق تشجيع جاليتهم في القسطنطينة للاغارة على البنادقة المقيمين بها كما أبرم معاهدة مع جمهوريتهم عام ١١٩٩م ، انطوت على تجديد لامتيازاتهم في الامبراطورية . ونتيجة لذلك امكن للبيازنة توسيع مستوطنتهم في القسطنطينية(٣١) . وتمكنت بيزا بذلك من السيطرة على السوق البيزنطية، غير أن هذه السيطرة كانت قصيرة الأجل ، وذلك لان الغرب الاوربي كان يدق أجراس الحملة الصليبية الرابعة .

وكان أن دعا البابا أنوسنت الثالث لهذه الحملة عام ١١٩٨م . واستجاب لدعوته عدد من الكونتات والبارونات الاوربيين(٣٢) ، الذين بعثوا وفدا الى جمهورية البندقية لترتيب مسألة نقل الصليبيين على سفن البندقية الى الشرق(٣٣) . ورحب دوج البندقية ، انريكو داندولو Enrico Dandolo ، بالوفد الصليبي ، ووقع الطرفان اتفاقية (١٢٠١م) تعهدت البندقية بموجبها باعداد السفن اللازمة للصليبين وامداد جموعهم بالمؤن لمدة تسعة أشهر ، وأن تشارك البندقية نفسها في هذه الحملة بخمسين سفينة على نفقتها شريطة أن يحصل البنادقة على نصف ما يغنمه الصليبيون في هذه الحملة برا وبحرا ، ومن جهة أخرى تعهد الوفد الصليبي أن يدفع الصليبيون للبنادقة مقابل كل هذه الخدمات ، مبلغ ٨٥ ألف

(30) Ibid. , P. 16 .
(31) Nicetas, op. cit., PP. 712 — 13 ; Fotheringham, op. cit., P. 32 .
(32) Villehardouin, G., The Conquest of Constantinople, PP. 29 — 30 .
(33) Ibid., P. 31 ; The Chronicl of Morea, P. 76 .

مارك فضة(٣٤) .

ويقول المؤرخان المعاصران ، قيل هاردوان Villehardouin وروبرت كلاري Robert Clari ، أن الهدف المباشر لهذه الحملة كان احتلال مصر(٣٥) . وذلك لان مصر كانت قد عادت لتحتل المركز الرئيسي للقوة الاسلامية في الشرق(٣٦) . ولكن الهدف بقي سراً في اذهان القادة الصليبيين بينما لم يعرف الصليبي العادي المشارك في هذه الحملة سوى ان الحملة متجهة الى « ما وراء البحر »(٣٧) .

وفي مستهل عام ١٢٠٢م التقت الجموع الصليبية في مدينة البندقية بغية التوجه الى مصر(٣٨) . ولكن لم يتمكن الصليبيون من دفع كامل المبلغ المتفق عليه للبنادقة(٣٩) . وعندئذ اقترح الدوج تأجيل دفع المبلغ المتبقي شريطة أن يساعد الصليبيون البنادقة لاسترجاع مدينة زارا **Zara** من ملك هنغاريا . ووافق هؤلاء على الاقتراح واتجهوا جميعا الى مدينة زارا، المسيحية ، واحتلوها وسلبوها وقتلوا العديد من سكانها ، ومن ثم اقتسموها فيما بينهم(٤٠) . وعلى الرغم من أن البابا أصدر قراراً بالحرمان الكنسي ضد الصليبيين والبنادقة عندما سمع باحتلال زارا ، الا أنه سرعان ما استجاب لتوسلات الصليبيين وأعلن رفع الحرمان عنهم ، في حين أبقاه على البنادقة(٤١) .

(34) Villehardouin, op. cit., PP. 32 — 35 ; Chronicle of Morea. PP. 77 — 78 ; Clari, The conquest of constantinople, PP. 37 — 38.
(35) Villehardouin, P. 35 ; clari, P. 36 .
(36) Ault, op. cit., P. 353 .
(37) Villehardouin, P. 35 .
(٣٨) انظر تفصيل ذلك عند : عادل زيتون : العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطة في القرن الثاني عشر ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩٣ وما بعدها .
(39) Villehardouin, op. cit., PP. 40 — 43 .
(40) Ibid, PP. 42 — 49. Clari, op. cit., PP. 40 — 44 . The Chronicle of Morea, PP. 78 — 80 .
(41) Villehardouin, P. 53 .

وبينما كان الصليبيون والبنادقة يقضون الشتاء في زارا ، ليستأنفوا حملتهم الى « مصر » في العام القادم (١٢٠٣م) ، ظهرت مسألة الامير البيزنطي الكسيوس بن اسحاق انجليوس(٤٢) . حيث وصل الى زارا مندوبون عن الامير البيزنطي وملك ألمانيا فيليب سوابيا : Philip of Swabia وطلبوا مساعدة الصليبيين لاستعادة عرش والده في القسطنطينية ، واعلنوا أن الامير الكسيوس يتعهد للصليبيين ، اذا أجابوا طلبه ، باخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ، وتقديم /٢٠٠/ الف مارك ، وامداد الجيش الصليبي بالمؤن اللازمة لمدة عام كامل ، واشتراك بيزنطة في الحملة الصليبية بعشرة آلاف جندي لمدة سنة . وانقسم الصليبيون ، عند مناقشة عروض مندوبي الامير البيزنطي ، حول مسألة تحويل حملتهم الى القسطنطينية ، وأخيرا تم توقيع اتفاقية بين القادة الصليبيين والمندوبين اشتملت على تعهد الصليبين بالتوجه الى القسطنطينية بحملتهم لاعادة اسحاق ال ىالعرش وفق الشروط الآنفة الذكر(٤٣) .

وصل الجيش الصليبي الى القسطنطينية ، وكان دوج البندقية ، انريكو داندولو ، هو الموجه الرئيسي له ، نتيجة خبرته الطويلة في أحوال بيزنطة . وبعد قتال شديد حول القسطنطينية ، لعب البنادقة فيه دورا أساسيا ، اضطر الامبراطور الكسيوس الثالث انجيلوس الى الفرار ، ومن ثم أعيد اسحاق الى العرش البيزنطي(٤٤) .

وعلى الرغم من أن اسحاق كان قد صدق على الاتفاقية ، التي أبرمها ابنه مع الصليبيين ، غير أنه لم يلتزم بتنفيذها ، وفي الوقت نفسه قام البيزنطيون في القسطنطينية بثورة اطاحت بالامبراطور اسحاق ، وعندئذ قرر الصليبيون احتلال القسطنطينية(٤٥) . ولكن قبل اقتحامهم المدينة

(٤٢) قام الكسيوس الثالث انجيلوس عام ١١٩٥م بخلع شقيقه اسحاق عن العرش واودعه السجن مع ابنه الكسيوس ، ثم فر الاخير الى الغرب لطلب المساعدة من زوج اخته فيليب سوابيا ملك المانيا انظر :

Villehardouin, PP. 44 — 45 ; Clari, P. 57 .The Novgorod Account of the Fourth Crusade, PP. 228 — 29 .

(43) Villehardouin, PP. 50 — 52 , 75 ; Clari, PP. 45 — 46 , 58 — 59 , The chronicle of morea , P. 82 .

(44) Villehardouin, PP. 62 — 73 ; clari, PP. 69 — 79 .

(45) Villehardouin, PP. 75 — 78, 81 — 87 ; Clari, PP. 92 — 94.

وقعوا معاهدة مع البنادقة ، عرفت باسم معاهدة « تقسيم رومانيا » Partitio Romanie . وقد تضمنت تقسيم الامبراطورية البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة ، كما تضمنت أيضا أنه اذا تم انتخاب الامبراطور من الصليبيين فيجب أن ينتخب البطريرك من البنادقة(٤٦) .

واحتل الصليبيون والبنادقة القسطنطينية ، وقاموا بنهب ثرواتها ثم انتخبوا بلدوين كونت الفلاندرز Baldwin count of Flanders امبراطورا على القسطنطينية . وكانت حصته ، وفق معاهدة التقسيم ، تشتمل على ٥/٨ القسطنطينية ومناطق أخرى في تراقيا وشواطىء البوسفور والدردنيل وعلى عدد من جزر بحر ايجه ، في حين كانت حصة البندقية ٣/٨ القسطنطينية ومدينة دورازو وادريانوبل ورودستو وهراقلية وعلى عدد من الجزر في بحر مرمرة والبحر الايوني وبحر ايجه هذا بالاضافة الى كورون ومودون في جنوب البليوبوتيز(٤٧) . كما اشترى البنادقة في أغسطس من العام نفسه (١٢٠٤ م) جزيرة كريت من بونيفاس مونتفرات Boniface of Montferrat (٤٨) بمبلغ الف مارك من الفضة(٤٩) . ونتيجة لهذه المواقع الهامة التي أصبحت في حوزة جمهورية البندقية اتخذ دوج البندقية لقب : « سيد الربع ونصف ربع جميع الامبراطورية البيزنطية » وظل خلفاء داندولو يستخدمون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر .

(46) Villehardouin, op. cot., P. 88 ; Clari, op. 91 .

(٤٧) انظر تفصيل ذلك في :

Villehardouin, PP. 88 — 97 , 136 — 37 Clari, PP. 101, 115 — 17, 125 — 26 .

(٤٨) منح الامبراطور اللاتيني بلدوين مدينة سالونيكا الى المركيز بونيفاس مونتفرات. انظر :

The Chronicle of Morea, P. 98 ; Villehardouin, P. 93 .

(49) Miller, The Latins in the Levant , P. 29 .

وبالرغم من انه لا يسعنا المجال لمناقشة مسألة تحويل الحملة الصليبية الرابعة ، عن هدفها الاصلي وهو مصر ، الى القسطنطينية والتي تعتبر ظاهرة بالغة التعقيد في تاريخ العصور الوسطى(٥٠) . الا اننا نود أن نؤكد على الدور البارز الذي لعبته البندقية في تحويل هذه الحملة وقيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، فسواء كان البنادقة هم المسؤولون عن تحويل الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية او لم يكونوا (٥١) ، فان مشروع احتلال القسطنطينية كان يتفق مع الاهداف العظمى التي عملت البندقية من أجلها ، منذ أواخر القرن الحادي عشر وحتى قيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية والتي تتلخص في احتكار التجارة الشرقية ، وبناء امبراطورية تجارية تتحكم باقتصاديات وثروات عالم البحر المتوسط .

وعلى اية حال فان ابرز ما حققته البندقية في ظل الامبراطورية اللاتينية الجديدة في القسطنطينية ، هو أن امتيازاتها لم تعد وقفا على رغبة الامبراطور البيزنطي ، وانما اصبحت جزءا من دستور الامبراطورية اللاتينية(٥٢) . واستثنت معاهدة تقسيم « رومانيا » البنادقة — دون كل اللاتين — من اداء يمين الولاء للامبراطور اللاتيني في القسطنطينية(٥٣) . وامتلك البنادقة ما يقارب ثلث القسطنطينية وضواحيها . ولهذا سرعان ما وجد أباطرة القسطنطينية اللاتين انفسهم فريسة لاطماع البنادقة ومطامحهم وأداة بأيدي التجار البنادقة ورجال المال منهم ، حتى أن الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني رهن تاج الامبراطورية لدى بعض التجار البنادقة الذين اقترض منهم مبلغا معينا من المال (٥٤) . وبذلك فقد ترسخت أقدام البنادقة في بيزنطة ، وامتدت ممتلكاتهم من الادرياتي الى البحر

---

(٥٠) انظر مناقشة هذه المسألة عند : عادل زيتون : العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطة ، ص ٤٤٣ — ٤٤٦ .

(٥١) لعب دوج البندقية دورا رئيسيا في انتخاب بلدوين امبراطورا وذلك لان انتخاب أمير ضعيف — كما اعتقد الدوج — أكثر ضمانا لمصالح البندقية مما لو تم انتخاب امير قوي مثل بو نيفاس ، خاصة وأن الاخير كان على علاقة طيبة مع الجنوية والبيازنة . انظر مناقشة ذلك في :

Jorga, The Byzantine Empire, P. 172 ; Forthringham, PP. 35 — 37 .

......

(52) Fotheringham, op. cit., P. 34 .

(53) Vryonis, op. cit., P. 160 .

(54) Hodgson, op. cit., PP. 11 — 12 .

الاسود(٥٥) . واصبحت جمهورية القديس مرقص من بين القوى الرئيسية في عالم البحر المتوسط وقتذاك وامتلكت زمام قيادة التجارة الشرقية(٥٦) .

اما بالنسبة الى دور جنوه وبيزا في الحملة الصليبية الرابعة . فان المصادر المعاصرة والدراسات الحديثة المعنية بهذه المسألة ، تؤكد بأنه لم يكن لها تين المدينتين اي دور في هذه الحملة . فالمؤرخ فيل هاردوان قد قد اشار الى جمهوريتي بيزا وجنوه مرة واحدة فقط ، في مؤلفه كله ، وذلك عندما قال ، « ان وفدا صليبيا قد اتجه الى مدينتي بيزا وجنوه ، عام ١٢٠١ م ، في محاولة للحصول على مساعدة منهما من اجل الحملة »(٥٧) . اما المؤرخ روبرت كلاري فقد قال : « ان وفدا صليبيا قد اتجه الى جنوه وبيزا للحصول على مساعدتهما من اجل الحملة ، الا أن الجنوية رفضوا تقديم اية مساعدة في حين اعتذرت بيزا عن تقديم العون للصليبيين بحجة انها لا تملك العدد المطلوب من السفن »(٥٨) . وقد نجح فثرنكهام Fotheringham في دراسته القيمة حول هذه المسألة ، في اثبات تناقض اهداف الحملة الصليبية الرابعة مع المصالح التجارية للجنوية في بيزنطة ، كما برهن على عدم قيام جنوه بأي دور في اعداد هذه الحملة (٥٩) .

---

(٥٥) لم يستطع احد من التجار الايطاليين ، حتى سقوط بيزنطة بيد اللاتين عام ١٢٠٤م ، الوصول الى موانى البحر الاسود الا بترخيص خاص من الاباطرة البيزنطيين ، وذلك لان بيزنطة كانت تحتكر تجارة البحر الاسود . ولكن بسقوط بيزنطة بيد اللاتين تحطم احتكار البيزنطيين وهيمن البنادقة على تجارة هذا البحر . وتمكنوا من اقصاء التجار البيزنطيين والجنوية . واسسوا عددا من المستوطنات التجارية في موانئه .

انظر تفصيل ذلك في :

Finlay , op. cit., 111, P. 154 , Beazley , op. cit:, 11, PP: 446 — 53 ; Baker, Med. trade routes, P. 16 .

(56) Tafur , op. cit., P. 122 .

(57) Villehardouin, op. cit., P. 35

(58) Clari, op. cit., P. 37 .

(59) Fotheringham, op. cit., 34 — 38 .

وفي ظل الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ — ١٢٦١) أصبحت الامتيازات التجارية للجنوية والبيـازنة(٦٠) في بيزنطة معرضة للخطر ، ووقفـا علـى رغبة البنادقة . ولهذا فقد نظر الجنوية الى الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية على انه نجاح لمنافسيهم البنادقة وفي الوقت ذاته ضربة قاسية لمصالحهم التجارية في الشرق البيزنطي . وربما يفسر لنا هذا رفض الجنوية الاعتراف بالاحتلال اللاتيني للقسطنطينية من جهة واحجام الوثائق الجنوية، المعاصرة لهذا الاحتلال ، عن ذكر كلمة « الامبراطور اللاتيني »(٦١) .

وعلى أية حال فان المعاهدة التي وقعها دوج البندقية (فيمـا بين ١٢١٧ — ١٢١٩ م) بطرس زياني Pietro Ziani ، مـع القومـون الجنوي ، لمدة أربع سـنوات ، تلقي ضـوءا في على أحـوال الجنويـة في القسطنطينيـة ، وعلى علاقتهـم بالبنـادقة في ظل سـيطرة اللاتـين في القسطنطينية . فقد اشتملت المعاهدة على تعهد دوج البندقية بأن يتمتع الجنوية بالامتيازات التجارية والاعفاءات الضرائبية والجمركية التي كانوا قد حصلوا عليهـا في عهـد الامبراطـور البيزنطي الكسـيوس الثـالث انجيلوس(٦٢) .

وبالرغم من هذه المعاهدة ، فانه لم يكن بامكان الجنويـة ممارسـة نشاطهم التجاري ، بالشـكل الذي يرغبـون بـه ، في امبراطـورية سيطر

---

(٦٠) لقد سمحت البندقية للبيازنة بأن يحتفظوا بحيهم القديم في القسطنطينية وأن يتمتعوا بالامتيازات التجارية التي كانوا قد حصلوا عليها في عهد الاباطرة البيزنطيين . وربما السبب في ذلك أن البيازنة انحازوا الى جانب الصليبيين أثناء حصار القسطنطينية عـام ١٢٠٤م . انظر :

Thompson, op. cit., 1, P. 419 ; Brand, op. cit., P. 217 .

(61) Wolf, The Latin Empire, P. 13 .

(٦٢) انظر نص المعاهده ي .

Tafel and Thomas, op. cit., 11, PP. 197 — 205 .

عليها منافسوهم البنادقة(٦٣) . ولم يكن باستطاعتهم وضـع انفسهم تحت رحمة تجار جمهورية القديس مرقص . واذا كنا لا نستطيع أن نقرر فيما اذا تم طرد الجنوية من القسطنطينية ، خلال الامبراطورية اللاتينية ، كما ذهب الى ذلك احد الباحثين المحدثين(٦٤) . الا اننا نستطيع القـول بـأن النشاط التجاري للجنوية ، في ظل السيطرة اللاتينية في القسطنطينية ، كان فصلا كئيبا في تاريخهم التجاري لا في الامبراطورية البيزنطية فحسب وانما في البحر المتوسط أيضا .

---

(٦٣) يبدو ان التجار الجنوية لم يتمكنوا من التغلغل الى البحر الاسود خلال سيطرة اللاتين في القسطنطينية ، وذلك نتيجة العقبات التي وضعها البنادقة في وجههم ، في حـين أنه من غير المستبعد أن يكون البيازنة قد قاموا بنشاط تجاري في البحر الاسود خلال تلـك الفترة ، وذلك لان العداء بين البنادقة والبيازنة كان أقل حدة مما كان عليه بين البنادقـة والجنوية ، كما أشرنا الى ذلك خلال الصفحات السابقة .

(64) Laiou , A. E., Constantinople and the Latins , P. 69
Ludolph von suchem, op. cit., P. 28 .

الفصل الثاني

امبراطورية نيقية وأزمة التجار الايطاليين ١٢٠٤ – ١٢٦١م

لقد مزقت الحملة الصليبية الرابعة الامبراطورية البيزنطية الى عدد من الدويلات ، بعضها لاتينية وبعضها الآخر يونانية ، أما الدول اللاتينية فتمثلت في الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ومملكة سالونيكا وامارة Achaia في البيلوبونيز(١) ودوقية أثينة وطيبة في وسط اليونان(٢) أما الدويلات اليونانية فهي : امبراطورية نيقية ، وامبراطورية طرابزون(٣) وأمارة آبيروس(٤) .

واعتبر المؤرخون المعاصرون الامبراطورية البيزنطية ، التي أسسها تيودور لاسكاريس Theodore Lascaris (١٢٠٤ – ١٢٢٢ م) في نيقية ، بعد احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤ م الامبراطورية الشرعية للعالم اليوناني(٥) . وقد نجح أباطرة نيقية في اثبات جدارتهم بأن يكونوا

(١) في أوسط القرن الرابع عشر كان المؤرخون الغربيون يطلقون على آخيا اسم المورة Morea انظر : Ludolph, P. 28 .

(2) Vasiliev, op. cit., 11, P. 506 ; Hussey, op. cit., P. 70 ; Ostrogorsky PP. 376 — 77 .

(٣) أسس فرع من آل كومنين في طرابزون امبراطورية بيزنطية بعد احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤م وامتدت سيادة هذه الامبراطورية من طرابزون شرقا حتى هراقلية غربا : انظر :

Rubruquis, The Journal, P. 263 ; Mandeville, The travels, P. 98 .

(٤) اسس امارة ابيروس Epirus فرع من آل انجيلوس وامتدت هذه الامارة من دورازو شمالا حتى خليج كورنث جنوبا . انظر :

Vasiliev, 11, P. 518 ; ostrogorsky, P. 378 .

(5) Villehardouin, PP. 89, 110 ; Clari, P. 100 .

ورثة القسطنطينية ، وذلك لان أهدافهم السياسية قد تلخصت في تقويض الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية واسترداد الامبراطورية البيزنطية الى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الرابعة(٦) . ومثل هذه الاهداف لاباطرة نيقية لم تساعد على قيام علاقات تجارية بين امبراطوريتهم وبين المدن الايطالية بصفة عامة والبندقية بصفة خاصة ، لا سيما وأن الاخيرة كانت المؤسس الحقيقي للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .

لقد نظرت البندقية بقلق شديد الى تزايد قوة امبراطورية نيقية ونفوذها نتيجة الانتصارات التي حققها لاسكاريس على اللاتين والسلاجقة في آسيا الصغرى . كماوجدت البندقية في ضعف امبراطورية القسطنطينية وتدهورها ، عبئا ثقيلا على تجارتها ومواردها ، وخطرا على مستقبلها في الاراضي البيزنطية . ولا سيما وأن البندقية قد تبنت الدفاع عن امبراطورية اللاتين في القسطنطينية ، وذلك لان سقوط الحكم اللاتيني في « العاصمة البيزنطية » كان كارثة كبرى للبندقية ومصالحها التجارية لا في « بيزنطة » فحسب وانما في البحر المتوسط كله . وبتعبير آخر ان وجود الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ارتبط ارتباطا وثيقا بتفوق البدقية ، بحيث أن انهيار احداهما سيكون نهاية للاخرى .

وأدركت البندقية – في ظل هذه الظروف – أن حماية مصالحها التجارية وتوفير الامن لتجارها ونشاطاتهم في القسطنطينية وبقية المدن اليونانية ، يتطلب منها تبني سياسة التقارب مع أباطرة نيقية . ولهذا قام البودستا Podesta (الممثل) البندقي في القسطنطينية Giacomo Tiepole بتوقيع معاهدة مع الامبراطور تيودور لاسكاريس عام ١٢١٩ م(٧) . ولقد انطوت هذه المعاهدة على تعهد تيودور باعفاء التجار البنادقة من الرسوم الجمركية المتعلقة بالرسو والاقامة والمغادرة في الموانىء والمدن التابعة لامبراطورية نيقية ، وعلى حماية البحارة البنادقة عند تحطم

(٦) يعترف فيل هاردوان أن تيودور شرع في محاربة اللاتين المحتلين للقسطنطينية من الجانب الآخر للمضائق فور اعتلائه العرش في نيقية . انظر :

Villehardouin, PP. 110, 112.

(٧) انظر النص الكامل لهذه المعاهدة في :

Tafel and Thomas, op. cit., 11, P. 205 — 207 .

سفنهم أو غرقها في المياه التابعة لنيقية . كما اشتملت المعاهدة على تعهد تيودور بحماية ممتلكات البنادقة ومتاجرهم عندما يموت أحدهم في أراضي امبراطورية نيقية . وعلى وعد تيودور بألا يرسل سفنا حربية أو قراصنة ضد القسطنطينية دون موافقة البندقية . وتضمنت المعاهدة على تعهد البنادقة وحكام نيقية بألا يسك أحدهم نقودا مشابهة لما يسكه الآخر . ومدة هذه المعاهدة خمس سنوات(٨) .

وعلق أحد الباحثين المحدثين على هذه المعاهدة بقوله : « أن النظرة الدقيقة في بنود هذه المعاهدة تكشف لنا عن العقلية العملية التي يتمتع بها البنادقة . أو بالاحرى الحاكم البندقي في القسطنطينية ، الذي لم يتردد لحظة في توقيع معاهدة تجارية مع ثيودور لاسكاريس . وفي أن يطلق على ثيودور اسم « امبراطور الرومان » . علما بأن الامبراطور اللاتيني القابع في القسطنطينية آنذاك كان قد نصبه البنادقة أنفسهم . ولكن لم يكن لمثل هذه الامور كبير وزن بالنسبة الى القضايا الرئيسية التي تهم البنادقة . والتي تتلخص في تحقيق الامن والحماية لتجارهم ونشاطهم في الاراضي والبلدان الاجنبية ، والحفاظ على المصالح التجارية العليا لجمهورية القديس مرقص »(٩) .

واختلفت آراء المؤرخين المحدثين المعنيين بهذا الموضوع ، حول ما اذا تم تنفيذ بنود معاهدة عام ١٢١٩ م . أو بالاحرى فيما اذا أفادت البندقية منها . فذهب بعضهم ، أمثال فاسيليف Vasiliev ، الى ان البضائع الغربية اخذت تصل الى مدينة نيقية بواسطة التجار البنادقة بناء على هذه المعاهدة ، وان هذه البضائع قد نجحت في منافسة السلع والمتاجر الشرقية التي كانت تتدفق الى نيقيه عبر سلطنة قونيه السلجوقية . وأن المتاجر الشرقية والغربية معا كانت تلقى رواجا واسعا في أسواق نيقية(١٠) . في حين يرى آخرون ، أمثال بازلي Beazley وآنجولد

(٨) انظر مناقشة بعض بنود هذه المعاهدة في :
Heyd, 1, PP. 304 — 305 ; Angold, A Byzantine Government in exile, PP. 114 ; 196 ; Hodgson, op. cit., PP. 25—26; Vasiliev, 11, P. 547 .

(9) Hodgson, op. cit., P. 26 .

(10) Vasiliev, op. cit., 11, P. 547 .

Angold ان البنادقة لم يستفيدوا من هذه المعاهدة ، لان وثائق البندقية التجارية لا تقدم اطلاقا أية دلائل على ذلك . فضلا على انه لم يكن في وسع البنادقة الافادة منها عمليا ، وذلك لانهم كانوا ، من الناحية السياسية ، أعداء الداء لامبراطورية نيقية(١١) . ومهما تباينت الآراء ازاء هذه المسألة فان الامر لا يزال غامضا فيما يتعلق بنشاطات التجار البنادقة في امبراطورية نيقيه على عهد ثيودور لاسكاريس ولكن من غير المستبعد ان يكون التجار البنادقة قد حاولوا القيام ببعض الاعمال التجارية المحدودة ، في بعض المناطق التابعة لامبراطورية نيقيه ، في أعقاب معاهدة عام ١٢١٩ م .

ولقد تابع امبراطور نيقيه حنا فاتاتزيس John Vatatezs (١٢٢٢ — ١٢٥٤ م) سياسة سلفه لاسترداد القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية اللاتينية . ولهذا تبنى مشاريع — اقتصادية وسياسية وعسكرية — معادية للاتين في كل مكان من الاراضي البيزنطية . وكان لذلك أسوأ النتائج لا على النشاط التجاري للمدن الايطالية في آسيا الصغرى ونيقيه فحسب وانما في القسطنطينية والبلقان وبحر ايجه والبحر المتوسط ايضا .

فمن الناحية الاقتصادية اتبع حنا فاتاتزيس سياسة الاكتفاء الذاتي في امبراطوريته ، بمعنى أن يجعل بلاده تكفي نفسها بنفسها اقتصاديا ، وذلك ادراكا منه لخطورة اندفاع رعاياه وراء السلع والمتاجر الاجنبية ، ولهذا أمر — كما يقول جريجوري(١٢) — بمنع رعاياه من شراء السلع والبضائع الاجنبية والاقتناع فقط : « بمنتجات أرض الرومان (أي البيزنطيين) وبما تصنعه أيدي الرومان »(١٣) .

ويعتقد استروغروسكي أن اجراءات الحماية الاقتصادية هذه كانت

(11) Beazley, op. cit., 11, P. 448 ; Angold, op. cit., P. 114

(12) Gregorae, N., Byzzantina Historia, 1, PP. 42 — 44 .

(١٣) عن الصناعات الرئيسية والثروة الطبيعية في نيقيه . انظر :
Angold, Abyzantine Government in exile, PP. 102,109,227.

تستهدف كسر الاحتكار الاقتصادي الذي كانت تمارسه المدن الايطالية بصفة عامة والبندقية بصفة خاصة(١٤) . في حين يرى آنجولد ان الهدف من هذه السياسة الاقتصادية هو الحد من استيراد الاقمشة من البلدان الاسلامية وايطاليا(١٥) . بينما علق فريونيس على هذه المسألة بقوله ان السياسة الاقتصادية التي اتبعها حنا فاتاتزيس في امبراطورية نيقية استهدفت حماية الصناعات المحلية من المنافسة الايطالية ، ولهذا قام باحياء صناعة المنسوجات البيزنطية القديمة ، وحشد مستودعات مدنه بالمنتجات الزراعية ، واحتفظ بالحرفيين والصناع على نفقة الدولة ، في الوقت الذي كانت فيه مخازن موانئه ومستودعاتها وأسواقها مليئة بالمتاجر القادمة من كل أنحاء العالم(١٦) .

واذا كان الامبراطور حنا الثالث قد حقق نجاحا نسبيا ، في الحد من الاستيراد وبالتالي في حماية اقتصاد نيقيه وأسواقها من الوقوع بأيدي التجار الايطاليين ، الا أن الدراسة التي قام بها آنجولد اثبتت أن سفنا « غربية » قد ترددت ـ على عهد حنا فاتاتزيس بين سواحل امبراطورية نيقيه والسواحل الشامية ، وأن سفنا تجارية ايطالية وبصفة خاصة من بيزا ولوكا الايطاليتين ، كانت تتردد أحيانا على موانىء امبراطورية نيقية(١٧) ، كما بين هذا الباحث أن متاجر وسلعا من مصر والهند كانت تعرض للبيع في أسواق نيقية في بعض الاحيان(١٨) .

اذا كانت السياسة الاقتصادية التي اتبعها الامبراطور حنا فاتاتزيس قد الحقت أبلغ الاضرار بالنشاط التجاري للمدن الايطالية في امبراطورية نيقية ، ووضعت صعوبات بالغة أمام تغلغل التجار الايطاليين في أسواق

(14) Ostrogorsky , P. 394 .
(15) Angold, op. cit., PP. 116 — 17.
(16) Vryonis, op. cit., P. 165 .

(١٧) يشير المؤرخ جريجوري الى تصدير نيقية للحبوب بكميات كبيرة الى سلاجقة الروم الذين احتشدوا على أبوابها يدفعون الذهب والفضة نتيجة لما حل بهم من جراء غزو المغول لآسيا الصغرى عام ١٢٣٤م . انظر :

Gregorae, op. cit., 1, PP. 42 — 43 .

(18) Angold, op. cit., PP. 113 — 14, 227 .

نيقية وموانئها ، فان نشاطاته العسكرية(١٩) ، التي استهدفت استرداد القسطنطينية ، وبقية المدن البيزنطية ، من أيدي اللاتين(٢٠) ، قد الحقت بدورها أفدح الاضرار وأخطرها في مصالح المدن الايطالية وممتلكاتها وقوافلها ومستوطناتها التجارية في القسطنطينية والبلقان وبحر ايجه(٢١) .

وكان أن تحالف الامبراطور حنا فاتاتزيس مع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فردريك الثاني ، فعداء الاخير للبابوية ، جعله يتخذ موقف العداء تجاه الامبراطورية اللاتينية التي تدعمها البابوية(٢٢) . واضافة الى ذلك فان سياسة الامبراطور فردريك في ايطاليا ، ومحاولته تدمير استقلال المدن اللمباردية ، جعلت البندقية وجنوه وبيزا يدعمون المدن اللمباردية ، ويخوضون صراعا طويلا الى جانبها دفاعا عن مصالحهم التجارية في ايطاليا . ولهذا فان تحالف حنا مع فردريك الثاني ، واتفاقهما على اسقاط الحكم اللاتيني في القسطنطينية واحياء الامبراطورية البيزنطية(٢٣) ، كان ضربة سياسية عنيفة وجهها امبراطور نيقية الى المدن التجارية الايطالية ومصالحها في ايطاليا والمدن البيزنطية معا .

ولقد كان الهدف الاول لميخائيل الثامن باليولوغوس : Michael

(١٩) تمكن الامبراطور حنا من استرداد بعض الجزر التي كانت في قبضة اللاتين في بحر ايجه . ففي الفترة الممتدة ما بين ١٢٢٢ – ١٢٢٥م استرد كل من الجزر الآتية : ميتيلين MITYLENE وساموس وخيوس وليسبوس وكوس وايكاريا . انظر :

Gregorae , 1, PP. 28 — 29 .

(٢٠) في عام ١٢٣٥م هاجم الاسطول النيقي آبيروس التي كانت مينا هاما يخضع للبندقية . انظر : Angold, P. 198 .

(٢١) فرض الامبراطور حنا الحصار على القسطنطينية عام ١٢٣٥ – ١٢٣٦م ، بالتعاون مع البلغار وامراء آبيروس ، ونجح في استرداد سالونيكا من امراء آبيروس عام ١٢٤٦م كما استعاد جزيرة رودس من الجنوية عام ١٢٤٩م . انظر تفصيل ذلك في :

Gregorae 1, PP. 25 — 27, Nicol, The Byzantine Family P. 14.
Angold ; PP. 114 — 15 , 197 — 98 ; Ostrogorsky, P. 389 .

(22) Vasiliev, 11, PP. 527 — 30 .
(23) Brown, venice, PP. 136 — 37 .

Palaeologus عند اعتلائه عرش نيقية عام ١٢٥٩ م (٢٤) ، هو احياء الامبراطورية البيزنطية وتقويض الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية خاصة وأن اسلافه كانوا قد قطعوا اشواطا واسعة في هذا السبيل . الا أن ميخائيل كان يدرك أن القوة التي ستواجهه هي القوة البحرية للبندقية، وذلك لان جمهورية البندقية هي المؤسس الحقيقي للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ووجود هذه الامبراطورية اللاتينية متوقف على تفوق البندقية البحري ، ولهذا كان على ميخائيل تجنب خطر البحرية البندقية ، ولم يكن أمامه سوى التحالف مع جمهورية جنوه البحرية .

ان المصادر المعاصرة لا تشير الى قيام علاقات تجارية بين جنوه وامبراطورية نيقيه على عهد اسلاف ميخائيل الثامن ، وربما يعود السبب في ذلك الى استياء الجنوية وغضبهم من التحالف الذي كان قد تم بين حنا فاتاتزيس وفردريك الثاني (٢٥) . اضافة الى السياسة الاقتصادية التي اتبعها الامبراطور حنا في نيقيه . ولكن طرد الجنوية من عكا من قبل خصومهم البنادقة ، في أواسط القرن الثالث عشر ، كان محنة قاسية بالنسبة لهم ، حيث دمرت بيوتهم وتقاسم أعداؤهم ممتلكاتهم . ولذلك فقد رغب الجنوية في استغلا لأية فرصة ليردوا للبنادقة الاساءة بمثلها . وكان مشروع ميخائيل الثامن لاسترداد القسطنطينية يشكل في حالة نجاحه كارثة حقيقية لاعدائهم البنادقة . ولهذا عزم الجنوية الذين طردوا من أواسط الشام على طرد البنادقة من أواسط «رومانيا» (٢٦) . وفضلا عن ذلك كله فقد كان النشاط التجاري للجنوية في القسطنطينية ، خلال سيطرة اللاتين ، نشاطا ضئيلا نتيجة التفوق البندقي فيها . وبذلك التقت مصالح ميخائيل الثامن ومصالح الحكومة الجنوية في استرداد القسطنطينية

(٢٤) بعد وفاة حنا فاتاتزيس اعتلى عرش نيقية ابنه تيودور الثاني لاسكاريس (١٢٥٤ – ١٢٥٨) ومن ثم حفيده حنا الرابع لاسكاريس (١٢٥٨ – ١٢٦١ م) . وسرعان ما قام ميخائيل الثامن باليولوغوس – وهو احدى الشخصيات البيزنطية البارزة – باغتصاب العرش وتوج امبراطورا عام ١٢٥٩ م . انظر تفصيل ذلك في :

Gregorae, 1, PP. 52 — 60 , 70 — 75 , 77 — 78 ; Vasiliev, 11, PP. 534 — 36 .

(25) Brown, Venice, P. 137 .

(26) Heyd, op. cit., 1, P. 427 .

من أيدي اللاتين ، وتم توقيع معاهدة بينهما في مدينة نيمفايوم Nymphaeum (٢٧) ، بتاريخ ١٣ مارس عام ١٢٦١م (٢٨) . وأهم بنود هذه المعاهدة هي : أولا : تعهد الامبراطور باعفاء الجنوية من كافة الضرائب والرسوم الجمركية عبر امبراطورية نيقيه والامبراطورية البيزنطية ، بما في ذلك القسطنطينية – عندما يتم استردادها . ثانيا : منحت المعاهدة الجنوية الحق باقامة مستوطنات تجارية لهم بالاضافة الى قنصليات وكنائس في كل من جزيرتي خيوس وليسبوس ، وكذلك في كريت ونيقروبونت عندما يتم استردادهما ثالثا : تعهد ميخائيل بأن يضم الى ممتلكات جنوه القديمة في القسطنطينية ممتلكات جديدة ، وهي كنيسة نوتردام ، التي كانت بحوزة البنادقة ، بالاضافة الى الاملاك المحيطة بها ، مثل المقبرة والاراضي التي تقوم عليها قلعة البنادقة . رابعا : منح ميخائيل الجنوية مدينة سميرنا Smyrna (٢٩) . وتشير هذه المعاهدة الى ثراء هذه المدينة والموقع الممتاز لمينائها . كما أعطى الجنوية الحق في ممارسة السلطة السياسية المطلقة في المدينة ، شريطة أن يعترف الجنوية بالحقوق الدينية للكاهن الارثوزكسي فيها . خامسا : اعطت المعاهدة الجنوية الحق في اقامة مستوطنات تجارية وكنائس وقنصليات لهم في البحر الاسود . وتعهد ميخائيل بألا يسمح لاي تاجر أجنبي ، عدا الجنوية والبيازنة ، بدخول البحر الاسود . كما أعفاهم من كل الرسوم الجمركية المتعلقة بنشاطاتهم التجارية في البحر الاسود . سادسا : تعهدت جمهورية جنوه بمنح حرية التجارة لرعايا الامبراطور في أراضي جنوه وممتلكاتها ، فضلا عن مدينة جنوه ذاتها . كما تعهدت جنوه بتقديم كل عون ممكن لميخائيل الثامن ، وبشكل خاص أسطول بكامل معداته ، وقد اخذ ميخائيل الثامن على عاتقه

(٢٧) تقع مدينة نيمفايوم قرب مدينة ازمير على الساحل الايجي . وهي عاصمة اخرى لامبراطورية نيقية وقد تطورت هذه المدينة بسرعة بعد أن اتخذها حنا فاتاتيزيس مقرا مؤقتا له في بداية حكمه . انظر :

Angold, op. cit., P. 111,

(٢٨) انظر مقتطفات من هذه المعاهدة في :

Gregorae, 1, PP. 96 — 97 ; heyd, 1, PP. 427 — 29 ; Miller, The latins in the levant, P. 118 ; Hodgson, P. 35 .

(٢٩) ان مدينة سميرنا Smyrna) هي مدينة أزمير الحالية . وكانت القاعدة البحرية الرئيسية لامبراطورية نيقية في بحر ايجه . انظر :

Angold, op. cit., P. 199 .

الانفاق على هذا الاسطول وامداده بالمؤن ، ولكن اشترطت جنوه الا يستخدم هذا الاسطول ضد البابا أوضد أصدقاء جنوه .

وتعتبر هذه المعاهدة حدثا ذا أهمية خطيرة لا بالنسبة الى النشاط التجاري للجنوية في بيزنطة فحسب وانما في تاريخ التجارة الشرقية عامة . ولقد اهتم المؤرخون المحدثون اهتماما بالغا بدراسة هذه المعاهدة والتعليق عليها . فقال ميلر Miller (٣٠) : « أن هذه المعاهدة قد نقلت ـ بضربة واحدة ـ احتكار التجارة الشرقية من أيدي البنادقة الى أيدي الجنوية ». واضاف هايد Heyd (٣١) : « أن تطبيق البنود الرئيسية لهذه المعاهدة يضمن للجنوية ، في الدردنيل والبوسفور والبحر الاسود ، تفوقا مماثلا لما تمتع به البنادقة خلال ستين عاما تقريبا في ظل اباطرة القسطنطينية اللاتين » ، ويعتقد هدسن Hodgson (٣٢) : « أن هذه المعاهدة تعتبر حلقة هامة في تاريخ التجارة الجنوية في المشرق ، وهي البداية الحقيقية لتولي جنوه مركز القيادة في القسطنطينية ، التي كانت حتى تلك اللحظة بيد البنادقة » . ويرى استروغروسكي Ostrogorsky (٣٣) : « أن هذه المعاهدة قد وضعت الاسس الصلبة لقوة الجنوية في الشرق ، كما هو الحال بالنسبة الى معاهدة عام ١٠٨٢ م ، التي كانت قد وضعت أسس قوة البندقية وتفوقها » . أما ماير Mayer (٣٤) فقد قال : « ان هذه المعاهدة كانت القاعدة الصلبة للامبراطورية الجنوية الاستيطانية في القسطنطينية والبحر الاسود » . واضاف بازلي Beazley (٣٥) : « أن تحالف جنوه مع ميخائيل في هذه المعاهدة أعطى الجنوية قيادة تجارة البحر الاسود لمدة قرنين من الزمن ، وعوضت ، في الوقت ذاته ، عن جميع الخسائر التي لحقت بها نتيجة تدمير مملكة بيت المقدس عام ١٢٩١ م . ولقد علق كارانيس Charanis (٣٦) على هذه المعاهدة بقوله : « وعلى

(30) Miller, The Latins in The levant, P. 118 .
(31) Heyd, op. cit., 1, P. 430 .
(32) Hodgson. Venice, P. 35 .
(33) Ostrogorsky, op. cit., P. 399 .
(34) Mayer , op. cit., ; P. 196 .
(35) Beazley, op. cit., 11, P. 426 .
(36) Charanis, ' Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire ' ; P. 422 .

اية حال لقد كان الامر بالنسبة الى بيزنطة هو استبدال مستغل بمستغل آخر ، فلقد ترسخت أقدام الايطاليين في القسطنطينية ، سواء أكانوا جنوية أم بنادقة ، وسيطروا على اقتصاد القسطنطينية وحددوا الاسعار اليومية لضروريات المدينة » .

وكانت البندقية أول من أدرك أنها هي ومصالحها التجارية والاستيطانية ومستقبلها في الشرق البيزنطي هو الهدف الاساسي للتحالف الذي تم بين ميخائيل الثامن وجمهورية جنوه في معاهدة عام ١٢٦١ م . وفي الوقت ذاته كانت البندقية على دراية كاملة أن ميخائيل عازم على استرداد القسطنطينية من اللاتين . والدليل على ذلك أن البندقية قد عينت رئيسا جديدا لمستوطنتها في القسطنطينية بعد توقيع المعاهدة بين ميخائيل والجنوية مباشرة (١٢٦١ م) (٣٧) . وجلب البودستا الجديدة معه سفنا بندقية . وانتهز اللاتين في القسطنطينية وصول هذه السفن واتجهوا مع البودستا البندقي الجديد لاحتلال أحد الموانىء على ساحل البحر الاسود . ولكن هذه الحملة جردت القسطنطينية من القوات . وفي ذلك الوقت كانت قوة صغيرة من قوات نيقيه ، تحت قيادة سترا ثيكوبولس ، تقوم بعمليات استطلاع حول القسطنطينية فوجدت أن المدينة بدون قوة دفاعية . فقامت باحتلالها ، دون مقاومة تذكر ، بعد ذبح الحرس اللاتيني ، وذلك في يوم ٢٥ يوليو عام ١٢٦١ م (٣٨) .

وانطلقت قوات نيقية البيزنطية في شوارع القسطنطينية ، ودمرت أحياء اللاتين فيها . ونجا الامبراطور اللاتيني والبطريرك البندقي بأرواحهما على ظهر مركب أقلهما الى الغرب . وثار الشعب البيزنطي في القسطنطينية ضد البنادقة ، وحل في معظمهم القتل والاسر . ورغم محاولة التجار البنادقة الدفاع عن بيوتهم ومستودعاتهم وأرصفتهم في القرن الذهبي ، الا أن البيزنطيين قاموا بأحراق الشوارع والاحياء التي يعيش فيها البنادقة ... وعاد الاسطول البندقي من البحر الاسود مخفقا ، ورأى رجاله اللهب يتصاعد من القسطنطينية ، وادركوا الكارثة على حقيقتها عندما شاهدوا بعض أبناء جلدتهم متجمهرين على الشاطىء يتضرعون اليهم لانقاذهم ،

(37) Hodgson , op. cit., P. 13 .
(38) Gregorae, 1, PP. 97 — 99 , Tafur, op. cit., P. 122 , vryonis, op. cit., P. 166 ; Brown, Venice, P. 144 .

وتمكن الاسطول من انقاذ عدد من هؤلاء ، واتجه بهم الى البندقية ، تاركا ميخائيل الثامن سيدا وامبراطورا على القسطنطينية (٣٩) .

حقيقة ان الجنوية لم يشتركوا في عملية استرداد القسطنطينية كما اكد ذلك المؤرخ البيزنطي جريجوري : وذلك لان الحكومة الجنوية قد صادقت على معاهدة عام ١٢٦١ م قبل أيام قلائل من دخول ستراتيكوبولس العاصمة البيزنطية (٤٠) . الا أنه كان من حسن حظ هؤلاء الجنوية أنهم تحالفوا مع الحكومة البيزنطية الموجودة في نيقية ، ولم يرهنوا انفسهم ، كما فعل البنادقة ، لدعم أسرة أجنبية وكنيسة أجنبية ، أو بتعبير آخر فقد أدرك الجنوية أن قيام امبراطور لاتيني في القسطنطينية وتربع كاهن كاثوليكي على عرش الكنيسة الارثوذكسية فيها ، هو بمثابة نبتة لاتينية غربية في أرض يونانية شرقية ، وانه لن يكتب لها البقاء طويلا . فبالرغم من الحرمان الكنسي الذي أصدرته البابوية ضد الجنوية لتحالفهم مع ميخائيل الثامن ، فان هذا الحرمان لم يؤثر على المصالح التجارية للجنوية ومستقبلهم في بيزنطة في حين ان تحالف البندقية مع البابوية قد الحق أبلغ الاضرار واخطرها في النشاط التجاري لرجال القديس مرقص ومستقبلهم في الامبراطورية البيزنطية .

(39) Gregorae, 1, PP. 98 — 100 ; Tafur, P. 122 . Baynes and moss, 36 ; ostrogorsky , P. 400 ; Vasiliev , 11, P. 537 .

(40) Gregorae, 1, P. 97 .

الفصل الثالث

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في بيزنطة ١٢٦١ – ١٤٠٠م

باسترداد البيزنطيين للقسطنطينة عام ١٢٦١ م (١) ، بدأ فصل جديد في تاريخ النشاط التجاري للمدن الايطالية في الامبراطورية البيزنطية . فاعتقد الجنوية أن هذا الاسترداد انتصار اقتصادي وسياسي لهم ، وبداية مستقبل جديد لتجارتهم لا في بيزنطة فحسب وانما في حوض البحر المتوسط أيضا . في حين وجد البنادقة في هذه الاحداث كارثة اقتصادية وسياسية كبرى ، وبداية فصل كئيب في تايخهم التجاري في عالم البحر المتوسط . ولهذا كان النشاط التجاري للمدن الايطالية في بيزنطة بعد عام ١٢٦١ م ، وحتى أواخرالقرن الرابع عشر مفعما بروح التنافس والحقد . حتى أصبح من غير السهل تمييز التجارة عن الحروب والقرصنة ، وكانت بيزنطة الضحية الرئيسية في ذلك كله .

ومنذ أن اعتلى ميخائيل الثامن العرش في القسطنطينية (١٢٦١ – ١٢٨٢ م) ، أخذ الجنوية يتدفقون على الامبراطورية ويتمتعون بالامتيازات التجارية والاقليمية التي منحت لهم في معاهدة عام ١٢٦١ م . ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بينهم وبين ميخائيل نتيجة اشتراك البودستا الجنوي في القسطنطينية بمؤامرة لاسقاط الامبراطورية البيزنطية واعادة الامبراطورية اللاتينية ، وذلك بتحريض من عملاء مانفرد صاحب صقلية (٢) . وبالرغم من أن البودستا لم ينكر تورطه بهذه المؤامرة ، الا أنها كانت – كما يعتقد هايد – تصرفا شخصيا لا علم لحكومته بها (٣) .

(١) ان الامبراطورية البيزنطية التي استعادها ميخائيل الثامن عام ١٢٦١ م اشتملت على الزاوية الشمالية الغربيةلآسيا لصغرى والجزء الاعظم من تراقيا ومقدونيا وسالونيكا وعددا من جزر الجزء الشمالي من بحر ايجه ، ولهذا فان الدردنيل والبوسفور ، اللذين يحتلان أهمية تجارية كانا ضمن الامبراطورية التي استردها ميخائيل . انظر :

Vasiliev, op. cit., 11, P. 580 .

(2) Runciman, the sicilian vespers, P. 84 .

(3) Heyd, op. cit., 1, P. 431 .

وعلى اثر اكتشاف الامبراطور لهذه المؤامرة (١٢٦٣ م) طرد الجنوية من القسطنطينية الى مدينة هيراقليه (٤) . التي تقع على بحر مرمره . وبالرغم من أن الحكومة الجنوية قد أبعدت البودستا وطلبت من الامبراطور تطبيق معاهدة عام ١٢٦١ م ، التي تضمن للجنوية حق الاقامة القسطنطينية في ظل البودستا (٥) . غير أنه ظل متشددا في موقفه فهو لم يكتف بطرد الجنوية فحسب وانما فتح باب المفاوضات مع البندقية (١٢٦٥ م) لتوقيع معاهدة سلام معها ، واعادة امتيازاتها في القسطنطينية (٦) . وقد الحقت هذه الاحداث أبلغ الاضرار بالتجارة الجنوية في بيزنطة ، فالطرد من القسطنطينية كان صدمة عنيفة للجالية الجنوية ، وبنود معاهدة عام ١٢٦٥م مع البندقية قد انتقصت – بشكل ما – كما سنرى – من قيمة امتيازات الجنوية في الامبراطورية البيزنطية (٧) .

الا أن الاضطراب في العلاقات بين جنوه وميخائيل الثامن لم يستمر طويلا (٨) فعندما أخذت البندقية تماطل في توقيع معاهدة ١٢٦٥ م استأنف ميخائيل علاقته بجنوه (١٢٦٧ م) ، وأمر بنقل الجنوية من هيراقلية الى غلطا (٩) . وخشية أن تشكل غلطا (١٠) خطرا على القسطنطينية أمر الامبراطور بتدمير كل التحصينات والاسوار الموجودة في منطقة غلطا (١١) .

---

(٤) يعتقد استروغروسكي أن طرد الجنوية من القسطنطينية هو نتيجة هزيمة الاسطولين الجنوي والبيزنطي أمام البنادقة عام ١٢٦٣ م ، وادراك ميخائيل بأن تكاليف التحالف مع الجنوية لا تتناسب مع الفوائد المتوخاه منه لهذا طرد الجنوية . انظر :

Ostrogorsky, op. cit., P. 404 .

(5) Heyd, 1, PP. 431 — 32 ; Runciman, The Sicilian vespers, P. 84 .

(6) Vasiliev, op. cit., 11, P. 591 .

(7) Laiou, constantinople and the latins , P. 69 .

(8) Idem, ' merino sanudo ' , P. 375 .

(9) Vasiliev, 11, P. 593 ; ostrogorsk, P. 404 .

(١٠) تقع غلطا في الجانب المقابل للقسطنطينية عبر القرن الذهبي وعرفت باسم بيرة أيضا ، ويقول بنيامين أن حي اليهود في القسطنطينية كان في هذه المنطقة . انظر : بنيامين، الرحلة ، ص ٨٢ .

(11) Laiou , constantinople and the latins. P. 149 .

ويلاحظ أن متاعب ميخائيل الثامن الخارجية ، وبصفة خاصة مشاريع شارل أنجو ملك صقلية لاسقاط الامبراطورية البيزنطية واعادة الامبراطورية اللاتينية الى القسطنطينية (١٢) ، كانت تضطر ميخائيل للحفاظ على صداقته لجنوه . وكانت جنوه تدرك ، في الوقت ذاته ، أن سقوط ميخائيل يعني سقوط امتيازاتها التجارية ومستقبلها في بيزنطة والبحر الاسود معا . وهذا يفسر لنا رفض جنوه التحالف مع شارل آنجو ضد ميخائيل (١٣) ، بل أنها أبلغت ميخائيل بخطط شارل ومشاريعه التي يعدها ضد بيزنطة (١٤) .

وفي عام ١٢٧٥ م وقعت جنوه معاهدة تجارية مع بيزنطة . اشتملت على منح الجنوية الحق في تصدير الذهب والفضة والقمح من الامبراطورية، ولكن شريطة ان تباع هذه المواد في مدينة جنوه ذاتها وليس في أي اقليم آخر هو في حالة عداء مع بيزنطة (١٥) ولعل أهم حدث في تاريخ التجارة الجنوية في بيزنطة ، هو منح الامبراطور ميخائيل الثامن في العام نفسه (١٢٧٥ م) مناجم الشب (١٦) الموجودة في فوكيا Phokaia (١٧) بآسيا الصغرى، لاثنين

---

(١٢) لقد انتزع شارل آنجو شقيق ملك فرنسا لويس التاسع ، مملكة صقلية من مانفرد بدعم من البابوية ، ووقع معاهدة فيتربو علم ١٢٦٧ مع الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني للقيام بحملة ضد بيزنطة . انظر :

Vryonis, op. cit., PP. 166 — 67 .

(13) Runciman , the sicilian vespers, P. 194 .

(14) Laiou, constantinople and the latin, P. 69 .

(15) Ibid, P. 150 ; Heyd, 1, PP. 437 :

(١٦) لقد استخدمت الصناعات النسيجية في الغرب الاوربي الشب بشكل واسع في العصور الوسطى ، وذلك لتثبيت ألوان المنسوجات والصباغة ، وتعتبر احجار الشب ، كما يقول لوبز مفتاح الصناعات المعاصرة . انظر :

Cahen ; l'alun. P. 433 ; lopez , 'Market Expansion' , P. 450.

(١٧) ان فوكيا او فوسيه : Phokaia او Phocée او Phocaea او كما يسميها الايطاليون فوكليا او فرجيا Foglia Fogia تقع شمال خليج مدينة ازمير وتحيط بها الجبال التي تحتوي العديد من الاندفاعات البركانية واحجار الشب والتي كان اليونانيون قد ابتدأوا في استخراجها . انظر :

Vasiliev, 11, P. 593 . Hussey , PP. 69 — 70 .

من التجار الجنوية من عائلة زكريا ، هما مانويل وبينديتو زكريا (١٨) ولقد جمع مانويل زكريا ثروة طائلة من هذا المعدن . الا أن أحجار الشب المستخرجة من شواطىء البحر الاسود كانت قادرة على منافسة انتاج فوكيا. ولهذا تمكن ما نويل زكريا من أن يحصل من الامبراطور على حظر يحرم على سواه من الجنوية استيراد حجر الشب من البحر الاسود (١٩) . وبذلك انشغل آل زكريا بمصالحهم دون مصلحة جمهورية جنوه .

وكان أبرز ما حققته الجنوية في بيزنطة في عهد ميخائيل الثامن هو امتداد نفوذهم التجاري والاستيطاني من بيزنطة الى البحر الاسود . ويعتبر نشاطهم في هذا البحر فصلا هاما في تاريخهم التجاري في بيزنطة . اذ أن الجنوية قد احتكروا تجارة البحر الاسود ، بموجب معاهدة عام ١٢٦١م(٢٠). بينما كانت هذه التجارة وقفا على البنادقة على عهد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وقد اسس الجنوية في كافا (٢١) مستوطنة تجارية لهم(٢٢) منذ عام ١٢٦٦ م (٢٣) . وأقاموا أخرى في طانا في العام نفسه

(18) Cahen ; l'alun , P. 441 ; laiou, constantinople P. 69 .

(19) Heyd, 1, PP. 438 .

(٢٠) نصت معاهدة عام ١٢٦١ م – كما رأينا – أنه لا يسمح لاية سفينة بالتوجه الى البحر الاسود الا للسفن الجنوية ولسفن حلفائهم البيازنة . انظر :

Laiou , constantinople and the latins , P. 69 .

(٢١) كافا ميناء هام يقع على الشاطىء الشمالي للبحر الاسود . ويقول بيبرس المنصوري أن كافا « مدينة للفرنج الجنوية بين اسطنبول وبين القرم » . ويقول ابن بطوطة : « وصلنا الى مدينة الكفا وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى واكثرهم جنوية ... ورأينا في مرساها نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري .. » . انظر بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، مخطوط ، ورقة ٢٠٤ أ ، ابن بطوطة . ص ٣٢٢ .

(٢٢) يتفق بيبرس المنصوري والرحالة طافور أن مدينة كافا تتبع مغول القبجاق وأن الجنوية يدفعون أتاوة سنوية الى الخان مقابل استيطانهم في هذه المدينة : انظر : بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ورقة ٢٠٤ أ ، ايضا :

Tafur , op. cit., P. 132 .

(23) Power, ' The opening of the land routes to cathay ' , P. 142

(١٢٦٦ م) (٢٤) ، وثالثة في مدينة طرابزون البيزنطية قبل نهاية القرن الثالث عشر (٢٥) .

ولقد استمرت التجارة الجنوية في ازدهارها وتفوقها في بيزنطة والبحر الاسود على عهد الامبراطور اندرنيق الثاني (١٢٨٢ – ١٣٢٨ م) ، واحتفظ الجنوية بجميع الامتيازات التي منحت لهم من قبل والده . ففي عام ١٢٨٢ م وعام ١٢٨٣ م كتب اندرنيق الى البودستا والقومون والشعب في جنوه يخبرهم باعتلائه العرش وبأنه سيستمر في حماية المكانة المتميزة التي يتمتع بها الجنوية في الامبراطورية وبأن القومون والتجار الجنوية سيجدون كل الترحيب في الامبراطورية (٢٦) .

وفي عام ١٣٠٤ م أصدر الامبراطور مرسوما جدد فيه الامتيازات الجنوية في غلطا والاعفاءات الجمركية للتجار الجنوية ، وما عدا الرسوم المفروضة على الملح والمصطكي (٢٧) ، وسمح فيه للجنوية بتصدير القمح وغيره من المنتجات الزراعية من بيزنطة والبحر الاسود دون رسوم جمركية. ومنح فيه الجنوية الحق في استيراد الشب من شواطىء البحر الاسود التي لا تخضع لبيزنطة (٢٨) . كما وعد الامبراطور بمعاقبة القراصنة اللاتين واليونانيين الذين يهاجمون الجنوية . وفي المرسوم نفسه تعهد الامبراطور بحماية الجنوية وممتلكاتهم في حالة تحطم سفنهم أو غرقها قرب السواحل البيزنطية (٢٩) .

(٢٤) طانا ميناء يقع على مصب نهر الدون . وقد سمح مغول القبجاق للجنوية بتأسيس مستوطنة حتى ان الحكومة الجنوية استحدثت عام ١٣١٣ م ، دائرة تعرف بدائرة القرم للاشراف على النشاط التجاري للجنوية في كافا وطانا . انظر :

Ibid., PP. 142 — 43

(٢٥) تعتبر طرابزون الميناء الرئيسي للبحر الاسود ، ومحطة لتجارة الغرب . واقام الجنوية فيها مستوطنة يديرها قنصل جنوي . انظر تفصيل ذلك :

Beazley, 11, P. 476 .

(26) Laiou, constantinople and the latin , P. 149 .

(٢٧) يقول مانديل أن المصطكي يستخرج من اشجار تعرف بهذا الاسم وهو صمغ يمضغ، ومنها جاءت كلمة مستكاوي وهو المعجون الذي يستخدم كطلاء واق أو كمادة لحشو الثقوب في الجدران المجصصة : Mandeville, P. 16 .

(٢٨) ان هذا البند من المعاهدة يلغي احتكار آل زكريا لتجارة الشب في البحر الاسود الذي بدأ عام ١٢٧٥م ، كما بينا سابقا ، انظر ما سبق ، ص ٩٤ .

(29) Laiou, Constantinople. , P. 149 .

ووقع الامبراطور اندرنيق الثاني معاهدة مع الجنوية عام ١٣٠٨ م
تركزت في معالجة مسألة المواطنة في المستوطنة الجنوية في غلطا . وحددت
المعاهدة أنه لا يحق منح صفة المواطنة الا للبودستا الجنوي والمجلس الاعلى
للجنوية في غلطا ، لان هذه الصفة كانت تعفي من يحملهـا من الرسوم
والضرائب التي يتوجب دفعها للدولة البيزنطية . كما تضمنت المعاهدة
أن اندرنيق قد طلب من الجنوية عدم نقل الاخشاب والحديد والرقيق من
الامبراطورية الى مصر ، واذا فعلوا ذلك فيجب أن يدفعوا الضرائب والرسوم
الجمركية (٣٠) ، ولا يدري مدى التزام الجنوية في هذا الامر .

وفي عام ١٣١٧م تم تجديد معاهدة ١٣٠٨ بين الجنوية واندرنيق
الثاني . واكد الطرفان فيها ضرورة حصر حق منح صفة المواطنة في غلطا
بيد البودستا ومجلس المستوطنة . وذلك لان الحكومة البيزنطية اكتشفت
أن عددا كبيرا من الاشخاص يحملون صفة المواطنة الجنوية ويتاجرون في
الامبراطورية البيزنطية كجنوية وهم في حقيقة امرهم ليسوا بجنوية . كما
اشارت المعاهدة بأنه لا يحق للجنوية اقامة أبنية خارج المناطق المحددة
لهم وتحت طائلة العقوبة . واكدت المعاهدة انه لا يجوز للجنوية بيع الملح
في القسطنطينية وغلطا أو أي جزء من الامبراطورية (٣١) . ويبدو أن الهدف
من ذلك هو رغبة الامبراطور في استمرار احتكار الدولة البيزنطية لتجارة
الملح لانه مورد رئيسي للخزينة الامبراطورية .

وساءت العلاقات بين الجنوية وبيزنطة ما بين عام ١٣٤٨ - ١٣٤٩م ،
وذلك لان الامبراطور البيزنطي حنا كنتاكوزينوس Kantakouzenos
(١٣٤٧ - ١٣٥٤م) لم يكن ليرضى بأن يذهب ٨٧٪ من المكوس الجمركية
في البوسفور الى ايدي الجنوية (٣٢) . ولهذا قام ، من أجل وضع حد
لتفوقهم ونفوذهم التجاري ، بتخفيض التعريفة الجمركية في ميناء
القسطنطينية على عدد كبير من المتاجر الواردة . فأخذت السفن التجارية
تقصد ميناء القسطنطينية البيزنطي وتتجنب ميناء غلطا الجنوي (٣٣) . الامر
الذي أدى الى ضائقة شديدة المت بالتجارة الجنوية . وقد تمكن الجنوية من

---

(30) Ibid , PP. 183 — 85 .
(31) Ibid. PP. 262 — 63 .
(32) Gregorae , op. cit., 11, PP. 840 — 42 .
(33) Kantakauouzenos, historia, in C.S.H.B. , 111, PP. 68 — 69

الحاق هزيمة قاسية بالبيزنطيين وتدمير أسطولهم البحري في مارس ١٣٤٩م .
ونتيجة لذلك أبرم الامبراطور معاهدة سلام مع الجنوية وجدد لهم
امتيازاتهم ، وتخلى عن محاولته رفع النير الجنوي الذي يمسك بكاهل
الامبراطورية واقتصادها (٣٤) .

الا أن التوتر قد استمر بين جنوة وحنا كنتاكوزينوس ، ولم ينقض
عام ١٣٤٩ م ، حتى اتخذ الامبراطور خطوتين خطيرتين للغاية على تجارة
جنوة وتفوقها في بيزنطة : أولهما استرداده لفوكيا من آل زكريا
الجنوية (٣٥) ، وثانيهما توقيع معاهدة سلام مع البندقية في العام نفسه
(١٣٤٩ م) (٣٦) . ولكن لم يكن من مصلحة الجنوية قبول هذه السياسة ،
ولهذا مدوا يد العون الى حنا الخامس باليولوغوس (١٣٥٤ - ١٣٩١م)
الذي خلع كنتاكوزينوس واعتلى العرش البيزنطي (٣٧) .

واستمرت تجارة جنوة في بيزنطة في حالة ازدهار ونشاط كبيرين حتى
أواخر القرن الرابع عشر . واتسعت مستوطناتها في القسطنطينية وبقية المدن
الامبراطورية . ويمكننا القول ان السيادة التجارية للجنوية في بيزنطة قد
بدأت منذ عام ١٢٦١م ، بل - كما ذهب ميلر الى القول - أنه منذ هذا
العام (١٢٦١م) يؤرخ نمو جنوة وتطورها كقوة شرقية وأصبحت بالتالي
علاملا هاما في المسألة الشرقية في العصور الوسطى (٣٨) .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري لجمهورية البندقية في بيزنطة بعد
عام ١٢٦١م ، فمن المعروف أن البندقية كانت قد لعبت دورا رئيسيا في
الحملة الصليبية الرابعة . بقصد احتكار تجارة بيزنطة والبحر الاسود .
والحصول على السيادة التجارية في حوض البحر المتوسط . واذا كانت
البندقية قد حققت هذه الاهداف على عهد الامبراطورية اللاتينية في

---

(34) Ibid., PP. 68 — 70 ; Gregorae, 11, P. 841 ; 841 ; 851
(35) Kantakouzenos , 111, PP. 81 — 84 ; Gregorae, 11, PP. 765 — 67 .
(36) Nicol, the byzantine family, P. 71 .
(37) Vasiliev, op. cit., 11, P. 585 .
(38) Miller , the latins in the levant , P. 118.

القسطنطينية (١٢٠٤ – ١٢٦١م) ، فان سقوط هذه الامبراطورية قد جعل البندقية عرضة للطرد نهائيا من كل ممتلكاتها ، وبدا أن تجار القديس مرقص سيوف يتم اقصاؤهم عن تجارة بيزنطة والبحر الاسود (٣٩) .

وبالرغم من أن ميخائيل الثامن لم يكن مستعدا لتفضيل حلفائه الجنوية على غيرهم من الشعوب الاخرى ، وعمل على اقامة علاقات طيبة مع كل اللاتين الذين كانوا لا يزالون في القسطنطينية ، ومنح جاليات البندقية وبيزا وجنوة ، في القسطنطينية ، حرية المتاجرة والاستيطان واعفاهم من الضرائب والرسوم المتعلقة بالتجارة والاقامة(٤٠) . فلم يكن بامكان البنادقة ترويض أنفسهم على سقوط الامبراطورية اللاتينية ، وعلى قبول خسارة احتكارهم للتجارة البيزنطية ، وعلى استئثار منافسيهم الجنوية بوضع متميز في أرض كان الايطاليون فيها جميعا تحت رحمتهم (٤١) .

لقد كان ميخائيل الثامن يتوقع هجوما من الغرب اللاتيني ضد بيزنطة(٤٢) . ولهذا رغب في أن يستأنف البنادقة نشاطهم التجاري في الامبراطورية ، فعرض على القومون البندقي مشروع معاهدة . واستجاب الدوج زينو Zeno للعرض البيزنطي ، وأرسل سفارة الى القسطنطينية في مارس ١٢٦٥م . وانطوى مشروع المعاهدة على موافقة الامبراطور على أن يترك للبنادقة حرية البقاء في كل من مودون وكورن وكريت والقسم الذي يملكونه في نيقروبونت وجزر الارخبيل اليوناني . كما وافق الامبراطور على أن يكون للبنادقة في القسطنطينية وبقية مدن الامبراطورية حرية استثمار مشاريعهم التجارية وتنظيمها . وأن تكون ادارتها بيد موظفين معينين من قبل حكومة البندقية . كما تعهد الامبراطور بابعاد الجنوية من القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية بالتعاون مع قوات البندقية . ووعدت البندقية

(39) Beazley , op. cit., 111, P. 463 ; lane , A maritime . P. 78 .
(40) Heyd, op. cit., 1, P. 430 .
(41) Laiou, ' Marino sanudo ' , P. 375 .

(٤٢) عن علاقات ميخائيل الثامن بالغرب الاوربي . انظر :
Geanakoplos, Michael palaeologus, PP. 81 — 91 , 161—68, 182 — 85 ; 206 —209 , 300 — 304 .

مقابل ذلك بألا تقدم أية مساعدة لشارل آنجو في أي مشروع يقوم به ضد بيزنطة (٤٣) .

وكان أن ما طلت البندقية في التوقيع على مشروع المعاهدة السابقة، لانها كانت تبني الآمال على المشاريع الاوربية الرامية الى استعادة الحكم اللاتيني في القسطنطينية . وبعد ثلاث سنوات (١٢٦٨ م) تم توقيع المعاهدة، الا أنها اشتملت على بنود كثيرة لم يتم الاتفاق عليها في مشروع معاهدة ١٢٦٥م . فلقد تخلى الامبراطور عن التزامه بطرد الجنوية من بيزنطة ، كما أن الطرفين اتفقا على أن البندقية يجب أن تعاقب قراصنة البنادقة الذين يلحقون الاذى في بيزنطة . كما تعهد البنادقة أيضا بألا يهاجموا الجنوية داخل الدردنيل أو البحر الاسود (٤٤) .

وفي مارس عام ١٢٧٧م ، تم تجديد معاهدة ١٢٦٨م ، بين ميخائيل الثامن والبندقية . وفيها وعد ميخائيل البنادقة بأن يمنحهم أماكن للاقامة وممارسة أعمالهم التجارية في كل من مدينتي القسطنطينية وسالونيكا . ففي القسطنطينية منحهم مقرا لاقامة المشرف البندقي على شؤون القضاء في المستوطنة البندقية فيها ، ومقرا في سالونيكا لاقامة القنصل البندقي . كما وعد ميخائيل بأن يمنح البنادقة أماكن أخرى لسكن كبار موظفي البندقية في المدينتين المذكورتين ، فضلا على مستودعات لاقامة التجار البنادقة ، شريطة أن تكون هذه الاماكن كلها مؤجرة لحساب الامبراطور الخاص . كما تنازل ميخائيل للبنادقة عن كنيستي مريم والقديس مرقص في القسطنطينية ، وعن الكنيسة القديمة للارمن في سالونيكا . واضافة الى هذه الامتيازات كلها فقد سمح الامبراطور للبنادقة بنقل الحبوب القادمة اليهم من البحر الاسود عبر الارض البيزنطية دون دفع رسوم جمركية . كما نصت المعاهدة على تعهد الامبراطوار بأن يدفع تعويضات للبنادقة عما يلحق بهم من أذى على يد القراصنة البيزنطيين . وبالمقابل يجب أن يدفع البنادقة تعويضات للامبراطور عما يلحقه القراصنة البنادقة

(٤٣) انظر نص مشروع معاهدة ١٢٦٥م بين البندقية وميخائيل الثامن في :
Tafel and Thomas, op. cit., 111, PP. 62 — 89 .
(44) Ibid., PP. 92 — 101 .

من اضرار بالبيزنطيين (٤٥) .

وبالرغم من الامتيازات التجارية التي منحها ميخائيل الثامن للبنادقة الا أنهم لم يتخلوا عن احلامهم في استعادة امتيازاتهم القديمة في بيزنطة وسيادتهم على التجارة البيزنطية والممتلكات التي كانت في حوزتهم في ظل الامبراطورية اللاتينية . ولهذا نجد حكومة البندقية تصدر مرسوما عام ١٢٨٠ م تأمر فيه بايقاف ملاحتها في المياه البيزنطية (٤٦) وفي العام التالي (٣ يوليو ١٢٨١م) توقع معاهدة أورفيتو Orveto (٤٧) مع شارل آنجو بهدف غزو القسطنطينية واسقاط آل باليوغوس واسترداد الامبراطورية اللاتينية وبالتالي استرداد سيادتها التجارية في الشرق البيزنطي (٤٨) . ولكن ميخائيل الثامن تمكن من تدمير مشاريع شارل آنجو وحلفائه وانقذ بيزنطة من خطر داهم ، وذلك عن طريق تفجير المذابح الصقلية – بالتعاون مع ملك آراغونة – في ٢٩ مارس ١٢٨٢ م (٤٩) . وبذلك فقد تحطمت احلام البندقية وألحق تحالفها مع شارل أبلغ الاضرار وأفدحها بتجارتها ومستوطناتها المتناثرة في الامبراطورية البيزنطية (٥٠) .

ورغم أن النشاط التجاري للبنادقة في بيزنطة ، خلال عهد ميخائيل الثامن (١٢٦١ – ١٢٨٢م) ، كان نشاطا ضئيلا وأن أعداد البنادقة في

---

(٤٥) صدر تجديد معاهدة عام ١٢٦٨م بشكل مرسوم اصدره الامبراطور ميخائيل الثامن في ١٩ مارس ١٢٧٧م . انظر النص الكامل لهذا المرسوم في :
Tafal and Thomas, op. cit., 111, PP. 133 — 50 .
(46) Laiou, Constantinople. , P. 236 .

(٤٧) انظر نص معاهدة اورفيتو في :
Tafel and Thomas op. cit., 111, docs. 373 — 374 ; PP. 287

(٤٨) انظر تفصيل ذلك في :
Runciman , the sicilian vespers, P. 194.
Geanakoplos, Michal , PP. 194 — 99 .

(٤٩) ان أفضل من كتب عن المذابح الصقلية ودور بيزنطة واراغونة في أحداثها وأسبابها ونتائجها ودور المدن الايطالية فيها هو رنسيمان . انظر :
Runciman , the sicilian vespers , PP. 210 — 212 . 219 — 224 .
(50) Beazley , op. cit., ; 111, P. 464 .

بيزنطة قد تضاءلت بالنسبة الى اعداد الجنوية ، وأصبح الجنوية هم القوة التجارية التي سيطرت على التجارة البيزنطية خلال هذه الفترة ، الا أن النشاط التجاري للبنادقة في الامبراطورية لم يتوقف بشكل كلي ، وانما استمر التجار البنادقة يترددون الى المدن والموانىء البيزنطية. والدليل على ذلك الوثائق التي نشرها تافل وتوماس ، المتعلقة بالشكاوي التي بعث بها دوج البندقية في ديسمبر من العام ١٢٧٥م الى الامبراطور ميخائيل الثامن ، والمتضمنة قوائم بما الحقه القراصنة ، والموظفون البيزنطيون بالتجار البنادقة من أضرار في مدن وموانىء بيزنطة . وتدل هذه الوثائق على ان تجارة البندقية في بيزنطة كانت لا تزال مستمرة (٥١) .

وعلى أية حال فعندما اعتلى اندرنيق الثاني العرش البيزنطي (١٢٨٢ – ١٣٢٨م) كان النشاط التجاري للبندقية في بيزنطة يعاني ضعفا شديدا وأزمة خطيرة وهذا يرجع الى استمرار البندقية في سياستها المعادية لميخائيل الثامن وتحالفها مع أعدائه ، لاحياء الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . ويعود أيضا الى التفوق الجنوي في بيزنطة ، والى التنافس والصراع بين الجنوية والبنادقة في الاراضي البيزنطية ومياهها . ويضاف الى ذلك عدم توفر الأمن والحماية للتجار البنادقة في بيزنطة ، حتى أن الحكومة البندقية أصدرت في عام ١٢٨٢م وعام ١٢٨٣م وعام ١٢٨٤م وعام ١٢٨٥ م سلسلة من القرارات تمنع بموجبها رعاياها من المتاجرة مع الامبراطورية البيزنطية (٥٢) .

واخيرا ادركت البندقية التدهور الذي ألم بتجارتها في بيزنطة والبحر الاسود . كما أدركت أن شارل آنجو لن يكون مفيدا لها ، وأن مشاريعه ضد بيزنطة لن يكتب لها النجاح . لهذا نقضت المعاهدة الموقعة معه وأخذت تتقرب الى بيزنطة (٥٣) . فبعث الدوج حنا داندولو John Dandolo وفدا الى بيزنطة برئاسة انجلو مارسيلو وماركو جينو عام ١٢٨٥ م (٥٤) . ونجح الوفد في توقيع معاهدة صداقة مع الامبراطور اندرنيق الثاني في ١٥

---

(51) Tafea and Thomas , op. cit., , 111, PP. 159 — 61 , 219 .
(52) Laiou , Constantinople., P. 61 .
(53) Vasiliev, op. cit., 11, P. 599 .
(54) Tafel and Thomas , 111, P. 322 .

يونيو ١٢٨٥ م مدتها عشر سنوات (٥٥) ، وكانت أهم البنود المتعلقة بالشؤون التجارية التي انطوت عليها المعاهدة هي : السماح للبنادقة بشراء القمح من البحر الاسود ونقله عبر الاراضي والمياه البيزنطية دون دفع رسوم جمركية . أما سفن البندقية التي تحمل متاجرا لغير البنادقة فلا بد أن تخبر السلطات البيزنطية لتقدير الضرائب والرسوم الجمركية اللازمة . كما اتفق على الا يقوم البنادقة والجنوية بالاعمال العدائية في المياه البيزنطية المتدة من آبيروس (في الدردنيل) الى البحر الاسود . وأكدت المعاهدة أن مسؤولية الامبراطور تقتضي أن يجبر المعتدي على دفع التعويضات . كما تعهد الامبراطور البيزنطي بألا يسمح لاية قوة مسلحة أن تلحق الضرر بالبنادقة في مدن وموانىء الامبراطورية وبالمقابل تعهدت البندقية بألا تهاجم بيزنطة والا تتحالف مع احد ضدها وألا تؤجر سفنا لاعدائها (٥٦) .

الا أن هذه المعاهدة لم ترأب الصدع في العلاقات التجارية بين البندقية وبيزنطة . ولم يستأنف التجار البنادقة نشاطهم بشكل ملموس في الامبراطورية . وفيما بين ١٢٩٦ ـ ١٢٩٩م كانت البندقية في حالة حرب ضد بيزنطة وجنوة معا ، وذلك أن عددا من الجنوية قد قتلوا البودستا البندقي في القسطنطينية وعددا آخر من البنادقة . ويبدو أن الحكومة البيزنطية لم يكن لها علاقة بهذا الحادث ، غير أن البندقية حملتها المسؤولية ورفضت تجديد معاهدة ١٢٨٥م معها قبل أن تتسلم التعويضات من الحكومة البيزنطية . كما قامت أساطيل البندقية بمهاجمة الجزر البيزنطية والممتلكات الجنوية في بحر ايجه والبحر الاسود ما بين ١٢٩٦ـ١٢٩٩ م (٥٧) .

وفي عام ١٣٠٤م أصدر السناتو البندقي قرارا يمنع فيه أية سفينة بندقية من السفر بمفردها الى بيزنطة ، وانما يجب أن يتم السفر بشكل قوافل . وفي عام ١٣٠٦م بعثت البندقية الى القسطنطينية تطالبها بالتعويضات التي الحقها روجردي فلور Roger de Flor والجماعة

---

(55) Ibid., PP. 322 — 53 .

(56) Ibid. , PP. 329 , 330 — 31 ; 335 — 36 ; 341 — 42 ; 346—47

(57) Laiou, constantinople and the latins, PP. 106 — 107 .

القطالونية (٥٨) بالبنادقة في الامبراطورية البيزنطية (٥٩) . وربما تفسر لنا هذه الصعوبات التي كانت تواجهها تجارة البندقية في بيزنطة ، عجز البندقية عن مقاومة اغراء العودة الى روح الحملة الصليبية الرابعة ، والعمل على استعادة سيادتها التجارية في بيزنطة ، وبالتالي تحالفها مع شارل صاحب فالوس (٦٠) Charles of Valios عام ١٣٠٦م لاسقاط آل باليولوغوس واحياء الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (٦١) .

الا أن خوف البنادقة المتصاعد على مصالحهم وممتلكاتهم في بيزنطة ، نتيجة تفوق نفوذ الجنوية في الامبراطورية والبحر الاسود من جهة ونمو البحرية الاسبتارية في رودس من جهة ثانية ، وفشل تحالفاتها مع شارل آنجو ومن ثم مع شارل فالوس من جهة ثالثة ، وادراكها أن روحا صليبية جديدة ضد بيزنطة أمر لا يمكن توقعه في المستقبل القريب من جهة رابعة (٦٢) . كل ذلك جعل السناتو البندقي يعلن عام ١٣٠٩ م ، عن استعداده لقبول أية تسوية مع الامبراطور البيزنطي اندرنيق الثاني . واستجاب الامبراطور لذلك وتم توقيع معاهدة سلام بين البندقية وبيزنطة عام ١٣١٠ م ، مدتها عشر سنوات (٦٣) . وأكدت هذه المعاهدة ألا يسمح للبنادقة بشراء القمح البيزنطي أو تصديره خارج الامبراطورية (٦٤) .

---

(٥٨) كان الامبراطور اندرنيق الثاني قد طلب المساعدة من روجردي فلور واتباعه من المرتزقة القطالونيين . وذلك لكبح تقدم الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى . ووصل القطالونيون الى القسطنطينية عام ١٣٠٢م . نظر تفاصيل ذلك في :

Vasiliev, 11, PP. 606 — 607 , Hodgson , PP. 266 — 67 .

(59) Laiou, constantinople, P. 235 .

(٦٠) شارل فالوس هو شقيق ملك فرنسا فيليب الرابع . وتزوج شارل عام ١٣٠١م من حفيدة آخر امبراطور لاتيني للقسطنطينية ، بلدوين الثاني ، وبذلك زعم أنه اكتسب حقا في عرش بيزنطة . ولكن انفرط تحالفه مع البندقية وفشل مشروعه باسترداد القسطنطينية . انظر :

Ostrogorsky , PP. 441 — 42 ; Heyd, 1, PP. 445 — 46 .

(61) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' , P. 44 .

(62) Laiou, ' Marino sanudo ' , P. 376 .

(63) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' , P. 47 .

(64) Laiou, constantinople. PP. 237 — 38 .

وفي عام ١٣١٩ م جددت البندقية المعاهدة السابقة (١٣١٠م) مع بيزنطة ، وما يهمنا فيها هو **تعهد البنادقة** بألا يبيعوا القمح لرعايا الامبراطور الا بموافقة منه ، وعلى البيزنطيين الذين يشترون القمح من البنادقة دفع ضرائب ورسوم لخزينة الدولة ، وذلك لان ثمن قمح البحر الاسود كان ، في القرن الرابع عشر ، يقل عن ثمن القمح البيزنطي (٦٥) وهذا يدل على رغبة الامبراطور في حماية الانتاج البيزنطي .

وقد قامت البندقية في عام ١٣٢٤ م بخطوتين للتقرب من بيزنطة ، وبالتالي خلق الظروف الملائمة لتجارتها في الامبراطورية والبحر الاسود . ففي هذا العام أبلغت حكومة البندقية الامبراطور ، اندرنيق الثاني بأنه ليس هناك اهتمام لدى الامراء الغربيين في هذه الفترة بمهاجمة القسطنطينية (٦٦) . كما أنها وقعت معاهدة معه في العام نفسه (١٣٢٤ م) ، مدتها خمس سنوات (٦٧) ، وهي في حقيقتها تجديد لبنود معاهدة ١٢٨٥ م (٦٨) .

ويبدو أن النشاط التجاري للبنادقة في بيزنطة قد استعاد بعض حياته في عهد أندرنيق الثالث (١٣٢٨ — ١٣٤١ م) . اذ أن الطرفين كانا مهتمين بالحد من نفوذ الجنوية وتفوقهم في بيزنطة والبحر المتوسط من جهة ، وفي وضع حد لغارات الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى من جهة ثانية (٦٩) . ولهذا تحالف البنادقة مع اندرنيق الثالث عام ١٣٣٢ م لصد الاتراك العثمانيين (٧٠) . وبعد سبع سنوات من هذا التاريخ (١٣٣٩ م) جددت البندقية معاهداتها التجارية مع بيزنطة (٧١) . الا أن تقدم الزحف العثماني قد أفقد الكثير من هذه الامتيازات قيمتها ، ولكنها كانت سندا شرعيا لمواجهة غرور الجنوية وأطماعهم ،خاصة وأن الجنوية والبنادقة كانوا

(65) Ibid., P. 238 .
(66) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' P. 47 .
(67) Laiou, ' Marino sanudo ' , P. 379 .
(68) Tafel and Thomas , 111, doc. 378, PP. 222 — 26 .
(69) Laiou, Marino ; P. 384 .
(70) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' , P. 51 .
(71) Brown , venice, P. 195 .

في حالة صراع وتنافس مستمرين للسيطرة على التجارة الشرقية .

وحدث تقارب بين الامبراطور البيزنطي حنا كنتاكوزينوس والبندقية ففي عام ١٣٤٩ م جدد الامبراطور امتيازات البندقية في الامبراطورية (٧٢) وبعد عامين (١٣٥١ م) وقع الامبراطور نفسه معاهدة تحالف مع البنادقة ضد الجنوية في غلطا (٧٣) . حيث تعهد فيها ان يعامل الجنوية كاعداء وأن يرحب بالبنادقة في كل أنحاء الامبراطورية . واتفق الطرفان على أنه اذا تم احتلال غلطا فانه يجب أن تدمر بشكل كامل ، وان توزع الغنائم والاسلاب فيها بين البنادقة والبيزنطيين (٧٤) . ولكن هذا التحالف البندقي -البيزنطي، قد فشل في تحقيق أهدافه ، نتيجة الهزيمة البحرية التي الحقتها القوات البحرية الجنوية بالاسطولين البندقي والبيزنطي معا في فبراير من عام ١٣٥٢ م (٧٥) . وأدى ذلك الى الحاق أبلغ الاضرار بالنشاط التجاري للبنادقة ومستوطناتهم في بيزنطة من جهة والى تعاظم نفوذ الجنوية وهيمنتهم على التجارة البيزنطية من جهة ثانية .

واستمر النشاط التجاري للبنادقة في بيزنطة يعاني الضعف والتدهور حتى أواخر القرن الرابع عشر ، وكانت صورته مغايرة تماما لما كان عليه النشاط التجاري للجنوية في الامبراطورية . وبالتالي يعتبر نشاط البندقية التجاري في بيزنطة والبحر الاسود ، بعد عام ١٢٦١ م وحتى أواخر القرن الرابع عشر ، فصلا كئيبا في تاريخها التجاري كله .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري للبيازنة في بيزنطة ، بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية (١٢٦١ م) ، فقد استمر بصورة أفضل مما كان عليه في ظل الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . وذلك لان معاهدة عام ١٢٦١ م ، التي وقعتها جنوه مع ميخائيل الثامن ، قد ضمنت البيازنة حرية المتاجرة واقامة المستوطنات في البحر الاسود . وهذا دليل على

(72) Kantakuzenos, 111, P. 118 ; nicol. Byzantine Family ,P. 71.
(73) Kantakouzenos, 111, PP. 185 — 91 .
(74) Ibed., PP. 187 — 90 .
(75) Ibid. , PP. 193 — 200 , 218 — 19 ; Gregorae, 111, PP. 84 — 92 , 106 — 108 .

العلاقات الودية التي ربطت ميخائيل الثامن بالبيازنة — وقتذاك ، من جهة، وعلى استمرار النشاط التجاري لمدينة بيزا وبقاء جاليتها في القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية من جهة أخرى .

ولكن على الرغم من استمرار النشاط التجاري للبيازنة في الامبراطورية البيزنطية والبحر الاسود ، غير أن حجم هذا النشاط كان يتضاءل يوما بعد يوم . وذلك نتيجة ضعف جمهورية بيزا وتدهورها فاحتلال شارل آنجو لمدينة بيزا وتدمير مينائها على ١٢٦٨ م قد الحق بالنشاط التجاري للبيازنة أبلغ الاضرار وأفدحها (٧٦) . كما ان هزيمة البيازنة أمام الجنوية عام ١٢٨٤ م قد أدت الى دمار ميناء بيزا من جهة وهيمنة الجنوية على البحر التيراني من جهة اخرى (٧٧) . وكانت هذه الاحداث ضربات قاسية بالنسبة الى البيازنة ونشاطهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بعامة وبيزنطة بخاصة . فانحطاط المدينة الام وتدهورها انعكس على نشاط جالياتها التجارية المنتشرة في المدن البيزنطية . كما أن هيمنة الجنوية — كما رأينا — على التجارة البيزنطية منذ عام ١٢٦١ م ، جعلت النشاط التجاري للبيازنة في بيزنطة ضئيلا ، وادت الى ضعف الجالية البيزاوية في القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية . وبذلك يمكن القول أن بيزا خرجت — خلال القرن الرابع عشر — من دائرة المدن الايطالية الرئيسية التي تتاجر مع بيزنطة ، وأصبحت القوى الايطالية التجارية في الامبراطورية البيزنطية متمثلة في الجنوية والبنادقة (٧٨) .

وفي ظل المعاهدات التجارية الآنفة الذكر ، بين بيزنطة من جهة وبين كل من البندقية وجنوة ، قام تجار هاتين المدينتين بحركة تصدير واستيراد واسعة في الامبراطورية البيزنطية . وذلك انهم نقلوا السلع والبضائع البيزنطية من جهة ومتاجر الشرق الاقصى التي تتدفق الى الاسواق

(76) Runciman , the Sicilian Vespers , PP. 100 , 105 , 120 .

(77) Laiou , constantinople and the latins, PP. 69 — 70 ; Argenti, op. cit., P. 31 .

(78) Beazley , op. cit., 11, P. 432, Baker , op. cit., P. 8 ; Argenti, op. cit., PP. 31 — 32 .

البيزنطية والمستوطنات الايطالية في المدن والموانيء البيزنطية من جهة ثانية كما قام التجار الايطاليون باستيراد العديد من سلع وبضائع الغرب الاوربي ، وبلدان عالم البحر المتوسط ، الى الامبراطورية البيزنطية واسواقها . وكانت أهم المتاجر التي نقلها التجار الايطاليون ، وبصفة خاصة الجنوية والبنادقة ، من بيزنطة هي :

القمح : لا حظنا — من خلال المعاهدات التجارية التي وقعت بين الامبراطورية والبنادقة والجنوية — أن الاباطرة البيزنطيين كانوا يمارسون نوعا من الاحتكار بالنسبة الى تجارة القمح ، حيث ساهمت الدولة البيزنطية في تحديد ثمنه والشروط التي يسمح بموجبها بيعه للايطاليين . وكان الموظفون البيزنطيون — كما يعتقد Laiou يشرفون على عملية بيع هذه السلعة للايطاليين (٧٩)، ولقد بين Hodgson أن نشاط التجار لم يقتصر على نقل القمح الذي تنتجه أراضي بيزنطة والبحر الاسود فحسب وانما نقلوا القمح البلغاري عبر الممتلكات البيزنطية (٨٠) .

الشب : استخدم الشب في الصناعات النسيجية في الغرب الاوروبي لتثبيت الالوان ، وصباغة الحرير والاصواف ودباغة الجلود . وقد اشرنا فيما سبق الى استثمار آل زكريا لمناجم الشب البيزنطية في فوكيا منذ عام ١٢٧٥ م كما بينا ايضا أن الحكومة البيزنطية سمحت للجنوية بنقل الشب من شواطيء البحر الاسود الى الغرب الاوروبي (٨١) .

الحرير والصناعات الحريرية : لقد كانت الامبراطورية البيزنطية هي المصدر الرئيسي للصناعات الحريرية الى الغرب الاوروبي منذ القرن السادس الميلادي حتى أواخر القرن الثاني عشر، وذلك لانه — منذ ذلك الوقت — اخذت الصناعات الحريرية في صقلية تنافس الحرير البيزنطي في الاسواق الاوربية (٨٢) . ولكن استمرت السيادة في هذه السلعة للصناعة البيزنطية. حتى ذهب أحد الكتاب المحدثين الى القول أن السبب الاساسي الذي جعل

(79) Laiou, constantinople, P. 73 .

(80) Hodgson, op. cit., P. 38 .

(81) Cahen, op. cit., P. 433 , Rabie, the Financial System, P. 83.

(82) Boulonis, the silk road, PP. 201 — 202 .

البنادقة يحولون الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية هو وجـود صناعة الحرير في القسطنطينية والاقاليم البيزنطيـة الاخـرى (٨٣) . ولهذا فقد كانت الصناعات الحريرية البيزنطية مـن المواد الرئيسية التي قـام التجار البنادقة والجنوية بنقلها الى الغرب الاوربي .

كما صدّر التجار الايطاليون متاجر الشرق الاقصى التي تدفقت الى الموانىء والاسواق البيزنطية ، فضلا عن أسواق المستوطنات الايطالية وفي مقدمة هذه المتاجر تأتي التوابل بأنواعها المختلفة ، مثل الفلفل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والكافور ، وكانت تصل الى الاسواق البيزنطية من الهند وجزيرة جاوة بصفة خاصة (٨٤) . وكان التجار الايطاليون يقومون بنقل هذه التوابل الى الغرب الاوربي . وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر اتجهت اعداد من التجار الايطاليين الى الهند واخذت تنقل التوابل الى الغرب الاوربي عبر بيزنطة (٨٥) .

وكذلك فقد نقل الايطاليون من الاسواق البيزنطية العديد من متاجر الشرق الاقصى ، مثل اللؤلؤ والياقوت والماس ، التي تصل من سـيلان والهند ، والسجاجيد القادمة من تبريز وسمرقند وبخـارى ، والنباتات الطبية القادمة من جاوه ، والحرير والخزف والخيوط الذهبية القادمة من الصين (٨٦) .

كما نقل التجـار الايطاليون مـن بيزنطة الرقيـق . حيث كـانت القسطنطينية سوقا رئيسيا للمتاجرة بهذه « السلعة » . وقد شحن هؤلاء التجار رقيقا من جنسيات متعددة مثل : الـروس والتتـار والارمـن والهنغار والبلغار والشراكسة (٨٧) ، وذلك الى الغرب الاوربي وايطاليـا ومصر (٨٨) . وكان في مدينة البندقية سوقا خاصا لبيع الرقيق ، وقد أقام

---

(83) Ibid., P. 206 .

(84) Mandeville, op. cit., PP. 16 ; 112 — 14 ; Odoric, op. cit., PP. 330 — 35 , 341

(85) Odoric, op. cit., PP. 328 , 330 , 344 .

(86) Ibid. , PP. 339 ; 347 ; mandeville , PP. 105 — 106 .

(87) Tafur , PP. 133 — 34 , Origo , op. cit., PP. 323, 328 — 29

(88) Origo , op. cit., P. 326 .

كبار تجار الرقيق وكلاء لهم في مدينةا لبندقية ، كما كانت هناك اسواق اخرى للرفيق في مدينة جنوه وبيزا وانكونا (٨٩) .

ونقل التجار الايطاليون من الاسواق البيزنطية العديد من المتاجـر القادمة مـن مناطق البحر الاسود وروسيا ، مثل الفراء بأنواعه المختلفة ، الذي كان يتدفق الى الاسواق البيزنطيـة من روسـيا ، وكانت مدينـة سالونيكا البيزنطية سوقا رئيسيا لبيـع الفـراء (٩٠) . وكذلـك الجلـود السيبيرية ، فضلا عن الكفيار والاسماك التي تدفقت الى الاسواق البيزنطية من ضفاف نهر الدون (٩١) .

وكان أن قام التجار الايطاليون باستيراد العديد من السلع والمتاجر الى الامبراطورية البيزنطية مثل : الزيت من ايطاليا ، والنبيذ والخمـور عامة من اليونان (٩٢) ونابولي (٩٣) ، والكتان من مصر (٩٤) ، والاسماك المملحة من منطقة القرم (٩٥) ، والمعادن المصنعة والخام والاقمشة الكتانية من المانيا وايطاليا ، والكتان والعسل والسمك والمنتجات الزراعية من بلغاريا (٩٦) ، والاقمشة الحريرية والصوفية من ايطاليا ، والاقمشة والمنسوجات مـن الفلاندر (٩٧) .

الا أن النشاط التجاري للمدن الايطالية بعامة ، والبندقية وجنـوه بخاصة ، في الامبراطورية البيزنطية ، منذ عام ١٢٦١ م ، وحتى أواخـر القرن الرابع عشر ، قد تأثر بكثير من المعوقات فالتنافس بين البندقية وجنوه ،

---

(89) Ibid. , PP. 328 — 29 , 337 .

(90) Rubruquis, P. 272 ; heyd , P. 224 .

(91) Rubruquis , PP. 263 , 265 — 66 , 275 , 292 .

(92) Baker, op. cit., P. 18 .

(93) Ludolph von suchem , P. 6 .

(94) Baker , op. cit., , P. 18 .

(95) Rubruquis, op. cit., P. 263 .

(96) Guerdan, op. cit., P. 100 .

(97) Tafur, P. 127 ; Baker, P. 4.

للسيطرة على التجارة الشرقية ، كان وبالا على نشاطهما التجاري في الامبراطورية البيزنطية . واتخذ هذا التنافس اشكالا عديدة فالحرب التي اندلعت بين البندقية وجنوه ، ما بين عامي ١٢٩٣ – ١٢٩٩ م (٩٨) ، في المياه البيزنطية ، قد الحقت ابلغ الاضرار وافدحها بالنشاط التجاري للبنادقة والجنوية ومستوطناتهم في الامبراطورية البيزنطية (٩٩) . فأثناء هذه الحرب وصل اسطول بندقي (١٢٩٦ م) الى القرن الذهبي ، تحت قيادة مورسيني ، بغية مهاجمة المستوطنة الجنوية في غلطا ، وغادر الجنوية مستوطنتهم والتجأوا الى داخل القسطنطينية بموافقة الامبراطور البيزنطي اندرنيق الثاني . وقام رجال الاسطول بنهب بيوت الجنوية في غلطا واحراقها . وبعد أن غادر الاسطول القرن الذهبي قام الجنوية بمهاجمة المستوطنة البندقية في القسطنطينية ، واعملوا السلب والنهب والتدمير فيها ، وذبحوا كل المستوطنين البنادقة » واعتقلوا البايلو البندقي في القسطنطينية (١٠٠) . وبعد نصف قرن تقريبا انفجر النزاع ثانية بين البندقية وجنوه في البوسفور (١٣٥٢م) نتيجة تنافس الطرفين للسيطرة على تجارة البحر الاسود ، والحق هذا النزاع بنشاطهما التجاري في بيزنطة والبحر الاسود أضرارا بالغة (١٠١) . وقبل نهاية القرن الرابع عشر اندلعت اعنف حرب بين البندقية وجنوه في بيزنطة (١٣٧٧ – ١٣٨١ م) وذلك نتيجة رغبة كل منهما امتلاك جزيرة تينيدوس البيزنطية (١٠٢) . وامتدت هذه الحرب الى اجزاء أخرى من الامبراطورية البيزنطية ، والحقت أفدح الاضرار في النشاط التجاري للبنادقة والجنوية ومستوطناتهم في القسطنطينية وبقية

---

(٩٨) انتهت هذه الحرب بمعاهدة سلام وقعها البنادقة والجنوية في ميلان بتاريخ ٢٥ مايو عام ١٢٩٩م . انظر :
Tafel and Thomas , 111, P. 391 .

(99) Gregorae, 1, PP. 207 — 8 ; Argenti , PP. 31 — 32 ; Ostrogorsky , PP. 436 — 37 .

(100) Argenti , op. cit., P. 32 ; laiou , Constantinople P. 106 .

(101) Ostrogorsky, PP. 471 — 72 ; Vasiliev ; 11, P. 627 .

(١٠٢) كانت جزيرة تينيدوس احدى الجزر القليلة التي لا تزال بأيدي الاباطرة البيزنطيين وهي تقع عند مدخل الدردنيل وتعتبر خير مرفأ لرسو السفن . واطلق على هذه الحرب اسم حرب جزيرة تنيدوس . انظر : Tafur, PP. 113 — 14 .

المدن البيزنطية (١٠٣) .

وكان انتهاك المعاهدات التجارية ، التي تم توقيعها بين المدن الايطالية والامبراطورية البيزنطية ، عاملا من العوامل التي أعاقت النشاط التجاري لهذه المدن في الامبراطورية البيزنطية . فالامبراطور البيزنطي لم يكن بقادر دائما على ضبط نشاطات موظفيه في الامبراطورية ، الذين كانوا يمارسون كل أشكال الابتزاز على التجار الايطاليين ، ويجبرونهم أحيانا على دفع رسوم جمركية ، ويمنعون السفن التجارية الايطالية من دخول البحر الاسود ما لم يدفع أصحابها رشاوى للموظفين البيزنطيين (١٠٤) .

ولقد ابتليت ملاحة المدن الايطالية وتجارتها في المياه البيزنطية بوباء القرصنة منذ عام ١٢٦١ (١٠٥) . اذ تحولت العديد من الجزر البيزنطية الى ملاجيء للقراصنة بدلا من كونها محطات تجارية . والحقت القرصنة أضرارا بالغة بالنشاط التجاري لكل الاطراف التي ساهمت فيها ، فاذا كان البنادقة هم الضحايا الرئيسية للقرصنة فان الجنوية والبيازنة والبيزنطيين لم يكونوا بمنجاة دائما من أضرارها (١٠٦) .

وفي مستهل القرن الرابع عشر أخذ الاتراك العثمانيون يهددون تجارة المدن الايطالية في الامبراطورية البيزنطية . فالاهمية التجارية لظهور العثمانيين في آسيا الصغرى هي أنهم احتلوا المنطقة التي تقع بين طريقين رئيسيين يتجهان من الاراضي البيزنطية الى الشرق الاقصى وهما : طريق

---

(١٠٣) انتهت هذه الحرب بجعل جزيرة تينيدوس حيادية وذلك في معاهدة السلام التي وقعت في تورين بتاريخ ١٨ أغسطس ١٣٨١م . انظر تفصيل ذلك :
Tafur, P. 114 , Hodgson , PP. 512 — 13 ; Mcneill, PP. 68 — 73 .

(104) Tafel and Thomas , 111, P. 159 .

(١٠٥) قال المؤرخ جريجوري ان انتشار القرصنة في المياه البيزنطية كان نتيجة تدهور البحرية البيزنطية ، حيث وجد بحارة بيزنطة وملاحوها أنفسهم عاطلين عن العمل ، فانضموا الى سفن القراصنة وأخذوا يهاجمون الممتلكات الايطالية في بيزنطة :
Gregorae, op. cit., PP. 175 — 76

(106) Tafel and Thomas , 111, P. 219 ; Charanis, The piracy ; PP. 127 — 30 , 134 — 35 .

طرابزون تبريز ومن ثم الهند والصين ، والثاني طريق اياس تبريز ومن ثم الهند والصين (١٠٧) . ومنذ عام ١٣١٨ م بدأت الوثائق البندقيـة الرسمية تتحدث عن غارات القراصنة الاتراك العثمانيين ضد الملاحـة البندقيـة في المياه البيزنطية وضد الممتلكات البندقية في بحر ايجه (١٠٨) . وفي عام ١٣٥٦م هيمن الاتراك العثمانيون على جانبي الدردنيل وأخـذوا يفرضـون اتاوات سنوية على التجار البنادقة والجنوية (١٠٩) .

وكانت الاوبئة من العوامل الرئيسية التي أعاقت النشاط التجـاري للمدن الايطالية في الامبراطورية البيزنطية . وأبرز مثال على ذلك ما أطلـق عليه المؤرخون المحدثون اسم « الموت الاســود » Black death والـذي انتشر عام ١٣٤٨ م (١١٠) . ويعتبر هذا الوباء من أخطر الاوبئة التي اجتاحت العالم في العصور الوسطى (١١١) . وعانت المستوطنات التجارية الايطالية في بيزنطة والبحر الاسود معا نقصا كبيرا في سكانها وبالتـالي في نشاطهـا التجاري ، نتيجة انتشار هذا الوباء (١١٢) .

ويعتبر اضطراب النشاط التجاري للمدن الايطالية في البحر الاسود من العوامل الرئيسية التـي أعاقت النشاط التجاري لهـذه المـدن في

(107) Lybyer, The ottoman turks and the routes of oriental trade, PP. 578 — 79 .

(108) Laiou , Marino , P. 379 .

(109) Lybyer, op. cit., P. 580 .

(١١٠) ساد الاعتقاد أن الوباء جاء من مدينة كافا الجنوية في البحر الاسود ، ومن المحتمل أنه نقل عن طريق سفينة جنوية . وطبقا لرواية أخرى أن الوباء قد جلب من الصين في رزم الحرير من قبل تجار جنوية عائدين الى كافا . وهناك رواية ثالثة أن الوباء انتشر بين التتار الذين كانوا يحاصرون كافا وقام هؤلاء التتار بقذف الجثث الملوثة بالجراثيـم مـن خارج الاسوار الى داخل مدينة كافا وسرعان ما انتشر الوباء ورفع الحصار . وبعد قليل ظهـر الوباء في ايطاليا عن طريق سفينة جنوية قادمة من كافا . انظر :

Origo, P. 324 ; Power , P. 143 .

(١١١) قال ابن دقماق : « أنه عم الخلق من مؤمن وكافر من ساير البلاد خصوصا بلاد الفرنج وأخلي أكثر البلاد وعدمت ساير الصنايع » . ابن دقماق الجوهر الثمين ، مخطوط ورقـة ٨٥٨ - ١٥٩ .

(112) Brown , venice, PP. 195 — 97 ; Boulonis, P. 209 ; Baker, P. 18 .

الامبراطورية البيزنطية . فالنزاع بين المغول والتجار الجنوية في كافا عـام ١٣٠٧ م (١١٣) ، وبالتالي احراق الجنوية لهذه المستوطنة الهامة كان كارثة اقتصادية كبرى على نشاطهم التجاري في البحر الاسود وبيزنطة كما أن طرد المغول للجنوية والبنادقة من مدينة كافا عام١٣٤٣م، كان ضربة قاسية ألمت بنشاطهم التجاري في البحر الاسود والامبراطورية البيزنطية على السواء (١١٤) واضافة الى ذلك فان اضطراب طرق الشرق الاقصى ، التي تصل شواطىء البحر الاسود وبيزنطة بأرض الحرير والتوابل قد الحق بالنشاط التجاري للايطاليين أبلغ الاضرار . وذلك أن سقوط الدولة المغولية (دولة ايلخانات المغول) عام ١٣٦٨م وعودة الصين الى التقوقع على ذاتها من جديد تحت قيادة أسرة صينية (١١٥) ، أدى الى انعدام الامن والحماية في طرق الشرق الاقصى ، وبالتالي الى تضاءل الاتصال التجاري بـين الشـرق الاقصـى والغرب الاوربي . وقد انعكس ذلك كله على نشاط الايطاليين في بيزنطة ، وبالتالي أخذ التجار الايطاليـون يبحثون عن طـرق جديدة للوصول الـى أرض الحرير والتوابـل .

ولئن كان النشاط التجاري للجنوية في بيزنطة ، بعد عام ١٢٦١م ، وحتى أواخر القرن الرابع عشر ، فصلا مشرقا في تاريخهـم التجـاري ، ولئن كان النشاط التجاري للبنادقة ، في تلك الحقبة قد عانى التدهـور والانحطاط ، فلقد كانت بيزنطة واقتصادها ومستقبلها الضحية الرئيسية لهذا كله . فثروات بيزنطة ومواردها انتقلت الى جيوب التجار الايطاليين ومخازنهم ، وأصبح عرش الامبراطورية وأباطرتها ألعوبة بأيدي رجال المال من هؤلاء الايطاليين ... بينما كان الشعب البيزنطي يعاني المذلة وهو يرى كيف يبذل للايطاليين ذهب بلاده ونساءها مقابل الحصول على حبات القمح التي يقتات بها ، كما قال ذلك بطريرك القسطنطينية أثاناسيوس (١١٦) .

(١١٣) انظر تفصيل النزاع بين مغول القبجاق والجنوية في كافا في : بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، مخطوط ، ورقة ٢٥٨ أ .

(114) Obolensky, Byzantium and the slaves , P. 249 : Power , op. cit., P. 143 .

(115) Boulonis, the silk road , P. 209 .

(116) Charanis ' Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire, ' P. 422 .

الفصل الرابع

أحوال المستوطنات التجارية الايطالية في القسطنطينية ١٢٠٤ – ١٤٠٠

لقد تركزت التجارة الخارجية للامبراطورية البيزنطية ، خلال معظم تاريخها في مدينة القسطنطينية بالذات أكثر من أية مدينة بيزنطية أخرى ، وكان التجار الاجانب الذين يتوافدون اليها يستأجرون بيوتا أقامها البيزنطيون خصيصا لهم في ضواحي العاصمة في البداية ، وبعد ذلك داخل أسوارها(١) ، وكانت اقامتهم محددة بمدة ثلاثة أشهر فقط ، يتعرض من لم يغادر المدينة بعدها لعقوبات صارمة(٢) .

ويرتبط التاريخ الحقيقي للمستوطنات التجارية الايطالية في الامبراطورية البيزنطية ارتباطا وثيقا بالمراسيم التي أصدرها الاباطرة البيزنطيون ، منذ أواخر القرن الحادي عشر . وعلى الرغم من أن المدن الايطالية كانت قد أقامت مستوطنات تجارية لها في معظم المدن البيزنطية الرئيسية مثل : سالونيكا ، وادريانوبل ، وفيلادلفيا ، وسميرنا (أزمير) وفيلوبولس ، وهيراقلية ، ورودوستو ، وآبيدوس ، وغيرها(٣) . غير أن المستوطنات الرئيسية للمدن الايطالية (البندقية ، بيزا ، وجنوة) في الامبراطورية البيزنطية قد تركزت في مدينة القسطنطينية . أما بالنسبة الى مستوطنة البنادقة في القسطنطينية فقد تأسست بموجب المرسوم الذي أصدره الامبراطور الكسيوس الاول كومنين عام ١٠٨٢م . وقد نص على (التنازل للبنادقة عن حي في القسطنطينية على طول الشاطىء الجنوبي للقرن

---

(١) انظر التنظيمات والقوانين التي ضبطت نشاطات التجار الاجانب في القسطنطينية ومدن الامبراطورية الاخرى في كتاب الوالي :

The Book of the Prefect, P. 60 .

(2) Slessarev, Ecclesiae, PP. 180 — 81 , Hodgett, P. 50 , Guerdan , PP. 90 — 92 .

(3) Heyd, 1, PP. 243 — 47 .

الذهبي(٤) . الذي يمتد من رصيف اليهود غربا حتى بوابة الحارس شرقا ، ويضم ثلاثة أرصفة لرسو السفن (٥) .

ومن الصعوبة بمكان تبيان حدود المستوطنة البندقية في القسطنطينية ومميزاتها الطبوغرافية بدقة ، وذلك لان هذا المرسوم وما تلاه من مراسيم امبراطورية لا تساعدنا في حل هذه المسألة ، غير أن الدراسات الحديثة التي قام بها براون Brown وبراند Brand توصلت الى تقدير طول المستوطنة البندقية في القسطنطينية بحوالي $\frac{١}{٣}$ ميل ، وعرضها حوالي $\frac{١}{١٠}$ ميل ، وعلى طول الشريط المستطيل الذي تشغله المستوطنة تمتد أسوار المدينة تاركة حوالي (٨٠) ياردة بين البحر والسور (٦) .

وكان أن ازدحمت المستوطنة البندقية في القسطنطينية نتيجة تدفق البنادقة عليها منذ تأسيسها ، والدليل على ذلك أن الامبراطور مانويل كومنين قد منح البنادقة حق توسيع مستوطنتهم في مرسوم عام ١١٤٨ م (٧) . الا أن عمليات الاعتقال والمصادرة التي ألمت بالبنادقة في القسطنطينية عام ١١٧١ م ، أدت الى ضعف المستوطنة ونقص عددسكانها . ولم نسمع عن أي تغيير في حدود هذه المستوطنة أو مساحتها حتى سقوط القسطنطينية بيد اللاتين عام ١٢٠٤ م . والسبب في ذلك ضعف العلاقات التجارية بين بيزنطة والبندقية في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر ، فضلا عن التوتر الذي اتسمت به العلاقات بين البيزنطيين والبنادقة خلال تلك الفترة (٨) .

---

(٤) كانت الاحياء الايطالية في القسطنطينية (البندقية والبيزاوية والجنوية) متراصة بجانب بعضها البعض على طول الشاطىء ولكن كان للبيزنطيين داخل هذه الاحياء أماكن كثيرة ومنازل وأديرة كما أن اعدادا من البيزنطيين كانوا يسكنون في الاحياء الايطالية بصفة مستأجرين ، عن ذلك انظر :

Heyd. , 1, P. 255 .

(5) Anna comnene , the alexiad, PP. 146 — 47 .

(6) Brown, the venetian Quarter, P. 75 , Brand, op. cit., P. 205

(7) Heyd, 1, P. 200 ; Beazley, 11, PP. 411 — 12 .

(8) Kinnamos, PP. 280 — 86 ; Nicetas, PP. 220 — 26 .

وأثناء الحكم اللاتيني للقسطنطينية (١٢٠٤ – ١٢٦١م) ، استمرت مستوطنة البندقية في موقعها بما في ذلك الارصفة والمستودعات والاسواق والكنائس والبيوت السكنية ، فضلا على الطاحونة والفرن والحمام ، التي كانت تشملها في ايام آل كومنين (٩) . ولكن من المؤكد ان حدود هذه المستوطنة قد اتسعت اتساعا مذهلا في ظل الحكم اللاتيني للقسطنطينية ، وذلك لان معاهدة تقسيم « رومانيا » أي بيزنطة ، بين البنادقة والصليبيين عام ١٢٠٤ م ، منحت البندقية $\frac{٥}{٨}$ القسطنطينية ولهذا فقد اتسعت مستوطنة البندقية في القسطنطينية بعد الاحتلال اللاتيني لها عام ١٢٠٤ م (١٠) .

ومن الطبيعي أن مساحة مستوطنة البندقية في القسطنطينية قد تقلصت بعد استرداد البيزنطيين لعاصمتهم عام ١٢٦١م . وعلى الرغم من أنها استمرت تحتل مكانها القديم على الشاطىء الجنوبي للقرن الذهبي ، الا أن التوسع في القصر الامبراطوري ، الذي كان يحاذي المستوطنة ، من جهة ، والتحصينات الاضافية التي أقيمت بعد احياء الامبراطورية من جهة ثانية ، قد أدى الى انكماش حدود مستوطنة البندقية ومساحتها (١١) ، وفضلا عن ذلك فقد حرمت من عدد من ممتلكاتها لان معاهدة عام ١٢٦١ م بين ميخائيل الثامن باليولوغوس والجنوية قد منحت الجنوية كنيسة نوتردام ، التي كانت بحوزة البنادقة في القسطنطينية ، وكذلك الاملاك المحيطة بهذه الكنيسة ، والتي تضم مقبرة وقطعة أرض قامت عليها قلعة البنادقة (١٢) .

ويلاحظ أن معاهدة عام ١٢٧٧م بين ميخائيل الثامن والبندقية أعادت الى المستوطنة البندقية في القسطنطينية بعض ممتلكاتها ، التي انتزعت

(9) Hodgson, P. 13 .
(10) Villehardouin, op. cit., PP. 136 — 37 .
(11) Brown, ' The venetian ' , P. 78 .
(12) Hodgson , P. 38 .

منها بعد عام ١٢٦١ م ، حيث منح الامبراطور بموجب هذه المعاهدة البنادقة أماكن جديدة للاقامة ، وممارسة أعمالهم التجارية في القسطنطينية ، ومقراً لاقامة المشرف البندقي على شؤون القضاء في المستوطنة ، فضلا عن كنيستي مريم والقديس مرقص في القسطنطينية ، وتضمن المعاهدة أيضا تخصيص خمسة وعشرين منزلا ، دون مقابل ، للتجار البنادقة الذين يقيمون فترة قصيرة في القسطنطينية (١٣) .

وقبل الحملة الصليبية الرابعة ، كان السفراء البنادقة في البلاط البيزنطي يقومون بادارة مستوطنة البندقية خلال اقامتهم في العاصمة البيزنطية ويعاونهم في ذلك عدد من الموظفين البنادقة الذين تم ارسالهم من قبل حكومة البندقية ، غير أن مسألة ادارة المستوطنة قد تمت معالجتها بشكل جدي بعد احتلال اللاتين القسطنطينية عام ١٢٠٤م . حيث نجد أن الدوج آنريكو داندولو Enrico Dandolo يعين موظفا لادارة المستوطنة البندقية في القسطنطينية أطلق عليه اسم البودستا Podesta ويساعده خمسة من القضاة ، وثلاثة مستشارين ، ومدير للمال وأمين الصندوق ، ومدير للأمن وقائد عام ، وكان الترتيب الذي وضعه آنريكو داندولو أن يتم ارسال البودستا من مدينة البندقية ذاتها (١٤) .

وبعد وفاة آنريكو عام ١٢٠٥ م (١٥) ، قام المستوطنون البنادقة في القسطنطينية بانتخاب مارينو زينو Marino Zeno بودستا عليهم . وقد استاءت الحكومة البندقية من هذا الاجراء الخطير ، وذلك لان البودستا لم يتم تعيينه من قبل المدينة الأم . وعلى أية حال فقد بعث القومون البندقي الى مستوطنته في القسطنطينية موافقته على انتخاب البودستا الجديد ، غير أنه حذرها من مغبة تكرار هذا الاجراء في المستقبل (١٦) .

وكان البودستا البندقي يتولى ادارة المستوطنة في القسطنطينية ويشرف على شؤونها السياسية والتجارية والمالية والقضائية (١٧) ، وكان

(13) Tafel and Thomas , 111, doc. 368 , PP. 135 F.
(14) Brown, ' The venetian quarter ' , P. 80 ; Idem, Venice, P. 133 .
(15) Villehardouin, op. cit., P. 129 .
(16) Brown, venice , P. 133 ; Laiou , constantinople P. 107 .
(17) Tafel and Thomas , 111, PP. 133 — 34 .

يعين اولا لمدة عام واحد ، ثم اصبح يعين لمدة عامين (١٨) ، ثم اصبح يعين لفترة لا تنتهي الا يوم قدوم من يحل محله من البندقية (١٩) .

ويعتبر البودستا صلة الوصل بين المستوطنين البنادقة من جهة والدولة الأم من جهة ثانية ، والدولة البيزنطية من جهة ثالثة ، وهو المدافع والنصير الاول لبني جلدته ، وتقع عليه مسؤولية الاحتجاج ضد الظلم الذي يلحق بالرعايا البنادقة في الامبراطورية ، وضد الانتهاكات التي ترتكبها الحكومة البيزنطية بالحقوق الممنوحة للبنادقة ، وضد نقض البيزنطيين للمعاهدات الموقعة بين الطرفين . كما كان يكلف البودستا بتوقيع معاهدات او تحالفات بالنيابة عن حكومة البندقية مع دولة أجنبية . والدليل على ذلك أن البودستا البندقي في القسطنطينية . جياكومو تيبولو Giacomo tiepolo هو الذي وقع معاهدة عام ١٢١٩ م مع امبراطور نيقية ثيودور لاسكاريس (٢٠) . وهو نفسه الذي وقع معاهدة عام ١٢٢٠ م مع سلطان قونيه السجاوقي (٢١) .

الا أن مكانة البودستا البندقي في القسطنطينية قد تضاءلت بعد استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١م ، وذلك نتيجة لتقلص النفوذ السياسي والتجاري للبنادقة في الامبراطورية البيزنطية . فلم يعد يسمي رئيس مستوطنيهم في القسطنطينية بالبودستا ، وانما اتخذ عام ١٢٨٥ م (٢٢) — لقب بايلو Bailo (٢٣) ، وأصبح البايلو لا يدعى عادة الى المائدة الامبراطورية في الاعياد الدينية الكبرى ، كما هو الحال بالنسبة الى البودستا ، ورغم أن البايلو كان يذهب كل يوم أحد الى البلاط الامبراطوري ، غير أنه لم يكن يعامل على انه مسؤول ، أو رجل من الطبقة الاولى (٢٤) .

(18) Lane , A maritime, P. 99 .
(19) Heyd ; 1, P. 259 .
(20) Tafel and Thomas, 11, P. 205 .
(21) Ibid.
(22) Ibid. , 111, PP. 139 , 326 — 72 .
(23) Gregorae, op. cit., 1, P. 97 .
(24) Hodgson, op. cit., ; PP. 38 , 120 .

وعلى الرغم من أن مكانة البايلو البندقي في القسطنطينية قد تضاءلت (٢٥) ، الا أن واجباته ومسؤولياته تجاه حكومته والمستوطنين البنادقة لم تتضاءل عما كانت عليه في السابق ، بل استمر البايلو يجمع في منصبه مهمة تمثيل حكومته لدى الاباطرة البيزنطيين ، ورئيس المستوطنة في القسطنطينية ، والقنصل التجاري فيها (٢٦) . ولكن المشكلة الرئيسية التي أخذت تواجه البايلو منذ أوائل القرن الرابع عشر هي ضعف سلطة البايلو ونفوذه على المستوطنين البنادقة في القسطنطينية ، ففي عام ١٣١٧م بعث البايلو البندقي في القسطنطينية ماركو مينوتو Marco Minotto خطابا الى دوج البندقية ، يصف له فيه أحوال المستوطنات البندقية في الامبراطورية البيزنطية ، ويشتكي من تصرفات بعض التجار البنادقة الذين يظهرون عدم اهتمام بسلطته ، كما انطوى الخطاب على الصعوبات التي تواجه البايلو في حكم الحي البندقي في القسطنطينية ، والمستشارون البنادقة في في المستوطنة لا يطيعونه أحيانا ، ولا يرافقونه في زياراته الى الامبراطور ، ويرفضون الجلوس معه أيام الاثنين والاربعاء والجمعة للفصل في قضايا المستوطنين والتجار البنادقة (٢٧) .

وقد عانى النفوذ الاقتصادي للمستوطنة البندقية في القسطنطينية الفتور والضعف بعد عام ١٢٦١م ، وذلك نتيجة لتدهور النشاط التجاري البنادقة في الامبراطورية البيزنطية من جهة ، والتناقص المستمر في عدد سكان المستوطنة البندقية في القسطنطينية من جهة أخرى (٢٨) . ففي عام ١٣١٧م كتب البايلو البندقي في القسطنطينية ، الى حكومته يخطرها بالتناقص المستمر في عدد سكان المستوطنة ، وبأن عددا من التجار البنادقة اخذوا يشترون صفة المواطنة الجنوية في المستوطنة الجنوية في غلطا ، واقترح البايلو البندقي على حكومته أنه لكي يصبح البنادقة اكثر قوة

(٢٥) كانت الحكومة البندقية تستفيد من البايلو الذي تنتهي مدة خدمته في القسطنطينية في المشاركة في تحديد سياسة البندقية نحو بيزنطة ، فالوفد الذي تفاوض مع بيزنطة لتوقيع معاهدة عام ١٣٢٤م كان مؤلفا من شخصيتين كانتا قد تسلمت كل منهما في السابق منصب البايلو في القسطنطينية . انظر :

Laiou, constantinople. , P. 308 .

(26) Lane, A maritime , P. 100 .
(27) Laiou, Constantinople . , P. 271 .
(28) Heyd, op. cit., 1, P. 430 .

ومهابة في القسطنطينية يجب ان تزداد اعدادهم وتتدفق جموعهم الى مستوطنتهم في القسطنطينية (٢٩) .

أما بالنسبة الى مستوطنة بيزا في القسطنطينية ، فليس لدينا دليل على وجودها قبل المعاهدة التي وقعها الكسيوس كومنين مع حكومة بيزا عام ١١١١ م(٣٠). والتي منحت البيازنة منطقة في القسطنطينية تقع الى الشرق من مستوطنة البنادقة (على القرن الذهبي) ، وذلك لاقامة منازل وحوانيت ومستودعات ، فضلا على رصيف واحد لرسو السفن كما خصصت المعاهدة أماكن خاصة للبيازنة في كنيسة صوفيا لتأدية الصلاة ، وذلك تشجيعا من الامبراطور للبيازنة للاقامة في القسطنطينية (٣١) .

وتدفق البيازنة الى مستوطنتهم الجديدة في القسطنطينية بحيث لم تأت نهاية القرن الثاني عشر حتى اتسعت هذه المستوطنة اتساعا ملموسا، وذلك نتيجة الامتيازات التي منحها آل كومنين ، وآل انجليوس للبيازنة ، فأصبحت مستوطنتهم تضم أربعة أرصفة لرسو السفن ، وكنيستين ، ومستشفى ، ومقبرة ، وطواحين ، فضلا على المنازل والحوانيت مستوطنتهم في القسطنطينية (٣٢) .

وقد استمرت المستوطنة البيزاوية ، خلال الحكم اللاتيني في القسطنطينية . وعلى الرغم من ان البيازنة قد وقفوا في البداية ،ضد الحملة الصليبية الرابعة ، وأن نشاطهم التجاري في القسطنطينية أثناء الاحتلال اللاتيني لها ، كان أقل مما كان عليه قبيل ذلك ، فان مستوطنتهم استمرت موجودة في مكانها ، وليس لدينا ما يشير الى أي تعديل في حدودها أو مساحتها (٣٣) . ولكن من المؤكد أن الحجم التجاري لهذه المستوطنة قد

---

(29) Laiou, Constantinople. , P. 261 .

(30) Chalandon , les comnenes, 11, P. 156 .

(31) Ibid., PP. 156 — 57 .

(32) Nicetas, op. cit., PP. 259 — 60 ; Slessarev , op. cit: PP. 188 — 89 .

(33) Hodgson, , op. cit., P. 34 , n. 1

تضاءل الى حد كبير خلال القرنين الثالث والرابع عشر ، وذلك نتيجة ضعف بيزا ، وتقلص نشاطها التجاري في الامبراطورية البيزنطية ، وبالتالي تناقص اعداد البيازنة في مستوطنتهم في القسطنطينية .

وكان أن تمت ادارة المستوطنة البيزاوية في القسطنطينية من قبل موظف كبير أرسلته حكومة بيزا ، أطلق عليه اسم « الفيكونت » لادارة المستوطنة ورعاية جاليتها في العاصمة البيزنطية . وكان يساعد الفيكونت في مهمته مجلس من الشخصيات البارزة في المستوطنة .

وعلى الرغم من أن رئيس مستوطنة بيزا في القسطنطينية قد أتخذ لقب قنصل (٣٤) بدلا من الفيكونت ، في أواسط القرن الثالث عشر ، غير أن مهمته ومسؤولياته ، تجاه حكومته والرعايا البيازنة في بيزنطة ، لم تتغير ، حيث استمر القنصل في الاشراف على الشؤون المالية والقضائية والتجارية في المستوطنة ، وفي حماية المستوطنين البيازنة من اعتداءات السلطات البيزنطية ، وفي الدفاع عن المصالح التجارية والسياسية لمدينته في الامبراطورية ، وفي تسليم كل العائدات المالية التي تخص القومون الجنوي ، وفي استقبال السفراء الذين تبعث بهم حكومة بيزا الى البلاط البيزنطي (٣٥) .

وبعد نصف قرن تقريبا من قيام مستوطنة بيزا في القسطنطينية تأسست المستوطنة الجنوية ، وذلك لان الجنوية ظلوا بلا مستوطنة خاصة بهم حتى معاهدة عام ١١٥٥ م ، التي منح مانويل كومنين بموجبها الجنوية حيا خاصا بهم في القسطنطينية ، يقع الى الشرق من مستوطنة بيزا ، ويمتد حتى النقطة التي يلتقي عندها القرن الذهبي مع البوسفور . وقد ضم هذا « الحي » رصيفا واحدا لرسو السفن فضلا على العديد من المنازل والحوانيت (٣٦) .

وسرعان ما اتسعت المستوطنة الجنوية ، نتيجة تدفق الجنوية الى

---

(34) Gregorae, op. cit., 1, P. 97 .

(35) Nicetas, op. cit., PP. 712 — 13 .

(36) Fotheringham, op. cit., P. 26 ; Brand, op. cit:, PP. 209 — 210 .

القسطنطينية ، والامتيازات التي منحها آل انجليوس التجار الجنوية بحيث لم تأت الصليبية الرابعة ، حتى اتسعت هذه المستوطنة اتساعا كبيرا ، وأصبحت تضم ثلاثة أرصفة لرسو السفن ، فضلا على كنيسة وفندق ، وحمامات وقصور ، وأسواق ومستودعات (٣٧) .

وكان أن استمر الحي الجنوي في القسطنطينية في مكانه خلال سنوات الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ ــ ١٢٦١ م) على الرغم من معارضة الجنوية للحملة الصليبية الرابعة . وعلى الرغم من عدم اعترافهم بالامبراطورية التي زرعتها هذه الحملة في القسطنطينية ، فان المستوطنة الجنوية استمرت في الوجود في القسطنطينية بما تحتويه من ممتلكات ، غير أنه من المؤكد بأن الحجم التجاري لهذه المستوطنة قد تضاءل خلال هذه الفترة ، وذلك نتيجة ضعف النشاط التجاري للجنوية في القسنطينية خلال الحكم اللاتيني فيها (٣٨) .

ولكن العصر الذهبي للمستوطنة الجنوية في القسطنطينية قد بدأ باسترداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م ، وذلك لان الجنوية وضعوا ثقلهم كله الى جانب ميخائيل الثامن بمعاهدة عام ١٢٦١ م ، وكسبوا بذلك كل الشروط الضرورية ، لاقامة مستوطنة تجارية واسعة لهم في القسطنطينية . ومما ساعد على توسيع المستوطنة الجنوية في القسطنطينية وازدهارها هو امتلاكهم كنيسة نوتردام التي كانت بحوزة البنادقة ، بالاضافة الى الاملاك المحيطة بها (٣٩) .

وقد بينا أثناء دراستنا للنشاط التجاري الجنوي في بيزنطة ، أن الامبراطور ميخائيل الثامن اضطر الى نقل الجنوية من القسطنطينية الى مدينة هيراقلية عام ١٢٦٣ م ، ولكن سرعان ما ترك الجنوية المدينة الاخيرة (١٢٦٧ م) ، بموافقة الامبراطور ، الى منطقة غلطا ، على الجانب الثاني من القرن الذهبي في مواجهة القسطنطينية وأسسوا فيها مستوطنة جديدة، عرفت باسم مستوطنة غلطا أو بيرة استمرت حتى سقوط القسطنطينية

(37) Nicetas, op. cit., ; PP. 481 — 86 ; Fotheringham op. cit:, P. 28 .

(٣٨) انظر ما سبق ، ص ٦٦ ــ ٦٧ .

(٣٩) انظر ما سبق ، ص ٧٧ .

في ايدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ م (٤٠) .

وتدفق الجنوية الى مستوطنتهم الجديدة في غلطا ، بفضل الامتيازات التي منحت لهم من قبل ميخائيل الثامن وابنه أندرنيق الثاني وأدى ذلك الى توسيع مستمر في مستوطنتهم . وفي عام ١٣٠٤ م سمح الامبراطور للجنوية باحاطة غلطا بسور وخندق (٤١) . وفي المعاهدة التي وقعها حنا كنتاكوزينوس مع الجنوية عام ١٣٥٢ م ، حصل الجنوية على حق توسيع حدود مستوطنتهم في غلطا (٤٢) . ووصف الرحالة طافور هذه المستوطنة بقوله « انها حصينة التسوير ومتينة الاستحكامات » ، وأضاف بأنها « تتمتع برصيف زائع لرسو السفن » (٤٣) . كما أشار ابن بطوطة ، الذي زار غلطا أثناء رحلته ، الى أن مرساها « من أعظم المراسي » ورأى فيه « نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة » (٤٤) .

ولم تكن مستوطنة غلطا الجنوية مغلقة على نفسها ، وعلى الرغم من أن معظم سكانها من التجار الجنوية . الا أنها ضمت عناصر أخرى غير جنوية . فذكر ابن بطوطة أن جماعة من البنادقة « وأهل رومه وأهل فرنسة » قد سكنوا الى جانب الجنوية في غلطا (٤٥) . كما بين طافور أن مستوطنة غلطا قد ضمت عددا من اليونانيين والقشتالين (٤٦) . وكشف لوبز أن عددا من الارمن والتتار وشعوب أخرى قد استقروا الى جانب الجنوية في غلطا (٤٧) الا أن جميع هذه العناصر السكانية كانت تحت حكم الجنوية الذين يتولون جميع الوظائف فيها (٤٨) . وربما السبب في استقرار عناصر

(40) Brown, Venice, P. 146, Hodgson, op. cit., P., 125 ; Ostrogorsky op. cit., P. 404 ; vasiliev, op. cit., ; 11, P. 593

(41) Laiou, constantinople, P. 149 .

(42) Hodgson, op. cit., P. 407 .

(43) Tafur, op. cit., PP. 115 ; 149 .

(٤٤) ابن بطوطة ، ص ٣٥١ .

(٤٥) ابن بطوطة ، ص ٣٥١ .

(46) Tafur, op. cit., P. 115 .

(47) Lopez, ' Market expansion ; P. 447 .

(48) Tafur, op. cit., P. 149 .

غير جنوية في غلطا ، يعـود الى منح الجنوية انفسـهم صفة المواطنـة في مستوطنتهم الى أعداد كبيرة من التجار غير الجنوية ، كما أن شراء العناصر غير الجنوية للمواطنة الجنوية ، ينبع من رغبة هذه العناصر في التمتـع بالامتيازات التجارية والاعفـاءات الجمركية التي يتمتع بها الجنويـة في بيزنطة (٤٩) .

وقد تمت ادارة المستوطنـة الجنويـة في القسطنطينية حتى عـام ١٢٦١ م ، من قبل موظف جنوي كبير ، كانت ترسله جنوه ، أطلق عليه اسم الفيكونت ، ويساعده مجلس من القضاة ، وعدد من الشخصيـات الجنوية . وكان الفيكونت يستشير سكـان المستوطنة في كل مـا يتعلـق بشؤونها (٥٠) . ولكن بعد عام ١٢٦١ م ، ونتيجة لازدياد الامتيازات التجارية الجنوية في بيزنطة ، اتخذ رئيس الحى الجنوي في القسطنطينية لقـب البودستا (٥١) ، وهو اللقب الذي اتخذه الممثل البندقي في العاصمة البيزنطية ما بين عامي ١٢٠٤ ـ ١٢٦١ م .

وكان يتم تعيين البودستا من حكومة جنوه ، وكان يساعده في ادارة المستوطنة الجنوية في القسطنطينية مجلسان ، احدهما كبير ، والآخـر صغير (٥٢) . وتلخصت مهمة البودستا برعاية شؤون الجنوية الذين عاشوا في الامبراطورية البيزنطية كلها (٥٣) ، والاشراف على أمورهم المالية والتجارية والسياسية والقضائية ، والدفاع عن حقوق الجنوية وامتيازاتهم ضـد الانتهاكات التي كانت تتعرض لها من قبل البيزنطيين أو أية قوة سياسية أو تجارية أخرى (٥٤) .

(49) Laiou, Constantinople, P. 15 ; Lopez, ' Market expansion ', P. 447 .

(50) Brand, op. cit., PP. 206 — 210 , 218 — 19 .

(51) Gregorae, op. cit., 1, P. 97 .

(52) Thompson , op. cit., 1, P. 422 .

(٥٣) أشار ابن بطوطة الى استقلال الجنوية في ادارة مستوطنتهم الا أنه جانبه الصواب في اعتقاده أن الامبراطور البيزنطي هو الذي يقوم بتعيين حاكم المستوطنة الجنوية في غلطا . انظر : ابن بطوطة ص ٣٥١ .

(54) Vasiliev , op. cit.. 11, P. 616 .

وكان البودستا الجنوي في القسطنطينية يعتبر ممثلا للحكومة والقومون الجنوي في بيزنطة ، حيث يدعى الى المائدة الامبراطورية في الاعياد الدينية الكبرى ، ويذهب كل يوم احد الى البلاط الامبراطوري ، ويستقبل على أنه مسؤول أو رجل من الطبقة الاولى (٥٥) ولكن على الرغم من أن البودستا كان يعامل في البلاط البيزنطي كسفير لبلاده ، الا أن المستوطنة الجنوية في غلطا لم تكن متعلقة بالمدينة الام وحكوماتها في جميع الاحوال والظروف ، بل نجدها تتخذ ، في بعض الحالات السياسية ، موقفا يختلف عـن ارادة الحكومة الجنوية وسياستها (٥٦) .

وقد تمتعت مستوطنة غلطا الجنوية بمركز اقتصادي متين ، وذلك نتيجة تفوق جنوه وسيادتها التجارية في الامبراطورية البيزنطية بعد عام ١٢٦١ م . وقارن أحـد المؤرخين البيزنطيين في القرن الرابع عشـر ، بين العائدات السنوية لميناء القسطنطينية على الامبراطورية البيزنطية ، وبين العائدات السنوية لميناء غلطا على المستوطنين الجنوية بقوله : « ان عائدات ميناء القسطنطينية كـانت حوالي ٣٠ الف نوميسما ذهبية ، في حين أن عائدات ميناء غلطـا كانت حـوالي ٢٠٠ ألف نوميسما ذهبيـة (٥٧) . ورسم لوبز خطا بيانيا يتعلق بالنشاط التجاري لمستوطنة غلطا ، بيّن فيه أن ازدهار تجارة غلطا قد وصل الى ذروته ما بين ١٣٣٠ م وعام ١٣٤٠ ، وما بين عام ١٣٥٠ وعام ١٣٧٠ م (٥٨) . وهذا يتفق تماما مع مراحل ازدهار النشاط التجاري للجنوية في الامبراطورية البيزنطية ، والبحر الاسود ، خاصة وأن مستوطنة غلطا قد شكلت رأس جسر بالغ الاهميـة للتجـارة الجنوية في الشرق كله (٥٩) ، واستفادت من ضعف المستوطنات التجارية الاخرى من جهة ، ومن تدهور الاقتصاد البيزنطي وانحطاطه من جهة ثانية.

وهكذا فقد تمكنت البندقية من تحقيق التفوق التجاري في بيزنطة والبحر الاسود ، خلال أيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤

(55) Hodgson, op. cit., P. 38 .

(56) Laiou , Constantinople., P. 107 .

(57) Gregorae, op., cit., 1, PP. 84 — 42 .

(58) Lopez, ' Market expantion ' , P. 453 .

(59) Ibid. ; P. 457 .

ـ ١٢٦١ م) . الا أن البنادقة أخفقوا في اقامة علاقات تجارية مع الاباطرة البيزنطيين في نيقية . أما الجنوية فقد عانت تجارتهم في بيزنطة تدهورا كبيرا في ظل الاباطرة اللاتين ، ولم يتمكنوا من اقامة علاقات تجارية « نشطة » مع امبراطورية نيقية .

ولكن بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م ، انقلبت هذه المعادلة ، حيث بدأ عصر تدهور التجارة البندقية وانحطاطها في الامبراطورية البيزنطية ، وفي الوقت ذاته بدأ عصر التفوق التجاري الجنوي في بيزنطة والبحر الاسود .

وعلى أية حال فقد شكل النشاط التجاري للبنادقة والجنوية في الامبراطورية البيزنطية جزءا هاما من تاريخهم التجاري ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وكان فصلا هاما في تاريخ التجارة الشرقية عامة .

الباب الثالث

النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في المدن والامارات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي

الفصل الأول

الامتيازات التجارية التي منحها الملوك والأمراء الصليبيون للجمهوريات الايطالية

في الوقت الذي كانت فيه المدن الايطالية البحرية تعمل لقيام علاقات تجارية مع مدن وموانىء البحر المتوسط ، قامت الحركة الصليبية ، التي وجدت فيها هذه المدن فرصا ثمينة للبدء في سلسلة من المشاريع التجارية في بلاد الشام . ولهذا لعبت المدن الايطالية ، وبصفة خاصة جنوه وبيزا والبندقية ، دورا هاما في تاريخ الحروب الصليبية .

ولقد أعطت الحركة الصليبية التجارة الصفة العالمية وفتحت البحر المتوسط للسفن الايطالية ، وقدمت منفـذا هاما للتجارة الايطالية مـع الشرقين الادنى والاقصى [1] . ولهذا فان أهم الدوافع ، التي وقفت وراء دعم المدن الايطالية للصليبيين ، كانت رغبة هذه المدن في تحطيم احتـكار القسطنطينية لتجارة الشرق الاقصى وطرقها . فمن المعروف أن الطرق التجارية ، التي كانت تتدفق عليها التوابل الهندية والحرير الصيني ، وغير ذلك من متاجر الشرق الاقصى ، خلال العصور الوسطى ، كانت تنتهـي اما الى القسطنطينية ، واما الى الموانىء الشامية والمصرية ولهذا السبب نفسه قامت الجمهوريات الايطالية بدعم الحركة الصليبية بأساطيلها لاحتلال الموانىء الشامية [2] .

وكان الاعتماد على مساعدات البحرية الايطالية أمرا ضروريا أمـام الصليبيـين من أجل الاحتفـاظ بالمدن التي استولوا عليها في بلاد الشام، ومن أجل دوام اتصالهم بأوطانهم في أوربا ، خاصة اذا علمنا أن المدن التي استولى عليها الصليبيون كانت في معظمها ــ عدا الرها والقدس ونابلس ــ

(1) Brundage, The crusades, Motives and Achievements, P. 62

(2) Gesta Francorum, The deeds of the Franks, P. XXIII.

مدنا ساحلية (٣) . وكان واضحا أمام الامراء الصليبيين ـ كما يعتقد سمث Riley — Smith (٤) انه لم يكن بامكان أي ميناء صليبي أن يطوّر قدرته ما لم يتردد عليه التجار الاجانب . كما أدرك الامراء الصليبيون ان المميزات الجغرافية لهذا الميناء أو ذاك ـ كمحطة في الطرق التجارية الإسيوية ـ لا قيمة لها ما لم يتردد عليه أولئك الذين يملكون الاساطيل التجارية القادرة على نقل سلع ومتاجر الشرق من هذا الميناء الى أوربا . وبالاضافة الى ذلك فقد اعتمدت معظم ثروة الصليبيين على تجارة المرور (الترانسيت) . وبدون وصول منتظم للاساطيل والسفن التجارية الى الموانىء الصليبية ، فانهم سوف يفقدون جزءا هاما من هذه الثروة . ولهذا فقد حرص القادة الصليبيون أشد الحرص على أقامة أوثق العلاقات مع الجنوية والبيازنة والبنادقة ، الذين « كانوا مهرة في فنون الحرب والتجارة معا » (٥) ، ومنحوهم امتيازات تجارية واقليمية وقضائية في المدن والموانىء الصليبية .

ومن الملاحظ ان المعاهدات التي تمت بين القوى الصليبية في الشام وبين المدن الايطالية ، خلال القرن الثاني عشر ، كانت أساسا لكل الامتيازات التجارية التي تمتعت بها هذه المدن وتجارها في القرن الثالث عشر في الامارات والمدن الصليبية . ولهذا فانه لا يمكننا ـ من الناحية الموضوعية ـ أن نميز بين الامتيازات التي حصلت عليها المدن الايطالية في الامارات الصليبية خلال القرن الثاني عشر ، عن تلك الامتيازات التي حصلت عليها المدن نفسها في هذه الامارات ، خلال القرن الثالث عشر . وعلى الرغم من أن العوامل التي تحكمت في العلاقات بين الطرفين ، خلال هذين القرنين ، قد تطورت تبعا لتغير مواقف القوى السياسية والاقتصادية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وتطورها ، كالبيزنطين والمسلمين والصليبيين والايطاليين ، فان الدوافع التي كانت وراء الامتيازات التي منحها الملوك والامراء الصليبيون للجمهوريات الايطالية ، في القرن الثاني عشر ، وكانت الى حد بعيد هي نفسها الدوافع وراء تجديد هذه الامتيازات خلال القرن

(٣) عن دور الاساطيل الايطالية في مساعدة الصليبيين في القتال ونقل المؤن والاسلحة من الغرب الاوربي الى الاماكن المقدسة . انظر :
J. de Vitry The Hist. of Jerusalem, P. 27 .

(4) Riely — Smith, The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, P. 66 .

(5) Anonymouspilgrims ; P. 29 .

التالي . ويفسر هذه الحقيقة المؤرخ يعقوب دفتري ، مؤرخ مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر بقوله : « ان أهمية الايطاليين ـ بالنسبة الى الاراضي المقدسة ـ لا تقتصر على دورهم في الحروب وانما أيضا في نقل السلع والمتاجر والحجاج والمؤن والاسلحة الى الاراضي المقدسة » (٦) .

اما عن الامتيازات التجارية وغيرها ، التي حصل عليها الجنوية ، فمن المعروف أن الامير النورماني بوهيموند الاول Bohemond منح امتيازات تجارية للجنوية في مدينة انطاكية (يوليو ١٠٩٨ م) . وذلك مقابل المساعدة التي قدمها الاسطول الجنوي أثناء حصار الصليبيين للمدينة (٧). وشملت هذه الامتيازات كنيسة برسم القديس حنا (راعي مدينة جنوه) وسوقا وبئرا وثلاثين بيتا . اضافة الى اعفاء ـ التجار الجنوية من المكوس والضرائب في مدينة انطاكية وتوابعها (٨) . ومقابل ذلك تعهد الجنوية بتقديم المساعدة لبوهيموند في الدفاع عن انطاكية (٩) .

وعندما أصبح تانكريد Tancred وصيا على امارة انطاكية جدد عام ١١٠١ م الامتيازات التي منحها خاله بوهيموند للجنوية (١٠٩٨ م) ، واضاف اليها وعدا للجنوية بمنحهم ثلث دخل ميناء انطاكية (السويدية) ونصف دخل ميناء مدينة اللاذقية (التي كانت لا تزال بأيدي البيزنطيين)، فضلا عن حي وشارع وكنيسة في المدينة الاخيرة . وذلك كله مقابل وعد الجنوية بمساعدة تانكريد في احتلال المدن الساحلية (١٠) .

وكانت هذه الامتيازات السابق ذكرها أساسا لكل الامتيازات التي حصل عليها الجنويون في امارة انطاكية . وقد تم تجديدها خلال القرن الثاني عشر ، حتى انه أصبح للجنوية محاكمهم الخاصة في انطاكية واللاذقية منذ عام ١١٨٩ م . كما انتزعوا وعدا من أمير انطاكية بوهيموند

(6) Vitry, op. cit., P. 57 .

(7) William of tyre, Hist. of deeds, 1, P. 229 .

(8) Byrne, ' Genoese colonise in Syria ' P. 141 .

(9) Yewdale, Bohemond, 1, Prince of Antioch, P. 73 .

(10) Lamonte, Feudal Monarchy in the latin Kingdom. , PP. 228, 266 ; Yewdale, op. cit., P. 104 .

الثالث ، بأن يتم اعفاؤهم من الرسوم والضرائب في المدينتين الاخيرتين (١١).

أما بالنسبة الى الامتيازات التي حصل عليها الجنوية في مملكة بيت المقدس ، فلقد أشار صاحب الجستا Gesta ووليام الصوري الى أن الجنوية لعبوا دورا هاما في مساعدة الصليبيين أثناء احتلال مدينة بيت المقدس عام ١٠٩٩ م (١٢) ، تحت قيادة الاخوين الجنوبين وليام وبريموس أمبرياتشو ، اللذين وصلا بمركبين محملين بالمواد الغذائية وأدوات الحصار الى يافا عام ١٠٩٩ م (١٣) . ولكن يبدو أن الجنوية لم يحصلوا على امتيازات واضحة مقابل مساعدتهم هذه وانما أخذوا نصيبهم من الاسلاب والغنائم بعد أحتلال المدينة . الا أنه سرعان ما وقّع ملك بيت المقدس بلدوين الاول ، معاهدة مع الجنوية في يافا ١١٠١ م . وتضمنت هذه المعاهدة ـ كما أوردها وليام الصوري (١٤) ـ امتيازين اساسيين ، أولهما : يحق للجنوية الحصول على ثلث الاسلاب والغنائم من أية مدينة يتم احتلالها بمساعدتهم ، وثانيهما: يحق للجنوية امتلاك شارع واحد خاص بهم في كل مدينة يساهمون في احتلالها ، وبناء على هذه المعاهدة شارك الجنوية في احتلال مدينتي أرسوف وقيسارية (١٥) .

وبعد ثلاثة أعوام (١١٠٤ م) وقّع الملك بلدوين الاول ، معاهدة ثانية مع الجنوية ، تعتبر أساسا لكل المعاهدات التالية بين الجنوية وملوك بيت المقدس . واشتملت هذه المعاهدة على الامتيازات الرئيسية التالية : أولا : يحق للجنوية امتلاك ثلث دخل ميناء عكا . ثانيا : يحق للجنوية امتلاك كنيسة في عكا . ثالثا : أن يكون للجنوية السيادة الكاملة على شارع واحد في المدينة . رابعا : ان يتم اعفاء الجنوية اعفاءا تاما من الرسوم والضرائب . خامسا : أن يمتلك الجنوية ثلث مدينة أرسوف وقيسارية وعكا وأية مدينة يساهم الجنوية في احتلالها . سادسا : أن يمنح الجنوية شارعا في بيت

---

(11) Anonyomus pilgrins, P. 29 ; Lamonte, monarchy. P. 266 ; Byrne, ' Genoese Colonise ' , P. 148 .

(12) Gesta, op. cit., P. 88 ; William of Tyre, 1, P. 353 .

(13) Tolkowsky, The Gate way of Palestine , 85 — 86

(14) Williame of Tyre, 1, P. 434 ; Fulcher of Gharters ; PP. 151 — 52 .

(15) William of Tyre , 1, PP. 435 — 38 .

انظر ايضا : ابن القلانسي ، ص ١٣٩ .

المقدس ويافا . سابعا : وعد الملك بتسليم ممتلكات ومتعلقات الجنوي الذي يموت في المملكة الصليبية الى الجنوية أنفسهم ، ويمنح الحماية والامان للتجار الجنوية وبضائعهم عبر مملكته . ثامنا : تعهد الملك بمنح الجنوية موردا سنويا قدره / ٣٠٠ / بيزانتا (١٦) . وبناء على هذه المعاهدة ساهم الجنوية مساهمة فعالة في احتلال الصليبيين لمدينة عكا عام ١١٠٤ (١٧) . ومدينة بيروت عام ١١١٠ م (١٨) .

ولقد جدد ملوك بيت المقدس هذه المعاهدة للجنوية أكثر من مرة . بحيث لم يأت القرن الثالث عشر حتى حصل الجنوية ، أضافة الى الامتيازات السابقة ، على محاكم خاصة بهم في صور وعكا ، فضلا على اعفاءات من الرسوم والضرائب المتعلقة بالمتاجر المستوردة من الاقطار الاسلامية (١٩) .

وفي عام ١٢٢١ م منح حنا ابيلين (٢٠) ، صاحب بيروت ، امتيازات تجارية للجنوية في مدينة بيروت ، تضمنت اعفاء الجنوية من الرسوم والضرائب على المتاجر الصادرة والواردة ، ومحكمة خاصة بهم لمحاكمة بني جلدتهم ، فضلا عن سوق في المدينة نفسها . وبعد عامين (١٢٢٣ م) صدّق حنا هذه الامتيازات ، ولكنه استثنى بعض السلع ، التي يتوجب

---

(١٦) انظر النص الكامل للمعاهدة في :
William of Tyre ; 1, PP. 454 — 56 .

(17) Ibid., P. 456 ; Fulcher, A Hist. of the expedition, P. 176 ; de vitry , op. cit., P. 5 .

انظر أيضا : ابن القلانسي ، ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(18) Fulcher of charters, op. cit., PP. 196 — 97 Bease, op. cit., P. 35.

(١٩) انظر تفاصيل ذلك في :
Mayer, ' The commune of Tyre ; PP. 448 , 451 ; Lamonte ; Feudal monarchy ; PP. 264 — 65 .

(٢٠) عن تاريخ آبيلين في الشام وقبرص . انظر المؤرخ المعاصر فيليب نوفار :
Novar, Philip de , The wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and cyprus (Newyork, 1936) .

على الجنوية دفع رسوم عليها ، مثل الخمور والزيوت والخزف (٢١) :

وفي عام ١٢٣٤ م منح روهارد الثاني Rohard II ، صاحب يافا ، امتيازات تجارية للجنوية في مدينته وتخفيضا في الضرائب والمكوس الجمركية (٢٢) .

أما الامتيازات التجارية التي تمتع بها الجنوية في امارة طرابلس فقد اكدت المصادر المعاصرة الدور البارز الذي لعبه الجنوية ــ تحت قيادة اخوين من آل امبرياتشو ــ في احتلال الصليبيين لمدينة جبيل عام ١١٠٤م، وكافأهم ريموند الصنلجي بمنحهم ثلث المدينة (٢٣) . وفي عام ١١٠٩ م وقع برتداند بن ريموند معاهدة مع الجنوية ، من خلال آل امبرياتشو ،وعدهم فيها بمنحهم كل مدينة جبيل وثلث مدينة طرابلس في حين تعهد الجنوية بمساعدته في احتلال طرابلس (٢٤) . ورغم أن الجنوية لعبوا دورا هاما في احتلال طرابلس (١١٠٩ م) (٢٥) ، الا أن برتراند بن ريموند حنث بوعده ورفض اعطاء الجنوية أي جزء من طرابلس ، ولذلك قام الجنوية بامتلاك جبيل كلها دون تردد (٢٦) وبذلك أصبحت جبيل كلها بأيدي الجنوية. وقد تسلمها أفراد من آل امبرياتشو ، لفترة محددة من الزمن ، بالنيابة عن القومون الجنوي ، مقابل مبالغ سنوية يتوجب أن يبعثها آل امبرياتشو الى

---

(21) Novar, op. cit., PP. 136 ; 144 ; Lamonte ; Johnd ' Iblein ', Byzantion , XII (1937), PP. 417 FF.

(22) Riely — Smith, Nobility , P. 66 ; Idem, Government in latin Syria , P. 110 ; Lamonte, Feudal monarchy, P. 266

(23) William of Tyre, op. cit., 1, PP. 476 — 78 ; de vitry , op. cit., P. 20 .

أيضا : ابن القلانسي : ص ٤٣ ــ ٤٤ .

(24) William of Tyre , op. cit., 1, PP.; 476 — 78 de vitry, op. cit., P. 20 .

(25) Fulcher, op. cit., PP. 193 — 94 ; William of Tyre , 1, PP. 477 — 78 .

(26) Lamonte, Feudal monarchy P. 229 .

الكنيسة والحكومة في جنوة (٢٧) . وفي عــام ١١٦٨ م منح زعيم جبيل هيوامبرياتشو (٢٨) ، التجار الجنوية حرية المتاجرة في المدينة ، فضلا عن اعفائهم من الضرائب والرسوم الجمركية في المدينة (٢٩) .

أما في مدينة طرابلس نفسها فلم يتمتع الجنوية بأية امتيازات تجارية أو غيرها الا في مستهل القرن الثالث عشر ، عندما منح بوهيموند الرابع (عام ١٢٠٥ م) امتيازات تجارية للجنوية في طرابلس ، وأعفاهم من ضريبة البيع في أسواق المدينة ، فضلا عن منحهم محكمة خاصة بهم في المدينة (٣٠) .

أما عن الامتيازات التي حصلت عليها مدينة بيزا في المدن والامارات الصليبية ، فمن المعروف أن البيازنة كانوا الجماعة الايطالية الثانية ــ بعد الجنوية ــ التي استجابت للدعوة الصليبية . وفي عام ١١٠٨ م منح تانكريد البيازنة امتيازات تجارية ، في امارة انطاكية ، تضمنت حيا خاصا بهم في انطاكية وآخر في اللاذقية ، وكنيسة ومستودعات في المدينة الاخيرة ، فضلا عن اعفائهم من الضرائب والرسوم الجمركية في انطاكية واللاذقية معا . وذلك كله مقابل المساعدة التي قدمها البيازنة لتانكريد في احتلال مدينة اللاذقية في العام نفسه (١١٠٨ م) (٣١) . وقد تم تجديد هذه الامتيازات خلال القرن الثاني عشر ، وامتلك البيازنة احياء وأراضي جديدة في انطاكية واللاذقية . ولكن مسألة الاعفاء من الرسوم والضرائب لم تنفذ . والدليل على ذلك ــ كما يعتقد لامونت Lamonte أن بوهيموند الرابع قد خفض ، عام ١٢٠٠ م الضرائب والرسوم المفروضة على المتاجر التي حملها

---

(27) William of Tyre, 1, PP. 476 — 77 ; de vitry , op. cit., P. 20

(٢٨) يقول المؤرخ بركارد أن صاحب مدينة جبيل كان فصلا تابعا الى كونت طرابلس انظـر :
Burchard of Mount Sion, Adescription of The holy land P. 15 .

(29) Lamonte, Feudal monarchy , P. 267 .

(30) Ibid., P. 267 ; Riley — Smith , ' Government ; P. 110 .

(31) Nicholson , Tancred , P. 166. Lamonte, Feudal monarchy, P. 270 .

البيازنة الى النصف (٣٢) . ويبدو أن هذا التخفيض قد استمر خلال القرن الثالث عشر .

اما في مملكة بيت المقدس ، فقد حصل البيازنة على أحياء في مدينة القدس فضلا عن ربع مدينة يافا . وذلك مقابل الدور الهام الذي لعبه اهل بيزا ، تحت قيادة رئيس أساقفتهم دايمبرت في تحصين مدينتي بيت المقدس ويافا عام ١٠٩٩ م (٣٣) . وخلال سنوات حكم بلدوين الثاني (١١١٨ - ١١٣١م) ، مُنح البيازنة خمسة بيوت في صور . وفي نوفمبر من عام ١١٥٦ م منح بلدوين الثالث البيازنة محكمة خاصة بهم في صور ايضا . وفي العام التالي (١١٥٧ م) منح عموري - كونت يافا وعسقلان - البيازنة منطقة في مدينة يافا لاقامة سوق تجاري وبيوت سكنية وكنيسة وأعفاهم من نصف الرسوم الجمركية المقررة في ميناء المدينة (٣٤) . وهذا كله يكشف لنا أن البيازنة لم يتمتعوا بما حصلوا عليه في المدينة في زمن دايمبرت .

الا أن معاهدة اكتوبر عام ١١٨٧ م ، التي تمت بين البيازنة وكونراد مونتفرات ، صاحب صور ، كانت أساسا لكل الامتيازات التي حصل عليها البيازنة في مملكة بيت المقدس ، وبشكل خاص في صور وعكا ويافا ، حتى سقوط هذه المملكة في عام ١٢٩١ م . ولعل أهم البنود التي انطوت عليها هذه المعاهدة هي : أولا : منح البيازنة قطعة أرض لبناء بيوت قرب الموانىء فضلا عن أفران وحمامات . ثانيا : منحهم الحق في استخدام موازينهم ومقاييسهم الخاصة . ثالثا : يحق للبيارنة تعيين موظفين من قبلهم للاشراف على جميع المعاملات التي يقوم بها التجار البيازنة . رابعا : اعفاء التجار البيازنة من الضرائب والرسوم . خامسا : منح القناصل البيازنة الاستقلال في ادارة كل ما يتعلق بشؤون المستوطنة البيزاوية . سادسا : منح البيازنة سلطات قضائية على المستوطنين البيازنة في كل الحالات ، ما عدا الجرائم الموجهة ضد غير البيازنة أو مسائل القانون

(32) Lamonte, Feudal monarchy, PP. 270 — 71 .
(33) Tolkowsky, op. cit., P. 87 ; Bease, op. cit., PP: 35 — 36 ;
أيضا : عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .
(34) Tolkowsky , op. cit., P. 98 ; Boase , op. cit., PP. 35 — 36 : Lamonte, Feudal monarchy, P. 269 ; Jorga , op. cit., P. 147

الاقطاعي ، حيث يجب في هذه الحالة ، أن ينظر في الدعاوي أمام محاكم المملكة . سابعا : حماية ممتلكات البيازنة وبضائعهم في حالة غرق سفنهم او تحطيمها قرب « السواحل الصليبية » (٣٥) . ويبدو أن البيارنة تعهدوا للصليبيين ، مقابل هذه الامتيازات السخية ، بتقديم المساعدة لاسترداد مدينتي يافا وعكا . اللتين فتحهما السلطان صلاح الدين الايوبي ، وللدفاع عن مدينة صور ضد محاولات صلاح الدين للاستيلاء عليها (٣٦) .

اما الامتيازات التي تمتع بها البيازنة في كونتية (أمارة) طرابلس فقد جاءت متأخرة ، فأول امتياز حصلوا عليه يعود الى أغسطس عام ١١٧٩ م . وهو يتضمن منح ريموند الثالث ، صاحب طرابلس بيتا للبيازنة في المدينة . الا أنه لم ينته القرن الثاني عشر حتى أصبح للبيازنة محكمة خاصة بهم في طرابلس . وتم اعفاؤهم من الرسوم الجمركية . كما تم منحهم ثلث موارد طرابلس . وذلك مقابل / ٥٠٠ / بيزانتا سنويا . فضلا عن اعفاء البيازنة المقيمين في طرابلس من مسؤولية الاضرار التي يلحقها ابناء وطنهم بامارة طرابلس (٣٧) .

أما عن الامتيازات التجارية وغيرها التي حصل عليها البنادقة في المدن والامارات الصليبية ، فقد أشار المؤرخان ، تافيل وتوماس في مجموعة الوثائق ، الى أن امراء انطاكية الاوائل ، بوهيموند الاول وتانكريد وبوهيموند الثاني ، قد منحوا تباعا ، امتيازات تجارية للبنادقة . ورغم أن النصوص الاصلية لهذه الامتيازات قد فقدت ، الا أننا نستطيع القول بأنها اشتملت على امتيازات تجارية وقضائية واقليمية في مدينة انطاكية (٣٨).

وفي عام ١١٤٠ م منح ريموند البنادقة تخفيضا في الرسوم الجمركية، وحماية للبنادقة ومتاجرهم في حالة تحطيم سفنهم أو غرقها اضافة الى حق

(٣٥) انظر بنود هذه المعاهدة في :
Tolkowsky, op. cit., PP. 448 — 52 ' Mayer,The ' commune of Tyre ' , PP. 448 —52 .
(36) Mayer, ' The Commune of Tyre ' ; P. 45 .
(37) Lamonte , Feudal monarchy , P. 271 .
(38) Tafel and Thomas , 1, docs., 27, 31, 42, PP. 64, 93 . ; William of Tyre, 1, P. 556 .

البنادقة بأن يحاكموا وفقا لقوانينهم الخاصة (٣٩) وعندما جدد أرناط (رينو شاتيون) وكونستانس ، عام ١١٥٣ م ، الامتيازات السابقة ، منحا البنادقة تخفيضا جديدا في الرسوم الجمركية ومحكمة خاصة بهم في أنطاكية تحت اشراف قضاة من البنادقة (٤٠) وفي عام ١١٦٧ م الفى بوهيموند الثالث نصف الضرائب والرسوم التي كان يدفعها البنادقة في انطاكية (٤١) . ويبدو أن هذا التخفيض استمر خلال القرن الثالث عشر .

أما في مملكة بيت المقدس ، فقد وقع جوفري بوايون ، في يونيو عام (١١٠٠ م) ، معاهدة مع البنادقة ، الذين كانوا قد وصلوا بأسطول كبير الى مدينة يافا . وتضمنت المعاهدة اعفاء البنادقة من الرسوم الجمركية والضرائب في المملكة وامتلاك ثلث كل مدينة يساعد البنادقة في احتلالها، اضافة الى سوق وكنيسة فيها . وفضلا عن ذلك تعهد الدوق بحماية ممتلكات البنادقة ومتاجرهم في حالة تحطم سفنهم أو غرقها . وذلك كله مقابل اتاوة سنوية يدفعها البنادقة للدوق جوفري (٤٢) . وتنفيذا لهذه المعاهدة فقد ساهم البنادقة مساهمة فعالة في الاستيلاء على حيفا ، وانتزاعها من الفاطميين ، في أغسطس من العام نفسه (١١٠٠ م) (٤٣) .

وفي عام ١١١١ م منح الملك ، بلدوين الاول ، البنادقة حيا في عكا اشتمل على كنيسة وسوق وبيوت ، اضافة الى امتيازات تجارية أخرى في عكا وبيت المقدس على السواء (٤٤) . وذلك مقابل المساعدة التي قدمها الاسطول البندقي في احتلال مدينة صيدا وبيروت عام ١١١٠ م (٤٥) .

(39) Tafel and Thomas , 1, doc. 46 ; PP. 102 — 103 .
(40) Ibid. , doc. 55, PP. 133 — 35 .
(41) Ibid., doc. 61, PP. 148 — 49 .
(42) Tafel and Thomas, 1, doc. 28, PP. 164 — 65 ; Nicholson, op. cit., PP. 109 — 110 .
(43) Tolkowesky, op. cit., PP. 87 — 88 ; Nicholson, op. cit., P. 113
(44) Tafel and Thomas, 1, docs. 30 — 34 ; PP. 66 — 75 .
(45) William of Tyre, 1, P. 554 .

الا أن المعاهدة التي وقعها بارونات بيت المقدس (٤٦) مع دوج البندقية دومينيكو ميخائيل (٤٧) ، عام ١١٢٤ م في عكا (٤٨) تعتبر أساسا لكل الامتيازات التجارية التي حصل عليها البنادقة في مملكة بيت المقدس حتى ايامها الاخيرة . ولعل أهم البنود التي اشتملت عليها هذه المعاهدة — كما وردت عند وليام الصوري وفي مجموعة تافيل وتوماس (٤٩) — هي : أولا : أن يمتلك البنادقة كنيسة وشارعا وساحة وحماما وفرنا في كل مدينة من مدن الملك بلدوين الثاني وخلفائه وفي مدن كل باروناته . ثانيا : اذا رغب البنادقة الاقامة في عكا فيجب أن يحتوي حيهم الخاص فيها على : فرن وطاحونة وحمام . ثالثا : يحق للبنادقة استخدام مقاييسهم وموازينهم الخاصة في معاملاتهم التجارية الخاصة ، أما عندما يشترون من غيرهم فيجب أن يستخدموا المكاييل والموازين الرسمية في المملكة الصليبية . رابعا : يعفى البنادقة من كل أنواع الضرائب والمكوس الجمركية سواء عند الدخول أو الاقامة أو الشراء أو البيع أو المغادرة ، وانما يدفعون فقط ضريبة على سفنهم عندما تنقل الحجاج . خامسا : يجب أن يدفع الى دوج البندقية ، من موارد صور ، مبلغ سنوي قدره / ٣٠٠ / بيزانتا . سادسا : يحق للبنادقة أن يكون لهم محاكم خاصة ومستقلة لمعالجة القضايا المتعلقة بالبنادقة أنفسهم ، وفي حالة كون الطرف الآخر غير بندقي فان القضية يجب أن تعالج في المحكمة الملكية . سابعا : ان البنادقة الذين يموتون

(٤٦) كان ملك بيت المقدس ، بلدوين الثاني ، آنذاك في سجن حلب . انظر تفصيل ذلك في :
William of Tyre , 1, PP. 552 — 53 .

(٤٧) كان الدوج دومينيكو ميخائيل قد وصل الى عكا على راس اسطول كبير عام ١١٢٣ م . انظر :
Fulcher, op. cit.,PP. 240 — 45 .

(٤٨) يبدو ان وليام الصوري قد جانبه الصواب في تأريخ هذه المعاهدة عام ١١٢٣ م في حين ان التأريخ الصحيح هو ٢٠ يناير أو ١٦ فبراير من عام ١١٢٤ م . انظر :
Fulcher, op. cit., P. 270 , n. 1.

(٤٩) انظر النص الكامل لهذه المعاهدة في :
William of Tyre ; op. cit., 1, PP. 552 — 56 ; Tafel and Thomas , 1, doc. 40 ; PP. 84 — 89 .

سواء تركوا وصية أم لم يتركوا ، فان ممتلكاتهم يجب أن تكون تحت تصرف البنادقة انفسهم ، وكذلك في حالة تحطم سفنهم أو غرقها فان الممتلكات التي يتم انقاذها يجب ان تعود الى البنادقة . ثامنا : يحق للبنادقة امتلاك ثلث مدينتي صور وعسقلان مع توابعهما ، وأن يكون حقهم هذا وراثيا ، اذا تم احتلال هاتين المدينتين بمساعدة البنادقة (٥٠) .

وتنفيذا لهذه المعاهدة ساهم البنادقة ، تحت قيادة الدوج ميخائيل نفسه ، مساهمة فعالة في احتلال الصليبيين لمدينة صور في العام نفسه (١١٢٤ م) (٥١) . وقال فوشيه شارتر انه تم تنفيذ هذه المعاهدة وتسلم البنادقة الجزء المخصص لهم في المدينة وامتلكوا كل ما خصص لهم في المدينة وفقا لهذه المعاهدة (٥٢) .

وفي ديسمبر من العام ١٢٢١ م ، منح حنا ابيلين ، صاحب بيروت ، امتيازات تجارية للبنادقة في المدينة ، اشتملت على اعفاءات من الرسوم الجمركية المقررة على بعض المتاجر ، اضافة الى محكمة خاصة بهم في المدينة . وذلك تشجيعا للبنادقة المتاجرة في بيروت (٥٣) .

وكان آخر امتياز منح للبنادقة في مملكة بيت المقدس ، هو امتياز عام ١٢٧٧ م ، الذي أصدره حنا مونتفرات ـ صاحب صور والذي تضمن اعادة محكمة البنادقة وامتيازاتهم واملاكهم السابقة كلها في مدينة صور ، حيث كان قد صادرها خلال فترة النزاع معهم (٥٤) .

أما في امارة طرابلس فيبدو ان البنادقة لم يتمتعوا بامتيازات رسمية فيها خلال القرن الثاني عشر . وليس لدينا الا اشارة تعود الى عام ١١١٧ م،

(٥٠) صدق الملك بلدوين الثاني على بنود المعاهدة بعد اطلاق سراحه عام ١١٢٥م.انظر :
Tafel and Thomas , 1, doc. 41, PP. 40 — 44 ; mayer, ' The commune of Tyre ' , P. 448 .

(51) Anonymous , P. 49 ; Vitry, P. 19 ; Wendover, P. 475 .

(52) Fulcher , op. cit., P. 270 .

(53) Riley — Smith , ' Government in latin Syria ' , P. 110 .

(54) Tafel and Thomas , 111 ; doc. 369 , PP. 150 — 59 .

وتتضمن منح صاحب طرابلس بيتا للبنادقة في المدينة لكنيسة القديس مرقص ، راعي مدينة البندقية (٥٥) . ولكن بعد مائة عام (١٢١٧ م) أعفى جاي صاحب جبيل التجار البنادقة من ضريبة البيع المقررة على السلع في المدينة (٥٦) . وبعد ستين عاما (١٢٧٧ م) أعفى بوهيموند السابع ـ صاحب طرابلس ـ البنادقة من بعض الضرائب المقررة على بعض المتاجر ، واكد في الوقت نفسه حق البنادقة في الاحتفاظ بمحاكمهم الخاصة في المدينة (٥٧) .

بعد هذا العرض الموجز لاهم الامتيازات التي منحها الملوك ولامراء الصليبيون للمدن الايطالية ، في المدن والامارات الصليبية ، والظروف التي واكبتها ، يجدر بنا ان نبين الخصائص العامة لهذه الامتيازات ، وابعادها الاقتصادية بالنسبة الى الايطاليين والصليبيين على السواء .

أولا : تنوعت هذه الامتيازات الى أنواع ثلاثة :

أ ـ امتيازات تجارية : اشتملت على حقهم في الدخول والبقاء والمغادرة في الموانيء وكذلك تخفيض أو اعفاءات ضرائبية معينة ، وفي بعض الاحيان امتلاك أسواقهم الخاصة ومستودعاتهم .

ب ـ امتيازات اقليمية : اشتملت على منحهم احياء في المدن وبيوت وأبنية ادارية وكنائس وحمامات وأفران وشوارع وطواحين ، فضلا عن مناطق محددة في المدن لبناء المنازل .

جـ ـ امتيازات قضائية : اشتملت على حق الايطاليين في حل منازعاتهم وفق قوانينهم الخاصة وفي محاكمهم الخاصة ، وكذلك حقهم في بعض الحالات ، محاكمة الجماعات التي تعيش في أحيائهم من الجنسيات الاخرى وفق قوانينهم ومحاكمهم الخاصة .

(55) Ibid., 1, doc. 36 ; PP. 76 — 77 .

(56) Ibid. , 11, doc. 250 , PP. 196 — 97 .

(57) Lamonte, Feudal monarchy , P. 263 ; Riley — Smith, Nobility, P. 67 ; Idem , ' Government ' , P. 110 .

ثانيا : ان الامتيازات التي حصل عليها التجار الايطاليون في القرن الثالث عشر كانت تجديدا وامتدادا للامتيازات التي حصلوا عليها في القرن الثاني عشر ، وهي بالتالي تشكل كلها حلقة واحدة . ولكن تجدر الاشارة الى أن هذه الامتيازات ، وبالتالي المصالح التجارية الايطالية في المدن والامارات الصليبية قد تعرضت الى أزمة خطيرة في أواخر القرن الثاني عشر وذلك نتيجة انتصارات صلاح الدين الايوبي وفتوحاته في الشام . وهذا يفسر لنا أمرين على جانبين كبيرين من الاهمية أولهما : الدور الكبير الذي لعبته المدن الايطالية في الحملة الصليبية الثالثة في نقل الصليبيين الى الشرق (٥٨) وثانيهما سلسلة الامتيازات الكثيرة التي منحها الامراء الصليبيون للمدن الايطالية للحصول على المساعدة البحرية من هذه المدن لاسترداد ما فتحه صلاح الدين ، وبالتالي حماية بقايا المدن الصليبية من خطر المسلمين (٥٩) .

ثالثا : لقد مكنت هذه الامتيازات التجار الايطاليين من تحقيق الحد الاقصى من المنافع والمصالح التجارية في المدن الصليبية خلال القرن الثالث عشر ، فعلى الرغم من اختلاف المعاهدات والامتيازات التجارية في التفاصيل ، الا أنها جسدت المصالح العليا للتجار وحرصهم الشديد على المتاجرة ضمن شروط مناسبة ، والحفاظ على الحد الادنى من التكاليف . ومن هنا يمكن أن نفهم مساوماتهم للحصول على اعفاءات مستمرة من الرسوم والضرائب التي فرضتها الحكومات الصليبية كما يقول ماير (٦٠).

رابعا : أن الايطاليين لم يتمتعوا بكامل هذه الامتيازات،ففي السنوات التي أعقبت الاحتلال الصليبي للمدن الشامية ، منح الملوك والامراء الصليبيون امتيازات سخية للتجار الايطاليين . وشجعوهم بشتى الوسائل على المتاجرة والاستقرار في المدن التي احتلوها . ولكن موقفهم هذا أخذ يتغير منذ أواسط القرن الثاني عشر ، حيث أخذوا يماطلون في تنفيذ الوعود والمعاهدات التجارية ، بل حاول بعض الملوك والامراء استرداد أو

(58) Byrne, ' Commercial Contracts ' , P. 132 .
(59) Smail , The crusades in Syria and Holyland P. 60 .
(60) Mayer, The crusades, P. 59 .

تخفيض الامتيازات التي كانوا قد منحوها للقومونات الايطالية (٦١) . وربما السبب في ذلك ــ كما يرى بيرن Byrne (٦٢) هو ادراك الحكام الصليبيين للاخطار أو الاضرار التي تنتج عن وجود أقليات مستقلة ، من البنادقة والبيازنة والجنوية ، في قلب مجتمع صليبي قائم على أساس اقطاعي .

خامسا : ان الامتيازات الهائلة ، التي منحت للتجار الايطاليين في المدن والامارات الصليبية ، قد كشفت عن قصر نظر الحكام الصليبيين ، الذين أهتموا بحماية الهيكل السياسي لدويلاتهم على حساب المصالح الاقتصادية . وفقد الصليبيون السيطرة على التجار داخل المدن والموانىء الصليبية ، وبالتالي حرموا من أهم الموارد المالية ، وهي الضرائب والمكوس الجمركية المتعلقة بتجارة الترانسيت بصفة خاصة ، وأصبح البناء الاقتصادي للدويلات الصليبية ، هزيلا لان النشاط التجاري في المدن والموانىء الصليبية أصبح في أيدي التجار الايطاليين دون سواهم .

(61) Riley — Smith, Nobility ; PP. 67 — 68 .
(62) Byrne, ' The Genoese colonise ' , P. 142 .

الفصل الثاني

التنافس التجاري بين الجمهوريات الايطالية في المملكة الصليبية في القرن الثالث عشر

وارتبط النشاط التجاري للمدن الايطالية وأحيائها في المدن الصليبية ارتباطا مباشرا بمسألة السلام ، سواء في علاقات هذه المدن بملوك وأمراء المملكة الصليبية ، أو في علاقات الصليبيين عامة مع القوى الاسلامية في مصر والشام ، أو في علاقات المدن الايطالية ذاتها وجالياتها في المدن والامارات الصليبية . ويبدو أن هذه المعادلات كانت واضحة تماما أمام الايطاليين ، وحاولوا اقامة التوازن بين أطرافها تحقيقا لمصالحهم التجارية . واذا كان هؤلاء قد نجحوا ، خلال معظم أيام المملكة الصليبية الاولى (١٠٩٩ — ١١٨٧ م) ، في الحفاظ على توازن هذه المعادلات ، الا انهم فشلوا في ذلك ، خلال معظم أيام المملكة الصليبية الثانية في عكا (١١٩١—١٢٩١م) . وذلك نتيجة تفجر التناقضات في المصالح التجارية بين الاطراف المختلفة ، وانقلاب الموازين الاقتصادية والسياسية معا . وكان لهذا كله أكبر الاثر لا في النشاط التجاري للايطاليين ومستقبله في المدن الصليبية فحسب وانما في الوجود الايطالي والصليبي معا في الشام (١) .

واذا كانت الجمهوريات الايطالية ، البندقية وجنوه وبيزا ، قد حصلت على امتيازات تجارية في المدن الصليبية ، مقابل مساعداتها للصليبيين ، فقد تعززت هذه الامتيازات وتوسعت عندما اتخذت كل جمهورية موقفا ازاء الصراعات السياسية التي دبت بين الامراء الصليبيين الطامعين في عرش المملكة الصليبية .

---

(١) يعتبر المؤرخ الصليبي المعاصر يعقوب ديفتري من أوائل المؤرخين اللاتين الذين أدركوا خطورة التنافس والصراع بين المدن الايطالية وأحيائها في المملكة الصليبية وأثر ذلك كله على النشاط التجاري والوجود الصليبي .
انظر :
de vitry , op. cit., PP. 64 — 67 .

فعندما انفجر النزاع (١١٩٠ — ١١٩٢ م) بين كونراد مونتفرات (٢) وبين جاي لوزنجيان (٣) على عرش مملكة بيت المقدس في عكا ، سعى كل من الطرفين المتنازعين الى كسب دعم الجاليات الايطالية ، عن طريق المنح والامتيازات التجارية . ووقف البيازنة الى جانب جاي ، ودعموا حقه في العرش ، في حين وقف الجنوية الى جانب كونراد . وكانت النتيجة أن طرد الاخير البيازنة من صور وثبت اقدام الجنوية فيها (٤) . وسرعان ما حدثت منازعات دموية بين البيازنة والجنوية في مدينة عكا عقب احتلالها (١١٩١ — ١١٩٢ م) ، حتى أن الجنوية في عكا قاموا بتدبير مؤامرة (فبراير ١١٩٢م) للاستيلاء على عكا وتسليمها لكونراد . الا أن البيازنة وريتشارد قلب الاسد نجحوا في احباط المؤامرة ، وبالتالي في التوفيق بين البيازنة والجنوية ، خاصة وقد أدرك الصليبيون خطورة أن يقوم أحد الطرفين المتنازعين ، البيازنة أو الجنوية ، بالتحالف مع المسلمين (٥) .

وكان أن تورط البيازنة والجنوية ثانية في النزاع الذي نشب (١١٩٣ — ١١٩٥ م) حول تاج مملكة بيت المقدس ، بين جاي لوزنجيان ، الذي أصبح حاكما على قبرص ، وبين هنري شمباني ، الذي أصبح حاكما على صور . ووقف الجنوية الى جانب هنري في حين وقف البيازنة الى جانب جاي . وكانت النتيجة أن طرد هنري البيازنة من صور وعكا وبقية المدن الصليبية . ولم يتمكن هؤلاء من العودة الى أحيائهم في المملكة الصليبية الا

---

(٢) عن ظهور كونراد مونتفرات ودوره في تاريخ مملكة بيت المقدس عامة ومدينة صور بصفة خاصة ، والنزاع بينه وبين جاي . انظر :
Fleming , The Hist. of Tyre , PP. 107 — 110 .

(٣) عن آل لوزنجيان وتاريخهم في الشام وقبرص . انظر :
Painter, s. ; ' The house of Lusignan . 115 — 125 ' , Speculum, XXX (1955) , PP. 374 — 84 .

(4) Mayer, ' The communel of Tyre ' ; P. 461 ; Tolkowsky, op. cit., PP. 103 — 104 .

(٥) انظر تفصيل ذلك في : عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٨٥ — ٨٨٧، أيضا:
Fleming , op. cit., P. 110 .

بعد أن تم توقيع الاتفاق بين هنري شمباني وآل لوزنجيان عام ١١٩٤ – ١١٩٥ م (٦) .

وفي النصف الاول من القرن الثالث عشر ، لعبت الجاليات الايطالية ، في المدن الصليبية ، دورا كبيرا في الصراع الذي اندلع بين الجبيلليين والجولفيين (٧) . فمن المعروف أن هذا الصراع كان في حقيقته صراع بين البابوية والامبراطورية ، وقد دارت رحاه أصلا في ايطاليا . الا أنه كان ينعكس دائما على الايطاليين المقيمين خارجها أيضا (٨) . وكان لابد للجاليات الايطالية في المدن الصليبية « أن تتأثر تأثرا مباشرا بسياسات دولها الام فالحرب بين جمهورية جنوة وجمهورية بيزا ، كان يعني الحرب بين الجاليات الجنوية والبيزاوية في المدن الصليبية (٩) . ولهذا فقد انتقل الصراع بين الجبيلليين والجولفيين الى الجاليات الايطالية ، وتكررت بينها حوادث العنف والاصطدامات المسلحة في شوارع المدن الصليبية ، وبشكل خاص في عكا ، بين الجنوية ، الذين كانت مدينتهم الام الى جنب الجولفيين وبين البيازنة ، الذين كانت مدينتهم الام الى جانب الجبيلليين (١٠) .

وكان أن وصل النزاع بين الجاليات الايطالية الى ذروته بوصول حملة الامبراطور فردريك الثاني الى الساحل الشامي عام ١٢٢٨ م (١١) . حيث جلبت هذه الحملة معها الصراع بين الجولفيين والجبيلليين وذلك لان

(6) Runciman, Hist. of The crusades , 111 PP. 193 FF. mayer, The crusades P. 240 ; Idem, ' The commune ' P. 461 . , Hill, Hist. Cyprus, 111, P. 42

(٧) الصراع بين الجبيلليين والجولفيين هو في حقيقته صراع بين الامبراطورية والبابوية، والجبيلليون Ghibelline هم دوقات أسرة هوهنشتاوفن ، نسبة الى قلعة في اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم ، وهم انصار الاباطرة والجولفيون Guelf هم أمراء سكسونيا. وهم أنصار البابوية . وكان لهذين الحزبين أثر كبير في سير الحوادث في المانيا وايطاليا في هذه الفترة . انظر تفصيل ذلك : عاشور : أوربا العصور الوسطى . ج ٢ ، ص ٣٥٩ – ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ .

(8) Ludolph , op. cit., P. 54 .

(9) Smail, op. cit. P. 60 .

(10) Ludolph , op. cit., 54 .

(١١) عن حملة فردريك الى الشام انظر : عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ١١ (١٩٦٣) ، ص ١٩٥ – ٢١٣ .

الامبراطور حاول أن ينتزع من البارونات الصليبيين الاعتراف بحقه في مملكة بيت المقدس الصليبية باعتباره زوجا لابنه الامبراطور ، حنا دي‌برين، يولاند ، ومن ثم بحق ابنه كونراد من يولاند في وراثه المملكة (١٢) . ووقف معظم البارونات بزعامة حنا ابيلين ، صاحب بيروت ، في وجه المطالب الامبراطورية ، وشكل هؤلاء البارونات والتجار في عكا قومونا لحماية المملكة الصليبية من فردريك الثاني وعينوا حنا ابيلين محافظا على القومون (١٣) .

والذي يهمنا من هذا الصراع الطويل ، بين الجولفيين والجبيلليين ، في المدن الصليبية هو انقسام الجاليات الايطالية . فقد وقف البيازنة الى جانب الحزب الامبراطوري ودعموا مطالب فردريك وحقوقه في مملكة بيت المقدس (١٤) ، وذلك تمشيا مع سياستهم في ايطاليا القائمة على التحالف مع الجبيلليين (١٥) . في حين وقف الجنوية والبنادقة الى جانب البارونات الصليبيين والحزب المعادي للامبراطور فردريك في المدن الصليبية . وقامت السفن الجنوية – أثناء النزاع بين القوات الامبراطورية وقوات حنا ابيلين – بنقل المحاربين الصليبيين من عكا وبيروت الى قبرص وبالعكس . ويؤكد المؤرخ نوفار ، الذي عاش هذه الاحداث كشاهد عيان ، أن سفنا جنوية اشتركت في مهاجمة القوات الامبراطورية عند صور (١٦) .

ونود أن نؤكد أن الصراع بين هذه الاطراف قد انعكس على العلاقات بين الجاليات التجارية الايطالية في المدن الصليبية . حيث اندلعت أعمال العنف بين الجنوية والبيازنة في شوارع عكا . وفي الوقت ذاته أخذ كل طرف من الطرفين المتنازعين في جذب القوى التي تدعمه عن طريق تجديد الامتيازات التجارية القديمة واضافة امتيازات جديدة . ومما يدل على ذلك أن حنا ابيلين وقع معاهدة مع الجنوية في أبريل عام ١٢٣١ م ، منحهم

(12) Novar, The wars Frederick II against The Ibelins in Syria and Cyprus, PP. 78 — 87 ; 187 — 88, 207 — 208

(13) Novar, op. cit., PP. 136 — 37 ; 144 ; Mayer, ' The commune ' , PP. 444 — 45 .

(14) Novar, op. cit., P. 91 .

(15) Ludolph, op. cit., P. 54 .

(16) Novar, op. cit., PP. 98 — 101 ; 136 — 39 ; 171 — 72 ; 177 — 78 .

فيها امتيازات تجارية واقطاعية في مملكة بيت المقدس وقبرص . وذلك مقابل دعمهم له بحريا في صراعه مع القوات الامبراطورية (١٧) . ويبدو أن الفتنة بين البيازنة والجنوية في عكا قد قامت ثانية في مارس من عام ١٢٤٩ م ، واستمرت قرابة شهر . والدليل على ذلك عدم تمكن الايطاليين من تقديم السفن التي طلبها لويس التاسع أثناء ذلك ، لنقل قواته من قبرص الى مصر آنذاك (١٨) .

وعلى أية حال فان هزيمة الجبيلليين ووفاة الامبراطور فردريك الثاني عام ١٢٥٠ م قد أدت الى ضعف الجبيلليين في ايطاليا والمدن الصليبية معا ، بحيث لم يعد البيازنة منافسين خطيرين للجنوية أو للبنادقة في شرق البحر المتوسط ، بل تركزت المنافسة بين الجنوية الذين ازدهرت تجارتهم ازدهارا كبيرا في المملكة الصليبية في عكا ، وبين البنادقة ــ الذين كانوا يعملون على احتكار تجارة المدن الصليبية وشرق البحر المتوسط عامة (١٩).

ان أخطر المنازعات التي نشبت بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية، خلال القرن الثالث عشر ، لم تكن بدافع دعم مرشح للعرش ضد مرشح آخر ، ولم تكن نتيجة صراعات الجولفيين والجبيلليين ، وانما كانت نتيجة احقاد ومنافسات اقتصادية بين المدن الايطالية . ولقد ركز المؤرخ المعاصر ديفتري تركيزا كبيرا على أن « الجشع الاقتصادي » كان وراء كل أشكال المنافسات والصراعات التي نشبت بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية خلال القرن الثالث عشر (٢٠) .

ويعتقد كوندر Conder أن رغبة المدن الايطالية في السيطرة على التجارة الشرقية كان السبب في كل المنازعات التي نشبت بين هذه المدن في الشام خلال الحقبة الصليبية(٢١). ونظر بيرن Byrne الى مسألة النزاع بين الجنوية والبنادقة ، بصفة خاصة في المدن الصليبية ، من زاوية أخرى،

(17) Ibid., PP. 136 ; 144 ; 148 — 49 .
(18) Hill, Hist. of cyprus, 11, P. 141 .
(19) Lane, Venice, A maritime Republic, P. 73 .
(20) de Vitry, op. cit., PP. 66 — 67 .
(21) Conder, op. cit., 305 .

اعتمادا على العقود التجارية غير المنشورة ، الموجودة في ارشيف جنوة ، ورأي أن سقوط القسطنطينية بيد اللاتين عام ١٢٠٤م أدى الى طرد البنادقة للجنوية من الاسواق البيزنطية من جهة والى تركيز الجنوية لنشاطهم التجاري في الشام ، وذلك كتعويض للخسارة التي لحقت بهم في بيزنطة من جهة ثانية (٢٢) . وبالتالي أصبحت المنافسة بينهم وبين البنادقة أمرا لا مفر منه . ويبدو أن التنافس الاقتصادي بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية كان اكثر حدة مما كان عليه في بيزنطة ومصر ، وربما السبب في ذلك أن كل مدينة تجارية ايطالية عملت على احتكار تجارة المملكة الصليبية واقتصادها لنفسها ولهذا كان النزاع بينهم أمرا حتميا لتحقيق ذلك (٢٣) .

وكانت أول حرب بين الجنوية والبنادقة في الشام هو الذي عرف باسم « حرب دير القديس سابا في عكا » في أواسط القرن الثالث عشر . وكانت هذه الفتنة نتيجة سلسلة من حوادث العنف التي تبادلها الطرفان في عكا منذ عام ١٢٥٠ م ، حيث قتل البنادقة تاجرا جنويا في المدينة ، وثارت على أثر ذلك الجالية الجنوية فيها وهاجمت الحي البندقي ونهبته، وكان هذا الحادث البداية الحقيقية للشعور العدائي الذي أخذ يتبادله الطرفان في المملكة الصليبية (٢٤) .

ولم تمض عدة سنوات حتى استأنف الطرفان المنازعات بينهما (١٢٥٦م) . وكان السبب المباشر في ذلك النزاع هو دير قديم مكرس للقديس سابا ، يقع على هضبة تفصل الحيين البندقي والجنوي في مدينة عكا . وادعى كل من الطرفين حقه في ملكية هذا الدير . وقطع الجنوية المناقشات الدائرة ، حول هذه المسألةوقاموا بالاستيلاءعلى الدير(١٢٥٦م). واحتج البنادقة على هذا الاجراء ، فرد الجنوية على ذلك بمهاجمة الحي البندقي في عكا ، حيث نهبوا ــ بالتعاون مع المستوطنين البيازنة ــ منازل البنادقة ومستودعاتهم ، اضافة الى سفنهم الراسية في الميناء . وتمكن البنادقة ــ بصعوبة بالغة ــ من طرد المهاجمين ، الجنوية والبيازنة ،

(22) Byrne, ' Commercial contracts ' , P. 134 .
(23) Thompson , op. cit., 1, P. 411 .
(24) Lane, Venice, A maritime Republic, P. 73 ; Lamonte, The Feudal monarchy, PP. 240 F., Heyd, 1, PP. 344 FF.

خارج حيهم (٢٥) .

وانقسمت القوى اللاتينية في الشام ازاء هذا الصراع ، فالجنوية تلقوا الدعم من فيليب مونتفرات ، صاحب صور ، الذي قام بطرد البنادقة من الثلث الذي يملكونه في صور بموجب معاهدة عام ١١٢٤ م (٢٦) . وتلقى الجنوية التأييد من بعض الفئات من التجار والفرسان الاسبتارية اضافة الى آل امبرياتشو في جبيل . في حين وقف الى جانب البنادقة كل من التجار المرسيليين والفرسان الداوية والتيتون وبوهيموند السادس صاحب انطاكية ، اضافة الى أصحاب يافا وارسوف (٢٧) . كما انضم البيازنة الى البنادقة في هذا النزاع ووقعوا معاهدة دفاعية هجومية فيما بينهم سنة ١٢٥٧ م (٢٨) .

وعندما علم الجنوية بتغير موقف البيازنة وتحالفهم مع البنادقة ، هاجموا الحي البيزاوي في عكا ، وبذلك سيطروا سيطرة كاملة على ميناء المدينة . الا أنه سرعان ما وصل أسطول بندقي بقيادة لورينزو تيبولو Lorenzo Tieplo الى عكا (١٢٥٧) وقام باحراق السفن الجنوية الموجودة في الميناء . ودارت معركة قاسية، في شوارع عكا ، بين المستوطنين البنادقة والمستوطنين الجنوية ، انتهت بهزيمة الجنوية وامتلاك البنادقة لدير القديس سابا المتنازع علية الا أنهم لم يتمكنوا من طرد الجنوية خارج حيهم في المدينة (٢٩) .

---

(25) Pernoud , The crusades, P. 265 ; Smail, The Crusades, P. 35, Boase, op. cit., P. 203, Runciman , Hist. of the crusades, 111, PP. 282 — 83 .

(26) William of tyre , op. cit., 1, PP. 552 — 56 .

(27) Smail, PP. 35 — 36 ; Boase, P. 203, Byrne ' Genoese Colonise ' , P. 178 ; Runciman , Hist. ; of Crusades, 111, PP. 283—84 ; Thompson, 1, P. 421, Hill, op. cit., 11, P. 150

(٢٨) عفاف صبرة : المرجع نفسه ، ص ١٦٨ .

(29) Lane A maritime, P. 73 ; Hodgson , op. cit., PP. 121 — 22, 163 ; Brown , An Historical Sketch of the Republic , P. 142, Thompson, 1, P. 421 .

لم يكن بامكان القومون الجنوي السكوت عما حل برعاياه في عكا ، فأرسل اسطولا في العام التالي (١٢٥٨ م) الى مدينة صور ، وبعد أن انضم اليه من بها من الجنوية اتجه نحو مدينة عكا تسانده قوات فيليب مونتفرات . ودارت معركة عنيفة بين السفن الجنوية والسفن البندقية قرب عكا ، انتهت بهزيمة الجنوية . وفي الوقت ذاته هاجم البنادقة وحلفاؤهم الحي الجنوي في المدينة واعملوا فيه السلب والتدمير ، ومن ثم تقاسمه البنادقة والبيازنة . وعندها قرر الجنوية ـ والحالة هذه ـ التخلي كليا عن مدينة عكا ، واتخذوا ـ منذ ذلك الوقت ـ مدينة صور مقرا رئيسيا لجالياتهم ونشاطاتهم التجارية في المدن والامارات الصليبية (٣٠) .

وحمل البنادقة المنتصرون معهم من عكا الى وطنهم الأسرى الجنوية، وكان يمكن لهؤلاء أن يكونوا ورقة رابحة بأيدي البنادقة في مفاوضات السلام بينهم وبين الجنوية . وذلك لانه لم يكن بامكان البندقية استرقاق الأسرى الجنوية . فالمدن الايطالية اعتادت الا تسترق رعايا بعضها اطلاقا ، والأسرى بينها كان يتم اطلاق سراحهم وافتدائهم بموجب معاهدة . ولكن أسرى حرب دير القديس سابا في عكا قد تم اطلاق سراحهم بناء على طلب البابا والحاحه (٣١) .

ورغم أن حرب دير القديس سابا قد انتهى باتفاقية سلام عاجلة بين الاطراف المتنازعة ، بعد توسط البابا وملكة قبرص وعدد من الامراء الصليبيين عام ١٢٥٩م ، الا أن الاصطدامات بين الايطاليين استمرت بين حين وآخر في مياه عكا وصور ، والحقت أبلغ الاضرار وافدحها في التجارة والملاحة على طول الساحل الشامي (٣٢) . ومهما يكن من أمر فانه لم يسمح للجنوية بالعودة الى حيهم في مدينة عكا قبل عام ١٢٦٨ ، علما بأن هذا الحي اصبح خرابا ، في حين لم يتمكن البنادقة من العودة الى صور قبل

---

(30) Mayer, The crusades, P. 263 ; Brown, An Historical P. 143 ; Lane, A maritime, P. 73 ; Beazley, 11, P. 426 ; Hodgson, PP. 122 — 23 .

(31) Lane A maritime, P. 73 .

(32) Fleming, op. cit., PP. 118 — 19 ; Boase, P. 203 ; Hodgson P. 124 ; Mayer, The crusades, P. 264 ; Runciman, Hist. of the crusades , 111, PP. 286 ; 324 .

عام ١٢٧٧ م (٣٣) .

أما عن النتائج الاقتصادية والسياسية لهذا النزاع بين الجنوية والبنادقة ، فلا ريب أنها كانت ذات آثار هامة لا بالنسبة الى الجاليات الايطالية ونشاطاتها التجارية في المدن الصليبية ، وانما أيضا بالنسبة الى مستقبل الوجود الايطالي والصليبي معا في بلاد الشام . فقال لين Lane أن حرب دير القديس سابا قد مكن البنادقة من أن يصبحوا السادة الحقيقيين في مدينة عكا على منافسيهم الجنوية (٣٤) . في حين يرى هايد Heyd وهل Hill أن طرد الجنوية من عكا – نتيجة حرب دير سابا – هو الذي دفع الجنوية للتحالف مع الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوغوس عام ١٢٦١م لاسقاط الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وطرد البنادقة من الاراضي البيزنطية (٣٥) . واعتقد بعض المؤرخين المحدثين ، امثال فليمنك Fleming وكوندو Conder (٣٦) . أن الهزيمة التي حلت بالجنوية ، في حرب دير القديس سابا ، قد دفعت بهم الى التحالف (١٢٦٦ – ١٢٦٧) م مع السلطان الظاهر بيبرس لفتح مدينة عكا (٣٧) . واذا كان الجنوية قد تخلوا عن تنفيذ اتفاقهم مع الظاهر بيبرس نتيجة « استيقاظ شعورهم المسيحي » كما يقول رنسيمان (٣٨) ، الا أن انتصارات الظاهر ضد الصليبيين قد قوبلت بالترحاب من قبل الجنوية (٣٩) .

واذا كان الجنوية لم يتورعوا عن طرح مشروع التحالف بينهم وبين الظاهر بيبرس لفتح عكا انتقاما من البنادقة ، فان البنادقة لم يترددوا

(33) Tafel and Thomas , 111, PP. 150 — 59 . Hill, op. cit., 11, PP. 160, 174 ; mayer, The crusades P. 264 .

(34) Lane, A martitime , P. 73 .

(35) Heyd, 1, PP. 428 — 29 , Hill, 11, P. 154.

(36) Fleming, op. cit., P. 119 , Conder, op. cit., P: 388 : Runciman . Hist. of the Crusades, 111, P. 317 .

(٣٧) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، مخطوط ص ١٠٧٦ .

(38) Runciman, Hist. of the Crusades, 111, P. 317 .

(٣٩) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٤٥ .

بدورهم عن تحريض السلطان المنصور قلاوون لفتح مدينة طرابلس انتقاما من الجنوية . وذلك ان صراعا كان قد نشب بين ورثة بوهيموند السابع (ت ١٢٨٧ م) على حكم طرابلس وتشكل قومون في المدينة ، على غرار قومون عكا ، ما بين عامي ١٢٨٨ – ١٢٨٩ م ، تحت قيادة بارثولو امبرياتشو الجنوي Bartholo Embiraco . ووضع القومون نفسه تحت حماية مدينة جنوه التي عينت بينديتو زكريا Bendito Zaccaria ممثلا لها في طرابلس . واتخذ بينديتو لقب بودستا ، واعطته حكومة جنوه سلطة مطلقة لحماية القومون في طرابلس (٤٠) . الا ان ذلك قد اثار مجموعة من القوى اللاتينية ، وفي مقدمتها البندقية ، التي لم يكن من مصلحتها ان تصبح مدينة طرابلس معقلا للجنوية في الشام . ولذا قام البنادقة بتحريض قلاوون على فتح المدينة ، وان خطرا كبيرا يهدد تجارة السلطان فيما اذا امتلك الجنوية طرابلس . وكانت هذه فرصة طيبة أمام قلاوون ، الذي قام بفتح المدينة بعد ذلك بأشهر قليلة من عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٩ م (٤١) .

ان قصة التنافس بين المدن الايطالية في المدن والامارات الصليبية ، خلال القرن الثالث عشر ، قصة متعددة الجوانب والاشكال ، وعميقة الآثار والنتائج ، وفصلا مظلما في تاريخ النشاط التجاري للمدن الايطالية في شرق البحر المتوسط عامة . وهذا كله يفسر اهتمام معظم المؤرخين الصليبيين ، امثال ديفتري والمؤرخ المجهول ولادولف وغيرهم (٤٢) ، بالمنافسة التي نشبت بين الايطاليين في الاراضي المقدسة ، وآثارها لا على النشاط التجاري فحسب وانما على مملكة بيت المقدس الصليبية ومستقبلها .

(٤٠) انظر تفصيل ذلك في : ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ١٦٥ .

(٤١) انظر تفصيل ذلك في :
Pernoud, P. 104 ; mayer, The crusades, P. 273 , Hill, 11, PP. 182 — 83 .

(42) de vitry , op. cit., PP. 66 — 67 ; Anonymous, op. cit., 29: Ludolph, op. cit., P. 53 , 55 , 57 .

الفصل الثالث

الأحياء التجارية الايطالية في المدن والامارات الصليبية في القرن الثالث عشر

ان قصة استيطان رعايا المدن الايطالية ، في المدن الصليبية ، ارتبطت ارتباطا وثيقا بالامتيازات التجارية وغيرها التي منحهــا الملوك والامــراء الصليبيــون للقومــونات الايطاليــة من جهة ، وبالظــروف السياســية والاقتصادية والاجتماعيــة التي عاشهــا الصليبيون من جهــة ثانيــة ، وبالعلاقات التي قــامت بين المســتوطنين الايطاليين انفسهم ، في المــدن الصليبية ، من جهة ثالثة . فلقد تدفق التجــار الايطــاليون الى « الشرق الصليبي »،واستقروا في الاحياء التي خصصت لهم ، وتحولت جالياتهم فيها الى ما يشبه الدويلات المستقلة أو بالاحرى ــ كما يقول طومسون ــ «كانت هذه الاحياء الايطالية قطعة من الدولة الام في أرض أجنبية » (١) مستقلــة في شؤونها السياسية والاقتصادية والقضائية في قلب المجتمع الصليبي .

ولقد تركزت الجاليات التجارية الايطالية ، منذ بدايتها ، في المــدن الساحلية الصليبية ، ورغم أن التجار الايطاليين قــد منحوا امتيــازات تجارية ، خلال القرن الثــاني عشر ، في المدن الداخلية مثــل مدينة بيت المقدس ، الا أن نشاطهم التجاري في هذه المدن كان محدودا . ومما يبرهن على ذلك انه لم يكن لمدينة بيت المقدس ، على سبيل المثال ، اهمية تجارية ، وذلك لانها لاتقع على الطرق التجارية الكبرى ، فضلا عن أنها تفتقد الــى منفذ بحري . ودليلنا على ذلك هو أن معظم الرحالة الاوربيين الذين زاروا هــذه المدينــة ، خــلال الفتــرة موضــوع البحث ، أمثــال تيوروريك Theodorich ورزبورج . Wurzburg وغيرهمــا ، قــد تحدثوا بتفاصيل وافية عن كل شيء في هذه المدينة ، الا أنهم لم يشيروا للنواحي

(1) Thompson, op. cit., 1, P. 402 .

الاقتصادية او التجارية أو لجاليات ايطالية فيها (٢) . ولهذا لم يستفــد الايطاليون من الامتيازات التي منحت لهم في بيت المقدس ، أو بالاحرى ، بالمقارنة لما تحقق لهم في المدن الساحلية . كما أن المحاولات التي بذلها ملوك وأمراء بيت المقدس ، عن طريق المنح والامتيازات المتكررة والسخية ، قد فشلت في جذب الايطاليين للاستيطان في المدينة ، وبالتالي في جعل بيت المقدس مركزا تجاريا (٣) . وهذا ربما يفسر لنا عجز الصليبيين عن استرداد هذه المدينة بعد أن فتحها صلاح الدين الايوبي عام ١١٨٧ م (٤) وذلــك لعدم قيام المدن التجارية الايطالية بمساعدة الصليبيين . في حين نجحت الصليبية الثالثة في استرداد معظم المدن الساحلية التي كان قد فتحهــا صلاح الدين ، وذلك لانها كانت ذات أهمية فائقة للمدن التجارية الايطالية، فالمصالح الاقتصادية لهذه المدن كانت تفوق الدوافع الدينية للحــروب الصليبية (٥) .

ولهذا كله فقد استقرت الجاليات التجاريــة الايطاليــة في المــدن الصليبية الساحلية . وعلى الرغم من ان الجاليات الرئيسية للايطاليين قد تركزت ــ خلال القرن الثالث عشر ــ في مدينة عكا ، الا أن جاليــاتهم في بقية المدن الساحلية لاتقل أهمية ، من حيث النواحي التجارية ، وذلك لان معظم هذه المدن كانت مراكز تجارية لتبادل المنتجات الشرقية والغربيــة ومحطات تجارية هامة في طرق التجارة الدولية (٦) .

وبعد أن فتح صلاح الدين الايوبي مدينة بيت المقدس (١١٨٧ م)، أصبحت مدينة عكا العاصمة السياسية والتجاريــة للمملكــة الصليبية

(2) Theodorich, op. cit., PP. 18 F. Wurzburg, op. cit:, PP. 5 — 50 .

(3) Prawer, ' The Settlement ' , P. 502 .

(٤) يتحدث المؤرخ آرنول عن جميع القوى الصليبية واللاتينيــة التــي اشتركت في الدفاع عن مدينة القدس عندما هاجمها صلاح الدين الايوبي (٥٨٣/١١٨٧م) ، ولــكن لــم يذكر هذا المؤرخ اطلاقا اشتراك اية قوة ايطالية في الدفاع عن المدينة انظر :

Ernoul, op. cit., P. 60 .

(5) Thompson, 1, P. 412 .

(6) Riley — Smith Nobility, P. 62 .

(١١٩١ – ١٢٩١ م) و « قاعدة بلاد الافرنج بالشام » (٧) ومقرا لملك بيت المقدس أو نائبه ومحطة رئيسية للحجاج المسيحيين (٨) ، ومركزا أساسيا للجاليات الايطالية ونشاطاتها التجارية في « الامارات الصليبية » ونقطة التقاء بالغة الاهمية للطرق التجارية التي تتدفق عليها ثروات الشرق الاقصى ومتاجره (٩) .

وأشاد الرحالة والمؤرخون المعاصرون بموقع عكا وميناءها وبالتالي بالاهمية التجارية التي كانت لهذه المدينة خاصة بعد سنة ١١٩١ م ، حيث أشار بركارد (١٠) Burchard الى اتساع مينائها الذي « يمكن اعدادا كبيرة من السفن من الرسو فيه » (١١) . وذكر ثيودوريك « أن سفن الحجاج كانت ترسو بهم في ميناء عكا وتعود بهم من نفس الميناء الى اوربا » ، وقال « انني قمت بعد السفن التي كانت موجودة في ميناء عكا – عندما كنت هناك – فكانت ثمانين سفينة اضافة الى السفينة التي كنت قد وصلت على ظهرها الى هذا الميناء (١٢) » ، وقد أشار كل من فيتلوس Fetellus ولادولف Ludolph وديفتري Devitry وغيرهم ، الى النشاط التجاري في مدينة عكا » (١٣) . وربما هذا هو الذي مكن اثنين من الرحالة المسلمين ابن جبير وابن بطوطة ، أن يقارنا عكا بمدينة القسطنطينية (١٤) . ولقد استفاد الايطاليون الى أقصى حد ، من الامتيازات التي منحت لهم في مدينة عكا ، حيث تدفقت جموعهم اليها ، واستقرت في الاماكن التي خصصت لهم ، وشكلوا فيها جاليات تجارية غنية (١٥) ، ورغم ان هذه

(٧) ابن جبير ص ٢٤٩ ، وابن بطوطة ص ٦١ .

(8) The city of Jerusalem, P. 73 .

(9) Lane , A Maritime, P. 70 .

(10) Burchard, op. cit., P. 9 .

(١١) قال ابن جبير « ان السفن الكبار ترسو خارج الميناء ، والمراكب الصغار تدخل اليها . انظر : ابن جبير ، ص ٢٥٠ .

(12) Theodorich, op. cit., PP. 59 — 60 .

(١٣) اشار الحنبلي الى ثراء مدينة عكا وكيف كانت « مظنة التجار » الحنبلي شفاء القلوب – مخطوط : ٣١ ، ٣٢ .

(١٤) انظر : ابن جبير ص ٢٤٩ ، ابن بطوطة ، ص ٦١ .

(15) Ludolph , op. cit., P. 53

الجاليات قد تعرضت لازمة عنيفة نتيجة فتح صلاح الدين مدينة عكا (١١٨٧ م) ولكن سرعان ما استرد الايطاليون المناطق المخصصة لهم فيها ، بعد أن نجحت الحملة الصليبية الثالثة في الاستيلاء عليها عام ١١٩١ م (١٦) .

شكلت الاحياء الايطالية في عكا ما يشبه نصف دائرة حول الميناء فالحي الذي خصص للجنوية كان أقرب الى وسط المدينة منه الى الشاطىء ، وبالتالي الميناء (١٧) ، وهذا الامر يدعو الى الاستغراب ، خاصة اذا عرفنا أن الجنوية كانوا الايطاليين الاوائل الذين حصلوا على امتيازات اقليمية في هذه المدينة، نتيجة المساعدة التي قدموها الملك بلدوين الاول لاحتلالها عام ١١٠٤م (١٨) . أما حي البيازنة فقد كان قريبا جدا من ميناء المدينة ، وامتد على طول الجزء الجنوبي الغربي من المدينة باتجاه المعبد (١٩) . أما حي البنادقة فكان بالقرب من الميناء (٢٠) وعلى امتداد حي البيازنة ومحاذاته (٢١) . ورغم أن أحياء الايطاليين هذه لا تجاور الميناء تماما ، الا انه كان بامكانهم جلب متاجرهم من سفنهم مباشرة الى المستودعات الموجودة في أحيائهم (٢٢) .

واشتملت الاحياء الايطالية في عكا على بيوت سكنية وفنادق وحمامات وأفران ومستودعات وطواحين ومحاكم خاصة بهم ومكاتب تجارية وحوانيت وأسواق تجارية ، فضلا عن كنائس تتبع كنائسهم في المدينة الام (٢٣) . كما ضمت هذه الاحياء أبنية للقناصل وحدائق وأبراجا مرتفعة ، وضعت فوقها المنجنيقات وأدوات الحرب والحصار وذلك للتصدي لاي هجوم

(16) Thompson, 1, P. 413 .

(17) Smail, op. cit., P. 75 .

(18) William of Tyre, Hist. of deeds. , 1, PP. 454 — 56 .

(19) Conder, PP. 409 — 410 ; Smail , P. 75 .

(20) William of Tyre, op. cit., 1, P. 554 .

(21) Conder, PP. 409 — 410 ; Smail, P. 75 .

(22) Riley — Smith , ' Government ' , P. 118 .

(23) Tafel and Thomas, 1, doc. 30 ; PP. 66 — 75 ; Byrne, ' Genoese trade ' P. 195 , Pernoud, P. 192 .

قد يوجه ضدها (٢٤) .

وكان معظم سكان الاحياء الايطالية في عكا تجارا ، اضافة الى أعداد كبيرة من الصناع والحرفيين الايطاليين الذين استقروا في هذه الاحياء أيضا (٢٥) ، كما اعتاد موظفو المدن الايطالية « البندقية وجنوه وبيزا »، أن يمضوا جزءا من السنة في أحياء جاليتهم في الشرق ، قبل أن يعودوا الى ايطاليا (٢٦) ، بالاضافة الى أن رجال الدين ، الذين قدموا من المدن الايطالية للقيام بالطقوس الدينية ، قد التحقوا بالكنائس التي تضمها أحياؤهم في عكا (٢٧) . كما أقام في الاحياء القناصل الايطاليون والموظفون الذين يساعدونهم في أعمالهم فضلا عن قضاة المحاكم الايطالية (٢٨) .

وحددت المعاهدات ، التي عقدت بين المدن الايطالية والامارات الصليبية ، طبيعة العلاقة بين الجاليات الايطالية والقوى اللاتينية الاخرى في المدن الصليبية . فمن حيث المبدأ كانت الجاليات التجارية الايطالية تابعة الى مدنها الاصلية الام . ورغم أن هذه الجاليات الايطالية كانت ترتاب في الطبيعة الاقطاعية لنظام الحكم في المملكة الصليبية (٢٩) ، الا أنها شاركت في الدفاع عن المدينة الصليبية التي عاشوا فيها ، اذا تعرضت هذه المدينة الى هجوم . ولكن لم يكن المستوطنون الايطاليون مسؤولين عن أي خدمات أخرى مهما كان نوعها ، فلم يكن يطلب منهم المشاركة في الاعداد أو الانضمام الى أية حملة عسكرية صليبية ، وعندما كانوا يفعلون ذلك فقد كان يتم في ظل معاهدة خاصة . كما لم يكن التجار الايطاليون مسؤولين عن الاضرار أو الخراب الذي يلحقه القراصنة الذين ينتمون الى المدينة الام في ممتلكات

(٢٤) عفاف صبرة : علاقة البندقية بمصر والشام ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

(25) Ludolph, op. cit., PP. 51 ; 53 .

(26) Smail, op. cit., P. 60 .

(27) Prawer, The latin Kingdom., P. 190 .

(28) A nonymous, op. cit., P. 29 .

(29) Thompson, 1, P. 409 .

أو أراضي المملكة الصليبية (٣٠) . وقد نص امتياز عام ١٢٢١ م ، الذي منحه حنا ايبلين – صاحب بيروت – للجنوية والبنادقة (٣١) ، أن هؤلاء غير مسؤولين عما يلحقه أبناء وطنهم من القراصنة بممتلكات حنا من أضرار وأخطار (٣٢) .

وأدركت الجمهوريات الايطالية أهمية المركزية في ادارة جالياتها في الشرق الصليبي . ولهذا عينت كل منها ممثلا عنها على رأس جالياتها في المدن الصليبية . وكان يعتبر رؤساء هذه الجاليات من بين السادة الكبار في مملكة بيت المقدس ، ولعبوا دورا هاما في الشؤون الداخلية لهذه المملكة (٣٣) . واتخذ هؤلاء الممثلون عكا مقرا لهم . فالممثل البندقي في عكا اتخذ لقب بايلو Bailo (٣٤) ، وكان الى جانبه شخصية رسمية أخرى اتخذت لقب الفيكونت Viscount (٣٥) ويعتبر البايلو هو ممثل القومون البندقي في المدن الصليبية كلها (٣٦) . وكان مستقل تماما عن حكومة بيت المقدس ، ومركزه يشبه الى حد كبير منصب السفير حاليا (٣٧) . وكانت مهماته واسعة للغاية حيث كان يشرف على شؤون الجاليات البندقية في « الامارات الصليبية » كلها ، ومن حقه عقد معاهدات بالنيابة عن القومون البندقي ، وتقديم الاحتجاجات الى السلطات الصليبية اذا تعرضت مصالح القومون ورعاياه في المدن الصليبية الى خطر (٣٨) . ولقد اثبت لامونت Lamonte ان البايلو البندقي في عكا كان يصنف بنفس الدرجة التي كان

(30) Lamonte, Feudal monarchy , PP. 239 — 271 .

(31) Novar, op. cit., PP. 136 ; 144 .

(32) Riley — Smith, Nobility , P. 77 .

(33) Lamonte, The Feudal monarchy, PP. 227 .

(34) Novar, op. cit., P. 205 .

(٣٥) الفيكونت : هو المشرف على ممتلكات البنادقة في مدن الشام ووكيل البندقية لدى السلطات الصليبية . انظر : عفاف صبرة علاقة البندقية بمصر والشام ، ص ٧ ، حاشية (٥) .

(36) Novar, op. cit., P. 205 ; Hodgson , P. 121 .

(37) Hodgson, P. 121 .

(38) Ibid., PP. 138 — 39 .

عليها الـدوق البنـدقي في كريت والبودسـتا Podesta البندقـي في القسـطنطينية ، بمعنى أنه كان واحـدا من أبرز موظفي الدولـة البندقية في أعمال ما وراء البحار ، كما بين أن جميع الممثلين البنادقة ، في انطاكية وبيروت وطرابلس وصور وحلب والاسكندرية ، كانوا تحت زعامة البايلو Bailo البندقي المقيم في عكـا (٣٩) .

أما بالنسبة الى ادارة الحي التابع لمدينة بيزا في عكا فقد عينت حكومة بيزا ممثلا عن قومون بيزا في المدن الصليبية اتخذ لقب قنصل (٤٠) وكان مقره في الحي البيزاوي في مدينة عكا . وكانت مسؤوليته الرئيسية ادارة شؤون الجاليات البيزاوية في المدن الصليبية ورعايتها . وكان يساعـده هيئة من الموظفين البيازنة مهمتهم الاشراف على شؤون التجار البيازنـة وتنظيم العلاقة بين الجاليات البيزاوية والحكومات الصليبية (٤١) .

أما ادارة الاحياء التابعة لمدينة جنوه في المدن الصليبية فقد تطورت تطورا واسعا خلال القرن الثالث عشر ، وذلك لان عائلة امبرياتشو كانت قد احتكرت ادارة جميع الاحياء الجنوية في المدن الصليبية بالنيابة عـن مدينة جنوه (٤٢) خلال القرن الثاني عشر كله . ولقد برهن بيرن Byrne أن أهم العوامل التي مكنت هذه العائلة من احتكار الادارة كانت جهل قومون جنوة نفسه وعدم خبرته في شؤون الحكم وادارة ممتلكاته فيمـا « وراء البحار » بالاضافة الى أن الفئة الوحيدة التي كانت قادرة على ادارة أحياء جنوة في الشام آنذاك ، هي العائلات الاقطاعية التي كانت تسيطر على جنوة نفسها ، والتي تتحدر اصلا من الكونتات ذوي الخبرة الواسعة في الادارة والتنظيم ، وكانت عائلة امبرياتشو أشهر هذه العائلات الاقطاعية (٤٣) .

ولقد استمر إحتكار آل امبرياتشو في ادارة الاحياء الجنوية في المدن

(39) Lamonte, The Feudal monarchy , PP. 234 , n. 2.
(40) Riley — Smith , Nobility , P. 70 .
(41) Thompson, 1, P. 403 .
(42) William of Tyre, Hist. of deeds, vol , 1, PP. 476 — 76 .
(43) Byrne, ' Genoese colonise ' PP. 145 — 48 .

الصليبية حتى أواخر القرن الثاني عشر (٤٤) . حيث بدات هذه العـائلة منذ عام ١١٩٠ م تقريبا في استخدام أفراد جنويين من خارج العائلة ، في حين تفرغ آل امبرياتشو للشؤون السياسية الكبرى في جمهورية جنـوة و « الامارات الصليبية » معا (٤٥) . وحدث تطور هام في ادارة الاحياء التابعة لجنوة في المدن الصليبية خلال القرن الثالث عشر ، فقد بدأ القومون الجنوي نفسه يتولى مسألة ادارة جالياته في المدن الصليبيـة ، وجمعت الادارة كلها بيد اثنين من الموظفين الكبار ، الاول اتخذ لقب قنصل (٤٦) ، والآخر اتخذ لقب فيكونت ، وكان القنصل ممثلا لحكومة القومون الجنوي (٤٧) ، في حين كان الفيكونت مسؤولا عن الشؤون القضائية في الحي الجنوي (٤٨) وكانت مدة خدمة القنصل والفيكونت — من حيث المبدأ — سنة واحـدة فقط ، ولكن كانت تمتد هذه الفترة مدة أطول ، وبالتالي حتى يتم تعيين من يحل محلهما ، ويساعد القنصل مجلس من المستوطنين الجنوية (٤٩) . واتخذ القنصل والفيكونت عكا مقرا لهما . ولكن بعد طرد الجنويـة من المدينة الاخيرة عام ١٢٥٨ م ، نتيجة النزاع حول دير القديس سابا ، فقد انتقل المقر الرئيسي للادارة الجنوية في المدن الصليبية الى مدينة صور (٥٠) .

وفي عام ١٢٧٤ م حـدث تطور آخر في ادارة أحيـاء جنوة في المملكة الصليبية ، حيث عيّن القومون الجنوي شخصا لادارة احيائه هذه باسم البودستا بدلا من القنصل ، واتخذ البودستا مدينة صـور مقرا لـه أيضا (٥١) . ويلاحظ أن هذا التطور في ادارة الجنوية لاحيائهم في المـدن الصليبية يشبه التطور الذي حدث في ادارة المستوطنات التجارية الجنوية

(44) Mayer, The Crusades, P. 175 .
(45) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 154 — 56 .
(46) Novar, op. cit., P. 208 .
(47) Ibid., P. 208 .
(48) Byrne, ' Genoese colonise ' , P. 165 .
(49) Ibid. , PP. 166, 172 .
(50) Ibid., P. 116 Beazley, op. cit., 11, P: 426
(51) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 167 — 68 .

في القسطنطينية في الفترة نفسها تقريبا ، وذلك لان اتساع ممتلكات الجنوية وازدهار تجارتهم في بيزنطة بعد استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١ م ، كما بينا ، جعل الممثل الجنوي في القسطنطينية يتخذ لقب بودستا بدلا من فيكونت (٥٢) .

ولقد استمر البودستا الجنوي في منصبه حتى سقوط المملكة الصليبية في أواخر القرن الثالث عشر . واستبدال لقب القنصل بالبودستا لم يغير في حقيقة الامر من المهمات الملقاة على عاتقه وانما زادها تعقيدا واتساعا ، نتيجة ازدهار التجارة الجنوية في المدن الصليبية في تلك الحقبة. فقد كان على القنصل والبودستا تنفيذ أوامر القومون الجنوي وتعليماته التي ترسل اليهما بواسطة مندوبين رسميين . وكان يجب عليهما أيضا ارسال تقارير دورية ومنتظمة الى حكومتهما حول أحوال الرعايا الجنوية ، التجار منهم والمستوطنين ، والقضايا السياسية والاقتصادية في المدن الصليبية كما كان بامكان القناصل والبودستا توقيع المعاهدات وتصديق الاتفاقيات التجارية واقامة التحالفات الدفاعية والهجومية بالنيابة عن القومون الجنوي (٥٣) .

وكان أمرا اساسيا ، بالنسبة الى الاحياء التجارية الايطالية في المدن الصليبية ، العمل على حماية نفسها من الاخطار والاضرار التي تنتج عن تقاضي رعاياها في محاكم أو بلاد أجنبية ، حيث اللغة والقوانين غير مألوفة لديهم أو بالاحرى غريبة عنهم ، ولهذا سعى الايطاليون للحصول على امتيازات تمكنهم من التقاضي أمام محاكم خاصة بهم ، في معظم الظروف الممكنة (٥٤) .

ونجح الايطاليون في الحصول على استقلال قضائي من الملوك والامراء الصليبيين ، رغم أن هذا الاستقلال كان محدودا ، الا انه كان انتصارا كبيرا للمستوطنين الايطاليين في « الامارات الصليبية » ودليلنا على ذلك هو ما

(٥٢) انظر الفصل الرابع من الباب الثاني مما سبق .

(53) Byrne, ' Genoese colonise ' ; PP. 168 — 69 , 177 — 78
Hitti, op. cit., P. 620 .

(54) Smail, op. cit., PP. 40, 59, 75 .

ورد في المعاهدة التي كان قد وقعها البنادقة مع امراء بيت المقدس عام ١١٢٤ م ، حيث أوضح وليام الصوري (٥٥) — أثناء عرضه لبنود هذه المعاهدة — طبيعة الاستقلال القضائي الذي تمتع به البنادقة في المدن الصليبية ، والذي استمر حتى أواخر القرن الثالث عشر . وتضمنت المعاهدة أن المنازعات التي تنشب بين البنادقة أنفسهم يجب أن يتم النظر فيها أمام محاكم بندقية خاصة بهم ومنهم ، كما يحق للبنادقة ممارسة سلطتهم القضائية على كل السكان غير البنادقة الذين يعيشون في أحيائهم وممتلكاتهم تماما كما يمارسون سلطتهم القضائية على أبناء جلدتهم . أما في حالة نشوب نزاع بين البنادقة وغيرهم ، فانه يجب أن يرفع الامر الى المحاكم التابعة لحكومة مملكة بيت المقدس لان المدعى عليه ليس من رعايا البندقية (٥٦) .

وتمتعت الجاليات الجنوية والبيزاوية — في المدن والامارات الصليبية — باستقلال قضائي مماثل لما تمتع به البنادقة ، وفق الشروط نفسها ، سواء أكانوا مستوطنين أم تجارا مؤقتين (٥٧) .

واتفق معظم الباحثين على أن الامتيازات القضائية ، التي تمتع بها المستوطنون والتجار الايطاليون في المدن الصليبية ، قد توسعت تدريجيا خلال القرن الثالث عشر ، بحيث شملت معظم الجنح البسيطة ، في حين ان جرائم القتل والاغتصاب والخيانة التي يرتكبها أحد أفراد الجاليات الايطالية ، كان ينظر في أمرها أمام المحاكم الملكية La Court Roau كما أنه عندما يتسلم الايطالي اقطاعا من أمير صليبي ، فانه يجب على الايطالي التقاضي في شؤون هذا الاقطاع الممنوح له أمام المحكمة الملكية . كما اتفق معظم هؤلاء الباحثين على أن رئاسة المحاكم الخاصة بالايطاليين، والاشراف على الشؤون القضائية وأمور العدالة عامة في الجاليات الايطالية، كانت من المهمات الرئيسية للبايلو البندقي والقنصل البيزاوي ، والقنصل أو البودستا الجنوي أو لنوابهم (٥٨) .

(٥٥) انظر : نص المعاهدة : William of Tyer, 1, P. 555 .

(56) Lamonte, The Feudal Monarchy , PP. 264 — 65 , 269.

(57) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 178 — 79 .
Riley — Smith, Nobility., P. 109 .

(58) Tafel and Thomas, 111, PP. 150 — 59 ; Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 178 — 79 . Boase, PP. 35 — 36 ; mayer, The Crusades, P. 173 .

ورغم أن مدينة عكا كانت مركزا رئيسيا للجاليات الايطالية ونشاطاتها التجارية في المدن الصليبية – كما بينا – الا أن الايطاليين وجدوا بكثرة ايضا في معظم المدن الساحلية الاخرى التي يحتلها الصليبيون ، وذلك لانهم منحوا في هذه المدن امتيازات مشابهة تماما للامتيازات التي حصلوا عليها في مدينة عكا . ولهذا فقد شكلوا فيها جاليات تجارية ، اختلفت في حجمها وفعاليتها التجارية وفقا لحجم المدينة ذاتها وأهميتها التجارية وظروفها السياسية .

ولعل اهم المدن التي وجد فيها الايطاليون بكثرة هي :

انطاكية : استقر الايطاليون في هذه المدينة في الاحياء التي خصصت لهم فيها ، وقد اشتملت على فنادق وكنائس ومستودعات فضلا عن بيوت سكنية ومحاكم خاصة بهم (٥٩) . وتركز النشاط التجاري للايطاليين في هذه المدينة بنقل متاجر الشرق الاقصى التي تتدفق عليها عبر حلب ، وكذلك بالمنتجات المحلية الزراعية منها والصناعية . ويبدو ان الجاليات الايطالية ونشاطاتها التجارية في انطاكية قد ازدهرت ازدهارا حقيقيا منذ أوائل القرن الثالث عشر . وربما يعود ذلك الى أنه لم يحدث انقطاع في عملية استيطان الايطاليين في هذه المدينة في أواخر القرن الثاني عشر كما حدث في معظم المدن الساحلية الصليبية – نتيجة فتوحات صلاح الدين الايوبي لهذه المدن . ومن المعروف ان صلاح الدين لم يفتح مدينة انطاكية ، وبالتالي لم تتعرض أحياء الايطاليين وجالياتهم فيها الى الازمة العنيفة التي واجهتها احياؤهم وجالياتهم في المدن الاخرى . يضاف الى ذلك أنه من المحتمل أن عددا كبيرا من الايطاليين غادروا المدن الصليبية التي فتحها صلاح الدين وانضموا الى بني جلدتهم المستوطنين في مدينة أنطاكية . وربما هذا كله يفسر لنا ما رواه ابن عبد الظاهر عن ثراء انطاكية عندما فتحها الظاهر بيبرس (١٢٦٨ م) حيث قال أنه « لما فرغ الناس من نهب

---

(59) Tafel and Thomas ; 1, docs. 46 , 55 , PP. 102 — 103 . 133 — 35 ; Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 141 — 42 ; Lamonte, The Feudal monarchy, PP. 270 — 71 .

انطاكية رسم السلطان باحضار المكاسب للقسمة .. وأحضر القبان لوزن الاموال والمصاغ والذهب والفضة ، وطال الوزن فقسمت النقود بالطاسات والشربات ... ولم يزل السلطان راكبا فرسه الى المغرب وما ترك شيئا حتى قسمه من الاموال والقماش والمصاغ .. (٦٠) » .

طرابلس : ومنح الايطاليون امتيازات تجارية واقليمية وقضائية في مدينة طرابلس . وسبق الاشارة الى أن الاستيطان الحقيقي للجاليات الايطالية في هذه المدينة قد بدأ عمليا في النصف الاول من القرن الثالث عشر ، وربما يعود ذلك الى أن الامتيازات التي حصل عليها التجار الايطاليون في هذه المدينة قد جاءت متأخرة نسبيا بالمقارنة مع الامتيازات التي تحققت لهم في المدن الصليبية الاخرى خلال القرن الثاني عشر . وتركز نشاط الجاليات الايطالية في هذه المدينة في نقل المنتجات المحلية التي اشتهرت بها المدينة ، مثل الحرير والصناعات الزجاجية وقصب السكر ، وفي نقل متاجر الشرق الاقصى التي تدفقت على طرابلس عبر حلب وحمص وحماه الى الغرب الاوربي (٦١) .

جبيل : رأينا فيما سبق أن أسرة امبرياتشو الجنوية قد امتلكت هذه المدينة القريبة من بيروت ، وقامت بادارتها بالنيابة عن القومون الجنوي مقابل مبلغ سنوي . وفي عام ١١٨٧ م فتح صلاح الدين مدينة جبيل ، وخرب سورها (٦٢) وكان « صاحب جبيل بين الاسرى » ، ولكن سرعان ما تمكن آل امبرياتشو من استرداد المدينة (٥٩٣ هـ / ١١٩٣ م) (٦٣) وظلت هذه العائلة في ادارة جبيل واستثمارها (٦٤) حتى سقوط المملكة الصليبية عام ١٢٩١ م . ورغم أن جبيل كانت مركزا هاما للقومون الجنوي (٦٥) ، ورغم ان الجنوية كانوا معفيين من كافة الرسوم والضرائب

---

(٦٠) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، مخطوط : ص ١١٣٨ – ١١٣٩ .

(61) Burchard, P. 16. Ludolph, PP. 47 — 48 , Beazley , 11, P. 440 ;; Boase, P. 38 .

(62) William of Tyre, Hist. of deeds, 1, PP. 476 — 78 .

(63) de Vitry , op. cit., 102 .

(64) Novar, op. cit., P. 95, Byrne, ' Genose colonise ' , P. 154 .

(65) Mayer, The Crusades , P. 175 .

في المدينة (٦٦) ، الا أن آل امبرياتشو قد أصبحوا أفصالا تابعين لامراء طرابلس ، وارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع الصليبيين في المدن المجاورة مما ادى الى ذوبان هذه الاسرة الجنوية في المحيط الصليبي (٦٧) .

بيروت : تشكلت جاليات ايطالية في هذه المدينة نتيجة الامتيازات التي منحت لهم من قبل الملوك والامراء الصليبيين ، كما بينا في بداية هذا الباب (٦٨) . وازدهرت هذه الجاليات التجارية ازدهارا ملموسا منذأوائل القرن الثالث عشر (٦٩) ، وبشكل خاص في ظل آل ابيلين(٧٠) . ولقد تركز النشاط التجاري للجاليات الايطالية في بيروت بتصدير المنتجات المحلية والمتاجر القادمة من الشرق الاقصى عبر دمشق (٧١) .

صور : كانت صور مدينة حصينة في المرتبة الثانية من حيث الاهمية ــ بعد مدينة عكا ــ بالنسبة الى التجار الايطاليين ، حتى أن ابن بطوطة يفضل ميناء صور على ميناء عكا لان الاخير لا يحمل الا السفن الصغار (٧٢) ، كما أن ابن جبير يقول « انها أنظف من عكا سككا وشوارع ... وأهلها ألين وخلائقهم أسجح ومنازلهم أوسع وأفسح » (٧٣) .

وكثر البنادقة في صور ، منذ أوسط القرن الثاني عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر ، حيث تدفقوا الى المناطق التي خصصت لهم داخل المدينة بموجب معاهدة عام ١١٢٤ م (٧٤) . كما أنهم امتلكوا بساتين حول

---

(66) Lamonte, The Feudal monarchy, P. 267 .

(٦٧) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٦٨) انظر الفصل الاول من الباب الثالث مما سبق .

(69) Riley — Smith, Nobility, P. 66 .

(70) Lamonte, The Feudal monarchy, P. 265 .

(٧١) انظر : ابن سعد : كتاب الجغرافيا ، ص ١٥٠ ، الاب اليسوعي : « بيروت وتاريخها وآثارها » ، ص ٦٧١ .

(٧٢) ابن بطوطة ص ٦٢ .

(٧٣) ابن جبير ص ٢٥٠ .

(74) Fulcher, op. cit., P. 270 .

المدينة اشتهرت بزراعة الليمون والبرتقال(٧٥) . الا أن الجالية البندقية في صور تعرضت الى أزمة عندما حرمهم فيليب مونتفرات من امتيازاتهم فيها ، نتيجة تحريض الجنوية (٧٦) ، ولم يتمكن البنادقة من العودة الى المناطق التي خصصت لهم في المدينة الا في عام ١٢٧٧ م (٧٧) . ولعل أبرز نشاطات البنادقة في صور كانت سك عملة ذهبية ، فعندما سقطت صور بيد الصليبيين (١١٢٤ م) حصل البنادقة على حق سك العملة ، واصدر هؤلاء عملات في صور تحمل نقوشا وعبارات عربية تمجد الله والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وتحمل التأريخ الهجري ، واسم الخليفة الآمر الفاطمي (١١٠١ ــ ١١٣٠) ، الذي صدرت في عهده . وحتى عهد فيليب مونتفرات لم يفقد البنادقة هذا الامتياز في سك العملة (٧٨) . ويعتقد فليمنج Fleming أن المصالح التجارية للبنادقة كانت تقتضي سك هذه العملات الذهبية لجذب تجار الشرق (٧٩) . ويعتقد كل من واطسون وماير أن الدنانير التي أصدرها البنادقة والصليبيون في الامارات الصليبية (٨٠) ، كانت تقليدا الدنانير الاسلامية (الفاطمية) الى أبعد الحدود . ولقيت الدنانير التي سكها البنادقة والصليبيون (٨١) رواجا في المتاجرة مع المسلمين (٨٢) .

أما الجاليات التجارية الاخرى من الجنوية والبيزاوية في مدينة صور فقد ازدادت أعدادها منذ عام ١١٨٧ م (٨٣) ، أي عندما حصل الجنوية والبيازنة على كثير من الامتيازات التجارية ، نتيجة مساعدتهم لكونراد

---

(75) Lane, A maritime, P. 72 .

(76) Hodgson, Venice, P. 139 .

(٧٧) انظر ما سبق ، ص ١٥٢ .

(78) Watson, ' Back to Gold — and Silver ' P. 10.

(79) Fleming, Hist. of Tyre ; P. 160 .

(80) Watson, op. cit., P. 10 . mayer, The Crusades, P. 163 .

(٨١) انظر رأي واطسون حول العلاقة بين العملات الذهبية التي أصدرها البنادقة والصليبيون في صور وعكا والنظم النقدية السائدة في البحر المتوسط .
Watson, op. cit., PP. 9 — 11 .

(82) Ibid., P. 10 ; Mayer , The crusades, P. 163 .

(83) Mayer, ' The Commune of Tyre ' , PP. 450 — 52 .

مونتفرات في الدفاع عن صور ضد صلاح الدين الايوبي . وكسب الجنوية موطىء قدم لهم في صور بعد عام ١١٨٧ م ولكن سرعان ما ازدهرت جالیتهم فيها ، واصبحت اكثر فعالية ونشاطا من بقية الجاليات الايطالية (٨٤) ، وذلك نتيجة تحالفهم مع اصحاب صور منذ اواخر القرن الثاني عشر ، وحتى نهاية المملكة الصليبية الثانية .

كما أقام التجار الايطاليون مراكز تجارية لهم في بقية المدن الصليبية الساحلية . ولكن حجم هذه المراكز وفعالياتها التجارية تراوحت بالنسبة للمدينة وموقعها وثروتها فضلا عن التسهيلات الملاحية في مينائها . ولهذا فعلى الرغم من وجود التجار الايطاليين في العديد من المدن الساحلية الاخرى ، مثل اللاذقية ويافا وحيفا ، الا أنهم قاموا بدور أقل أهمية وفعالية مما كانت عليه جالياتهم في بقية المدن الصليبية التي أشرنا اليها .

(84) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 142 , 160 .

الفصل الرابع

أنواع السلع والمتاجر المتبادلة بين الجمهوريات الايطالية والامارات الصليبية بالشام في القرن الثالث عشر

لقد كان أمرا أساسيا بالنسبة الى الجمهوريات الايطالية ، تنظيم رحلات أساطيلها التجارية ، من والى الموانىء الصليبية ببلاد الشام . واعتمدت هذه الرحلات في معظمها على النقل البحري ، وبالتالي على حركة الرياح في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وأشار ابن جبير الى ذلك بقوله « ان التجار لا ينزلون الى عكا بالبضائع الا في فصلي الربيع والخريف ، وذلك لان الريح الشرقية لا تهب في تلك الجهات الا في هذين الفصلين » واضاف هذا الرحالة قائلا : « والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايو ، والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وقد تكون خمسة عشر يوما أو اكثر أو أقل والرياح الغربية أكثر دواما (١) » .

واعتادت المدن التجارية الايطالية ، خلال القرن الثالث عشر ، القيام برحلتين تجاريتين في كل سنة ، من الغرب الى «الشرق الصليبي» وبالعكس. وكانت الرحلة الاولى وهي رحلة الربيع تبدأ في شهر مارس من كل سنة ، في حين كانت تبدأ الرحلة الثانية ، وهي رحلة الخريف ، في شهر سبتمبر (٢) . ورغم أن هذه المواعيد كانت للرحلات التجارية ، الا أنها كانت متفقة أيضا مع موسم الحج الى الاماكن المقدسة من جهة ومع مواعيد انعقاد الاسواق والمعارض التجارية في المدن الصليبية من جهة أخرى(٣).

(١) ابن جبير : رحلته ص ٢٥٦ .

(2) Mayer, The Crusades, P. 220 . Byrne, " Commercial Contracts ' , PP. 131 — 33 ' , Riley — Smith, Nobility ' . , P. 67 ; Hodgson , P. 20 , Smail, P. 77 ; Boase, P. 38 ; Tolkowesky, P. 124 .

(٣) انظر صبرة : ص ١١٧ — ١١٨

واكد ماير (٤) أن البندقية قد حددت يوم ٨ مايو كموعد نهائي لعودة اسطولها التجاري من الاماكن المقدسة بالنسبة الى رحلة الربيع ويوم ٨ اكتوبر كموعد نهائي لعودة أسطولها التجاري بالنسبة الى رحلة الخريف (٥) . ومن جهة ثانية فقد كانت الحكومة الجنوبية تكتفي ، احيانا ، برحلة سنوية واحدة الى « الشرق الصليبي » ، حيث كانت تبحر سفنها التجارية من جنوة الى الشام في ٢٤ سبتمبر ، وبعد أن يقضي التجار الشتاء في المدن الصليبية تعود بهم هذه السفن الى جنوة في شهر مايو أو يونيو (٦) .

وعلى الرغم من أن الرحلات التجارية الى المدن الصليبية ، في القرن الثالث عشر ، قد أصبحت اكثر دقة وانتظاما مما كانت عليه في السابق ، الا انها كانت غير قادرة — في بعض الاحيان — على الالتزام بدقة في مواعيد وصولها واقلاعها ، وذلك نتيجة تعرضها للعديد من الاخطار ، مثل الحروب في الغرب الاوربي (٧) ، أو القرصنة عبر البحر المتوسط ، أو الاحداث الداخلية في الجمهوريات الايطالية ذاتها ، أو الكوارث الاقتصادية ، الناتجة عن الحرائق أو الاوبئة أو غير ذلك (٨) . ويضاف الى ذلك كله أن الاساطيل التجارية الايطالية لم تتخذ الطريق المباشر — دائما — أثناء ذهابها أو ايابها من الموانىء الصليبية ، فسفن البندقية كانت تتوقف أثناء رحلتها الى عكا في نيقروبونت فترة وجيزة من الوقت (٩) ، كما أن سفن جنوة التي اعتادت التوجه مباشرة الى عكا دون توقف في الطريق ، كانت تتوقف في طريق

---

(4) Mayer, The Crusades, P. 220 .

(٥) سافر ابن جبير على ظهر مركب جنوي من عكا الى صقلية في يوم ١٨ اكتوبر . انظر : ابن جبير : رحلته ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(6) Byrne, ' Commercial contracts ' PP. 132 — 33 .

(٧) كانت الجمهوريات الايطالية تضطر الى الغاء بعض رحلاتها الى الشرق فمثلا عندما قام بربروسا بنشاطات عسكرية في لمبارديا عام ١١٥٥ م وعام ١١٥٩م ، وعام ١١٦٢م ، فقد تأثرت جنوة بهذه النشاطات وبالتالي فقد ألغت كل رحلاتها التجارية الى الشرق في هذه السنوات . انظر :

Ibid., P. 132, n. 1 .

(8) Smail, P. 77 ; Byrne, 'Commercial Contracts, PP. 131—32

(9) Hodgson, op. cit., P. 120 .

عودتها في الاسكندرية أو صقلية (١٠) او بجاية (١١) . كما أن بعض السفن التجارية الايطالية كانت تقوم في بعض الاحيان برحلات تجارية ما بين المدن الصليبية والمدن البيزنطية أو المدن المصرية قبل عودتها الى المدينة الام (١٢) .

وادى ازدهار النشاط التجاري للمدن الايطالية في «الشرق الصليبي» الى التوسع في صناعة السفن التجارية وقدرتها على الحمولة . ففي القرن الثاني عشر كان معدل حمولة السفينة المتجهة من ايطاليا الى المدن الصليبية حوالي / ٥٠٠ / طنا ، في حين أصبحت الحمولة في القرن الثالث عشر حوالي (٦٠٠) طنا (١٣) . وهذا التطور قد لبى حاجات التجارة وأصبحت القوافل التجارية لا تضم مئات التجار والمستثمرين فحسب ، وانما أيضا أعدادا هائلة من المواطنين الايطاليين الذين استثمروا أموالهم في هذه الرحلات التجارية (١٤) .

واهتمت الجمهوريات الايطالية اهتماما بالغا في حماية أساطيلها التجارية في رحلاتها الى المدن الصليبية ، وتأمين سلامة سفنها وتجارها وبضائعها جميعا . فمن جهة كانت السفن التجارية تبحر تحت اشراف أو قيادة مندوب رسمي عن حكومة القومون (١٥) ومن جهة ثانية كان يرافق السفن التجارية مراكب حربية Galleys تصل أعدادها الى أربعين مركبا أحيانا (١٦) ، لحمايتها من اخطار الملاحة ، وبشكل خاص من القرصنة . الا أن أبرز أشكال الحماية التي حققتها الجمهوريات الايطالية ، لرحلاتها التجارية الى المدن الصليبية كانت حماية أرواح وممتلكات وبضائع تجارها في حالة تحطم أو غرق سفينة من سفنها التجارية قرب السواحل الصليبية . فقد كانت العادة في العصور الوسطى أن سلع وبضائع السفن التي تتحطم او تغرق على ساحل ما تصبح ملكا للسيد أو الامير صاحب الساحل ، وكان الامر نفسه بالنسبة الى مصير ممتلكات الاجانب الذين

---

(١٠) لقد توقف المركب الجنوي الذي سافر على ظهره ابن جبير من عكا ، في طريق عودته ، في جزيرة صقلية ، انظر : ابن جبير ، ص ٢٦٢ .

(11) Byrne, ' Commercial Contracts ' , PP. 132 — 33 .
Prawer, op. cit., P. 396.

(١٢) انظر ايضا ابن جبير ، ص ٢٨٢ ، ايضا :

(13) Boase, op. cit., P. 37 .

(14) Byrne, ' Geooese Colonise ' , PP. 160 — 61 ; Smail, P. 60

(15) Tolkowsky , op. cit., ; P. 124 .

(16) Byrne, ' Commercial Contracts' , P. 131 .

يموتون في أي مجتمع اقطاعي غريب (١٧) . وتمكنت المدن الايطالية — بموجب المعاهدات التي أبرمتها مع الملوك والامراء الصليبيين — من تحقيق الحماية لتجارها ، في حالة تحطم سفنهم أو غرقها ، واستعادة السلع والبضائع التي يتم انتشالها (١٨) . كما استطاعت المدن الايطالية أن تضمن حماية ممتلكات تجارها الذين يموتون في المدن الصليبية ويتضح ذلك مما أورده وليام الصوري ، اثناء عرضه لبنود معاهدة عام ١١٢٤ م ، بين البندقية وأمراء بيت المقدس ، حيث يقول « اذا تحطمت سفينة أحد البنادقة — قرب الموانىء الصليبية — فانه يجب حماية ممتلكاته وتسليمها الى ورثته أو أبناء وطنه » كما يبين هذا المؤرخ أيضا أنه « في حالة وفاة أحد البنادقة المقيمين في المدن الصليبية ، فان يجب وضع ممتلكاته تحت تصرف البنادقة سواء ترك وصية أو لم يترك » (١٩) . ولقد برهن سمث Smith — Riley على انه اذا مات أحد البنادقة في المدن الصليبية أو غرق قرب سواحلها ، فيجب أن تسلم ممتلكاته لابناء وطنه المستوطنين في هذه المدن ، أما اذا تعذر وجود أحد من أبناء وطنه وقتذاك ، فان هذه الممتلكات، والحالة هذه ، يجب أن تحفظ ريثما يصل أمر أو رأي دوج البندقية في مصيرها (٢٠) .

أما عن أهم أنواع المتاجر والسلع التي حملها التجار الايطاليون الى الغرب الاوروبي في عصر الحروب الصليبية فأهمها المنسوجات والزجاج والسكر والشب وزيت الزيتون ، فضلا عن سلع ومتاجر الشرق الاقصى التي تصل الى بلاد الشام .

وكانت المنسوجات الحريرية في مقدمة صادرات الايطاليين الى الغرب الاوربي ، حيث ورثت انطاكية وطرابلس — بصفة خاصة — انتاج هذه المنسوجات من العصور القديمة والبيزنطية والاسلامية(٢١) . وطبقا لما قاله

(١٧) يحدثنا ابن جبير أن عددا من المسافرين ، الذين كانوا على المركب الجنوي الذي أقلهم من عكا الى صقلية ، قد ماتوا أثناء الرحلة في البحر ، وقد ورث رئيس المركب ما كان بحوزتهم من ممتلكات وسلع ، وذلك « لانها سنة عندهم في كل من يموت في البحر » . انظر: ابن جبير ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(18) Lamonte, Feudal monarchy , P. 236 .

(19) William of Tyre, Hist. of deeds., P. 555 .

(20) Riley — Smith, Nobility, P. 78 .

(21) Prawer, op. cit., P. 393 .

بركارد(٢٢) : Burchard — الذي زار الاماكن المقدسة في الشام في منتصف القرن الثالث عشر — فقد كان في طرابلس وحدها حوالي أربعة آلاف انسان يعملون في صناعة الحرير . كما أن الحرير الابيض ، الذي كان يصنع في صور ، قد شكل مصدرا رئيسيا للحي البندقي الموجود في تلك المدينة(٢٣). واكد جوتين Goitein أن الحرير كان مادة هامة جدا للتصدير من المدن الصليبية في الشرق ، وأن أوربا قد شكلت سوقا رئيسيا مربحا للحرير الدمشقي الذي صدره التجار الايطاليون من المدن الصليبية(٢٤) ، كما جلب هؤلاء أيضا الاقمشة والمنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية من المدن الصليبية ، حيث لعبت أسواق مدينتي عكا وبيروت دورا هاما في تصدير هذه المنسوجات(٢٥) ، فالملابس الكتانية النابلسية كانت لها سمعة عالمية(٢٦) ، كما أن منطقة الرملة قد اشتهرت بالصناعات الصوفية ، فضلا عن أن سهول عكا وطبرية كانت ذائعة الصيت في انتاج القطن وتصديره(٢٧) .

أما عن الزجاج : لقد شاهد بنيامين التطيلي (٢٨) في انطاكية عشرة يهود يحترفون صناعة الزجاج ، كما أن المؤرخ الصليبي المعاصر دي فتري(٢٩) de Vitry قد أكد أن صناعة الزجاج النقي والصافي كانت قائمة في صور وعكا من قبل صناع مهرة وبارعين . واذا كان الزجاج الصوري قد احتل المرتبة الاولى نتيجة نوعيته العالمية ، فان الصناعات الزجاجية ، في طرابلس وصيدا وعكا وانطاكية والخليل وطبرية ، كانت لا تقل أهمية من حيث كونها مادة للتصدير ، على يد التجار الايطاليين ،

(22) Burchard, op. cit., P. 16 .

(23) Tafel and Thomas, 11, P. 329 .

(24) Goitein, ' The main industries ' , PP. 174 — 75 .

(25) Burchard, P. 100 ; Tafel and Thomas, 11, P. 233 .

(26) Runciman, Hist. of the Crusades, 111, P. 353 .

(27) Prawer, PP. 393 — 400 .

(٢٨) بنيامين : الرحلة ، ص ٨٧ .

(29) de Vitry, PP. 92 — 93 .

الى الغرب الاوربي(٣٠) . ويعتقد بعض الباحثين المحدثين(٣١) أن الصناعات الزجاجية في البندقية قد استمدت أصولها من الصناعات الزجاجية في بلاد الشام ، وبشكل خاص في مدينة صور التي كانت ذات شهرة واسعة في أوربة(٣٢) .

ويعتبر السكر من أهم صادرات الشرق الى الغرب الاوربي في عصر الحروب الصليبية واشار المؤرخ دي فتري(٣٣) الى زراعة قصب السكر بوفرة في ضفاف نهر الاردن وأماكن عديدة أخرى في بلاد الشام . كما أكد المؤرخ بركارد(٣٤) أن صيدا تعتبر من المدن التي اشتهرت بزراعة قصب السكر ، وقال أيضا أنه كان يزرع بكميات كبيرة في صور وتشكل دخلا سنويا كبيرا لصاحبها(٣٥) ، وأشار الى توفر قصب السكر أيضا في طرابلس(٣٦) . الا أن صور كانت في الحقبة الصليبية مركزا رئيسيا لتصنيع السكر(٣٧) . ولقد كشفت الدراسات الحديثة أن التجار الايطاليين قد قاموا بنقل السكر وقصب السكر الى الغرب الاوربي ، وكانت هذه السلعة ذات أهمية فائقة ، خاصة اذا علمنا أن معظم أوربا كانت قد اعتادت ، حتى الحقبة الصليبية على استخدام العسل وعصير الفواكه كمصادر رئيسية للحلوى(٣٨) .

أما عن معدن الشب : فقد أكدت المصادر الصليبية المعاصرة توفر

(30) Boase, P. 38 ; Fleming, PP. 94 — 95, Runciman, Hist. of crusades, 111, P. 354 ; Riley — Smith, Nobility, PP. 63 — 64.

(31) Conder, PP. 333 — 34 ; Prawer, P. 394 ; Hayness , Glass, P. 59 .

(32) Hayness, Glass ; PP. 59, 65, 70 — 71 .

(33) de Vitry, PP. 27 — 28 , 30 .

(34) Burchard, P. 14 .

(35) Ibid., PP. 10 — 12 .

(36) Ibid., P. 16 .

(37) Fleming, P. 95 ; Thompson, 1, P. 405 .

(38) Prawer, P. 364, Runciman, 111, P. 353 .

مادة الشب على شواطىء البحر الميت(٣٩) ، ورغم أن كمية هذه المادة ونوعيتها أقل بكثير مما كان متوفرا في مصر والاراضي البيزنطية في نفس الحقبة ، الا أن التجار الايطاليين قاموا بتصديرها من الموانىء الصليبية الى الغرب الاوربي نظرا لاهمية هذه المادة في الصناعات الاوربية المعاصرة(٤٠) .

كما صدر التجار الايطاليون من المدن الصليبية أنواعا أخرى من المنتجات الزراعية والصناعية المحلية ، وبشكل خاص زيت الزيتون ، الذي كان يصدر الى أوربا الغربية(٤١) ، ويسمونه بالزيت الطيب ، حيث اشتهر الساحل الشامي والخليل والقدس ونابلس(٤٢) بزراعة الزيتون . كما أن البنادقة قد استثمروا بساتين الزيتون الواقعة حول صور . كما صدّر الايطاليون الخمور أيضا ، وبشكل خاص من انطاكية واللاذقية(٤٣) . ويعتقد رنسيمان Runciman أن نسبة كبيرة من فواكه الشام قد تم تصديرها الى اوربا ، مثل عصير الرمان الذي كان يشاهد على موائد الاثرياء في ايطاليا (٤٤) . كما ان الايطاليين قد صدّروا الى الغرب الاوربي عددا من الصناعات الشرقية التي تدفقت على الاسواق الصليبية ، مثل الاسلحة وصناعة الحفر والتكفيت في المعادن المجلوبة من دمشق ، فضلا عن الحلي الذهبية والفضية(٤٥) . وكذلك الصناعات الفخارية ذات الاشكال والنقوش المختلفة . وكانت يافا قد اشتهرت بشكل خاص في هذه الصناعات(٤٦) . ويضاف على ذلك كله فقد جلب الايطاليون من الموانىء الصليبية النيلة من وادي الاردن(٤٧) ، والبلسم من أريحا وبيت المقدس

(39) Anonymous P. 39 ; Wurzburg, P. 60 ; Fetellus , P. 12 .

(40) Boase, P. 38 .

(41) Prawer, PP. 361, 395 .

(٤٢) يقول ابن بطوطة « ومدينة نابلس من اكثر بلاد الشام زيتونا » ابن بطوطة : رحلته ، ص ٦٠ .

(43) Smail, P. 78 ; Prawer, P. 395 .

(44) Runciman, Hist. of the crusades, 111, P. 353 .

(45) Pernoud, P. 192 ; Conder, PP. 333 — 34 .

(46) Tolkowesky, P. 125 .

(47) Prawer, P. 394 .

لاهميته في الطقوس الدينية(٤٨) ، فضلا عن القار (الزفت) أو القطران الذي كان متوفرا بكميات كبيرة على ضفاف البحر الميت(٤٩) . كما جلب التجار الايطاليون الصابون من انطاكية وطرابلس وعكا(٥٠) .

وتجدر الاشارة الى أن المنتجات المصرية الزراعية منها والصناعية ، قد تدفقت على أسواق المدن الصليبية ، بواسطة التجار المسلمين المصريين منهم والشاميين ، فضلا عن المغاربة ، كما أشار الى ذلك ابن جبير(٥١) وقام التجار الايطاليون بتصدير هذه المنتجات المصرية من الموانيء الصليبية الى الغرب الاوربي ، وفي مقدمتها الشب والنطرون والبلسم فضلا عن قصب السكر والكتان(٥٢) .

لقد قام التجار الايطاليون بتصدير المواد والسلع التي تنتجها المدن الصليبية دون وساطة أحد(٥٣) . ولكن نتيجة الطلب المتزايد على سلع الشرق الاقصى في الغرب الاوربي ، فان جزءا رئيسيا من النشاط التجاري للايطاليين ، في المدن والامارات الصليبية ، قد تركز في تصدير هذه السلع. ولهذا كان لا بد للتجار الايطاليين من الاعتماد على تجار آخرين ، يلعبون دور الوسطاء ، في نقل السلع وجلبها من الشرق الاقصى الى المدن والموانيء الصليبية في الشام . ولما كان جزء كبير من متاجر الشرق الاقصى قد وصل الى الاسواق الصليبية عن طريق الخليج العربي(٥٤) ، وعن طريق البحر الاحمر(٥٥) فقد لعب التجار المسلمون ـ الشاميون منهم والمصريون ـ فضلا

(48) Ibid., 394 ; Runciman, 111, P. 354

(49) Anonymous, P. 39 ; Wurzburg, P. 60 .

(50) Tolkowesky, P. 124 ; T ompson , 1, P. 405

(٥١) ابن جبير ، ص ٢٣٥ .

(52) Riley — Smith, Nobility , P. 63 .

(53) Beazley , 111, P. 440 .

(٥٤) لقد انتقلت سلع الشرق الاقصى من الخليج العربي الى بغداد ومنها الى ميناء انطاكية او اللاذقية عبر مدينة حلب ، أو الى ميناء طرطوس واللاذقية عبر مدينة حمص ، أو الى ميناء عكا او طرابلس أو بيروت عبر مدينة دمشق او حمص او حماه . انظر : زكي (نعيم) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١١٨ ـ انظر أيضا : Smail, PP. 57 — 58 ; Boulonis, P. 200 .

(٥٥) انظر الطرق الموصلة بين مصر والشام الى الشرق الاقصى عند القلقشندي : صبح الاعشي ج ٥ ص ٨٦ ـ ٨٧ .

عن التجار المسيحيين الشرقيين ، دورا أساسيا في نقل هذه السلع الى التجار الايطاليين المقيمين في الموانيء الصليبية ، أو المترددين عليها ، والذين قاموا بدورهم بتصديرها الى موانيء الغرب الاوربي (٥٦) . فقد أشارت المصادر المعاصرة الى قيام علاقات واسعة بين التجار المسلمين والتجار الايطاليين ، دون الاهتمام بالعوامل الدينية . فقال ابن جبير : « واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض » . واضاف أن « من أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين (٥٧) » . كما اكد بركارد Burchard ولادولف Ludolph العلاقات الطيبة التي قامت بين التجار المسلمين والتجار المسيحيين في المدن الصليبية ، (وأن عكا كانت تزخر دائما بالتجار والحجاج المسلمين) (٥٨) .

ولعل أهم متاجر الشرق الاقصى التي وصلت الى المدن الصليبية ، والتي نقلها التجار الايطاليون الى أوربا الغربية كانت : التوابل الهندية بأنواعها ، مثل القرفة والفلفل والزنجبيل والهال وجوز الطيب . وكذلك الحرير والخزف من الصين (٥٩) ، والاحجار الكريمة ، مثل اللؤلؤ والياقوت والماس ، من جزيرة سيلان والسجاجيد من فارس وآسيا الصغرى . والنيلة والموسلين من العراق (٦٠) . وكشف جوتين Goitein أن ايران كانت مصدرا رئيسيا للحرير التبريزي (٦١) واضافة الى ذلك فقد نقل الصليبيون الى الغرب الاوربي الفراء الذي يصل الى الاسواق الصليبية

(56) Conder, op. cit., PP. 331 — 32 .

(٥٧) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٣٥ ، ٢٤٥ .

(58) Burchard, P. 103 ; Ludolph , P. 55 .

(٥٩) انظر ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٠ ، ١٣٤ ـ ١٣٦ ، ١٧٦ . أيضا : Pernoud, P. 192 ; Boase, P. 38 , Smail, P. 58 .

(٦٠) ابن سعيد : ص ١٥٧ . ايضا : Riley — Smith, P. 63 ; Pernoud, P. 192 ; Conder, P. 335

(61) Goitein , ' The Main industries ' , P. 176 .

من روسيا (٦٢) .

وتجدر الاشارة الى أن نشاط التجار الايطاليين في نقل سلع الشرق الاقصى من الموانىء الصليبية الى الغرب الاوربي قد تعرض الى عدة أزمات، خلال القرن الثالث عشر ، أدت الى تقلص هذا النشاط واضطرابه . وذلك لان هذه التجارة اعتمدت اعتمادا كبيرا على الظروف السياسية التي سادت بلاد الشام والشرق الاقصى . فعندما بدأت الحروب الصليبية تدفقت معظم المتاجر الشرقية عن طريق البحر الاحمر ، نتيجة ثروة المدن المصرية من جهة والامن الذي حققه الفاطميون على امتداد هذا الطريق من جهة ثانية . وبالتالي فقد انحطت أهمية طريق الخليج العربي — بغداد — الموانىء الصليبية (٦٣) كما أن الفتوحات المغولية في الشرق الاقصى ، خلال القرن الثالث عشر ، قد أدت الى تمزق طرق التجارة المتجهة من الشام الى الشرق الاقصى . أضافة الى أن اكتساح المغول لمدينة بغداد وحلب والمدن الشامية الاخرى في أواسط القرن الثالث عشر ، والحروب التي دارت رحاها في الشام بين المغول والمماليك ، قد أدى ذلك كله الى اضطراب نشاط التجار الايطاليين في نقل سلع ومتاجر الشرق الاقصى من المدن والموانىء الصليبية (٦٤) .

أما بالنسبة الى المتاجر التي قام التجار الايطاليون بجلبها الى المدن والامارات الصليبية ، فقد كانت اما للاستهلاك المحلي داخل المدن الصليبية أو للتصدير ثانية الى أسواق الشام ومصر ، عن طريق التجار المسلمين والمسيحيين الشرقيين ، الذين ازدحموا كما أشرنا سابقا ، في الاسواق والموانىء الصليبية . أو عن طريق التجار الايطاليين أنفسهم الذين تمكنوا من التغلغل ، خلال القرن الثالث عشر ، الى المدن الشامية الداخلية (٦٥) . ولعل أهم هذه السلع والمتاجر كانت الاخشاب . حيث جلب الايطاليون الاخشاب الى عكا ومنها انتقلت الى المدن الاسلامية (٦٦) وكذلك الاسلحة

(62) Conder, 332 .
(63) Runciman, Hist. of the crusades, 111, P. 354 .
(64) Riley — Smith, Nobility., P. 109 .
(65) Baker, med. Routes, P. 15 .
(66) Riley — Smith, Nobility, P. 64 .

مثل الخوذ (٦٧) والسيوف على الرغم من اشتهار السيوف الدمشقية (٦٨) . وكذلك الرقيق (٦٩) ، حيث كانت صور سوقا رئيسيا لتجارة الرقيق (٧٠) . كما كانت عكا سوقا هاما لبيع المماليك ، سواء الذين تم أسرهم في الحملات العسكرية أو الذين كان يجلبهم الايطاليون من منطقة البحر الاسود واليونان وبلغاريا وروسيا(٧١) . وكانت الاقمشة بأنواعها المختلفة ، الصوفية منها والكتانية ، من المواد الرئيسية التي جلبها التجار الايطاليون من الغرب الاوروبي الى المدن الصليبية . فلقد كشف بيرن Byrne عن الدور الكبير الذي لعبته عائلة امبرياتشو الجنوية في تصدير الاقمشة والثياب من أوربا الغربية الى المدن الصليبية ، اعتمادا على الرسائل والتعليمات التي كان يبعثها كبار تجار هذه العائلة الى مندوبيهم في عكا (٧٢) . كما بين براور Prawer الدور الذي لعبه الايطاليون في تصدير الاقمشة الايطالية والمنسوجات الفرنسية الى المدن الصليبية (٧٣) . وجلب الايطاليون الذهب والفراء والجلود والمخمل والخيول الى الاسواق الصليبية ، اضافة الى بعض المواد الكمالية مثل العطور ومواد الزينة والتجميل والمساحيق ، وكذلك العصفر والمصطكي (٧٤) . وتجدر الاشارة الى أن عكا كانت مركزا استهلاكيا كبيرا للعديد من المواد الغذائية التي جلبها الايطاليون مثل الخمور (٧٥) من ايطاليا والقمح من صقلية اضافة الى السمك المملح واللحوم الطازجة والمملحة من مصر (٧٦) .

(67) Byrne, ' Genoese trade ' , 217 — 18 .
(68) Prawer, op. cit., P. 400 .
(69) Byrne, ' Genoese Colonise' , P. 161 .
(70) Fleming, op. cit., PP. 113 — 14 .
(71) Riley — Smith, Nobility, PP. 62 — 63 .
(72) Byrne, ' Genoese colonise ' , P. 158 ; Idem ; ' Genoese trade ' , P. 217 .
(73) Prawer, P. 100 .
(74) Byrne, ' Genoese trade ' , PP. 217 — 218 ; Boulonis, PP. 200 — 201 ; Thompson , 1, P. 405 .
(75) Canon, PP. 155 — 56 .
(76) Riley — Smith ; Nobility , P. 64 .

ويرتبط بموضوع المتاجر الواردة والصادرة ، مسألة اخرى على جانب من الاهمية وهي مسألة الضرائب والمكوس الجمركية التي كان يتوجب على التجار الايطاليين دفعها في الموانىء والاسواق الصليبية . وفي الواقع ليس هناك وضوحا كاملا بالنسبة الى هذه المسألة بل انها كانت موضع نزاع مستمر بين التجار الايطاليين والامراء الصليبيين ، فعلى الرغم من أن الامراء والملوك الصليبيين قد استمروا في تخفيض الضرائب والمكوس التي يتوجب على الايطاليين دفعها ، الا أن الامر كان في مدى تنفيذ هذه الامتيازات والوعود ، فما كانت تنص عليه المعاهدات شيء والتنفيذ شيء آخر (٧٧) . وعلى أية حال سنحاول رسم صورة للضرائب والمكوس الجمركية التي دفعها تجار المدن الايطالية في الموانىء والاسواق الصليبية ، خلال القرن الثالث عشر .

عندما كانت تصل أية سفينة تجارية الى ميناء عكا الصليبي ، كان يتم الاعلان عن وصولها بواسطة قرع الاجراس ، ثم ينطلق قارب صغير مهمته ارشادها الى المرسى المخصص لها ، أو ربما تقوم مجموعة من القوارب الصغيرة بنقل البضائع من السفينة الى الشاطىء ، ثم تجري اربع عمليات رئيسية للمتاجر : الانزال والتسجيل والتخزين والبيع (٧٨) . ولهذا نجد أن المكوس والضرائب قد تعددت وفق هذه المراحل تقريبا حيث فرض الامراء الصليبيون على التجار الايطاليين ضريبة الرسو وضريبة الميناء ، وضريبة السوق (البيع والشراء) وضريبة المغادرة (الاقلاع) (٧٩) . وكانت نسبة هذه الضرائب تختلف من ميناء صليبي الى ميناء آخر ، بل ان السلعة الواحدة ذاتها كانت تختلف الضرائب والرسوم الجمركية المتوجبة عليها من ميناء الى آخر .

ولا حظنا ـ أثناء دراستنا للامتيازات التجارية التي منحها الملوك والامراء الصليبيون للجمهوريات الايطالية ـ أنها قد تضمنت اعفاءات مختلفة من الرسوم والضرائب في المدن والموانىء الصليبية . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نحسم فيما اذا تم تنفيذ كل ما انطوت عليه هذه الامتيازات من اعفاءات جمركية ، لكنه يمكننا القول بأن ما دفعه التجار

(77) Byrne ; ' Genoese trade ' , P. 195 .
(78) Riley — Smith , Nobility., P. 72 .
(79) Ibid., P. 70 .

الايطاليون في المدن والموانىء الصليبية كان أقل بكثير مما كان يدفعه التجار الفرنجة أنفسهم أو التجار الاجانب الذين لا ينتمون الى قومون ايطالي معين .

ومن الصعوبة بمكان أن نحدد نسبة الرسوم الجمركية التي كان يدفعها التجار الايطاليون عمليا ، في الموانىء والاسواق الصليبية ، وذلك لان المصادر المعاصرة لا تشير الى ذلك . فبعضها اكتفى بالقول « أنه تم اعفاء الايطاليين جميعا من كل أنواع الضرائب والرسوم الجمركية » (٨٠) . وبعضها الآخر قد أشار الى المدينة التي تم أعفاء الايطاليين فيها دون أي ذكر الى نسبة الاعفاء أو الرسوم (٨١) . كما ان النصوص التي نشرها المؤرخان تافيل وتوماس ، لا تشير بدقة في معظم الاحيان ـ الى نسبة الرسوم الجمركية ، التي دفعها أو أعفى منها التجار الايطاليون . ولكن الدراسات الحديثة ، المعنية بالتاريخ الاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وصلت الى صورة تقريبية حول هذه المسألة . فأكد ماير Mayer أن هذه الرسوم كانت تتراوح ما بين ٤ر١٦ ٪ و١١ر٢ ٪ من قيمة السلع الشرقية التي كان يجلبها التجار الايطاليون الى الموانىء الصليبية والتي سيعاد تصديرها ثانية . أما بالنسبة الى السلع التي كان يجلبها التجار الايطاليون الى المدن الصليبية بهدف الاستهلاك المحلي فكانت الرسوم المقررة عليها باهظة ، بحيث وصلت أحيانا الى ١٥ ٪ من قيمة السلعة (٨٢) . ومن المؤكد أن التجار الايطاليين قد دفعوا الحدود الدنيا ، في معظم الاحيان ، من هذه الرسوم نتيجة الامتيازات التي أشرنا اليها . فالبنادقة ـ كما أشارت نصوص تافيل وتوماس ـ قد دفعوا رسوما جمركية ، خلال القرن الثالث عشر ، في انطاكية ، تتراوح ما بين ٤ ٪ الى ٥ ٪ على بعض السلع ، مثل الكتان والاقمشة الحريرية ، ورسوما تتراوح ما بين ٥ ٪ الى ٧ ٪ على بعض السلع الاخرى (٨٣) . كما دفع البنادقة في عكا ـ خلال القرن الثالث عشر ـ رسوما قدرها ٩ر١/٣ ٪ من قيمة المتاجر المستوردة من دمشق وغيرها من المدن الاسلامية . أما اذا كانت هذه

(80) Anonymous , P. 29 .
(81) William of Tyre ; 1, P. 554 .
(82) Mayer, op. cit., P. 163 .
(83) Tafel and Thomas, 1, PP. 133 — 35 .

المتاجر في حالة « ترانسيت » ـ عبر عكا ـ الى البندقية كانت الرسوم حوالي ٦/١ر٤ ٪ من قيمتها في حين اذا كانت في حالة « ترانسيت » معاكسة ، أي من البندقية الى المدن الاسلامية ـ عبر ميناء عكا ـ فالرسوم حوالي ٥ ٪ من قيمتها (٨٤) .

ويرتبط بمسألة الرسوم والضرائب ، مسألة الموازين والمكاييل والمقاييس التي استخدمها التجار الايطاليون في الموانىء والاسواق الصليبية . فلما كانت هذه المعايير التجارية متنوعة ومختلفة من مدينة صليبية الى مدينة اخرى ، فقد رغب الايطاليون في استخدام معاييرهم الخاصة . وكان البنادقة اول من تمتع بهذا الامتياز . حيث نصت معاهدة عام ١١٢٤ م ، التي وقعها البنادقة مع الصليبيين ، على حق البنادقة في استخدام مقاييسهم وموازينهم وفقا للشروط التي أشرنا اليها فيما سبق (٨٥) . ويبدو أن الجنوية والبيازنة قد حصلوا بدورهم على حق استخدام معاييرهم التجارية الخاصة ، فيما بينهم وعندما كانوا يبيعون متاجر للآخرين (٨٦) ، الا أن سمث Riley — Smith يبدي تحفظا إزاء الجنوية بصفة خاصة ، حيث يرى أن الجنوية لم يتمتعوا بحق استخدام مقاييسهم وموازينهم الخاصة في عكا ـ كما هو حال البنادقة والبيازنة ـ وانما استخدموا المعايير الملكية ، كما كشف أن الجنوية في صور استخدموا مقاييس وموازين صاحب صور منذ عام ١٢٦٤ م (٨٧) .

وهكذا فقد نظرت الجمهوريات التجارية الايطالية الى الحركة الصليبية على أنها مشروع تجاري . وحصلت هذه المدن على امتيازات تجارية واقليمية وقضائية في المدن والموانىء الصليبية . وأفاد التجار الايطاليون من ثروات بلاد الشام ، وضاعفوا دورهم في التبادل التجاري بين الشرق والغرب . وشكل النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية ،

---

(84) Ibid., 11, PP. 387 — 88 .

(٨٥) انظر الفصل الاول من هذا الباب

(86) Prawer, op. cit., PP. 411 — 12 .

(87) Riley — Smith, Nobility, PP. 71 — 72 ; Idem, ' Government ' , P. 119 .

فصلا هاما في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في العصور الوسطى .

واذا كانت المنافسات التي قامت بين الجمهوريات الايطالية ، للسيطرة على تجارة المدن والموانىء الصليبية ، تعتبر عاملا هاما في انحلال الدويلات الصليبية وسقوطها ، فان « الفضل » الاول في قيام هذه الدويلات واستمرارها حتى أواخر القرن الثالث عشر يعود الى المدن التجارية الايطالية . فبدون مساعدة الايطاليين كان احتلال المدن الساحلية أمرا صعبا ، ولولا الاساطيل الايطالية لكان بقاء مملكة بيت المقدس أمرا مستحيلا ، ولولا النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في المدن والامارات الصليبية لكانت قصة الصليبيين في الشرق أكثر قصرا وأقل أهمية .

الباب الرابع

النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية مع القوى الإسلامية في مصر والشام خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر

الفصل الأول

تطور العلاقات التجارية بين الجمهوريات الايطالية ومصر والشام

لعبت مصر والشام دورا هاما في تاريخ تطور المدن الايطالية التجارية ومستقبلها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وذلك أن مصر امتلكت عوامل جذب للتجار الايطاليين ، فموقعها جعلها حلقة وصل بين الشرق والغرب ، وسوقا هاما للتبادل التجاري بين أفريقية وآسيا وبلاد البحر المتوسط (١) . وقبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، في أواخر القرن الخامس عشر ، كان طريق البحر الاحمر (٢) اهم الطرق التجارية التي تدفقت من خلاله سلع ومتاجر اليمن والشرق الاقصى الى موانىء الغرب الاوربي (٣) . وحتى أواخر القرن الثالث عشر تقريبا فان الغرب الاوربي لم يكن يعرف شيئا عن التوابل الهندية والحرير الصيني سوى انها تأتي عن طريق نهر النيل والبحر المتوسط ، اما فيما يتعلق بالبلدان المنتجة لهذه السلع فقد كانت مجهولة بالنسبة له (٤) وفضلا عن ذلك كله فقد اتصلت مصر ، عن طريق البحر المتوسط بأقصى بلدان الغرب الاوربي مثل الفلاندرز وانجلترا والدول الاسكندنافية (٥) واصبحت بذلك مجمعا لتجار الصين والهند واليمن وأوربا .

ولم تقتصر اهمية مصر ، بالنسبة الى المدن الايطالية ، على موقعها

---

(١) ربيع : النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ، ص ٢٤ .

(٢) عن الطريق التي سلكتها متاجر الشرق الاقصى من اليمن الى الموانىء المصرية عبر البحر الاحمر .

انظر : عاشور : العصر المماليكي ، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ ، سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .

(3) Ludolph von Suchem , Description of the Holy land., P. 84 .

(4) Heyd, op. cit., 1, P. 383 .

(5) Beazley, op. cit., 11, PP. 458 — 59 .

في حركة التجارة الدولية أو كونها محطة رئيسية لسلع ومتاجر الشرق الاقصى ، وانما امتدت هذه الاهمية لتشمل الثروة الاقتصادية التي امتلكتها . وذلك لان مصر كانت مصدرا رئيسيا لعدد من السلع ذات الاهمية البالغة بالنسبة الى المدن الايطالية والغرب الاوربي بصفة عامة ، مثل الشب والسكر والنطرون والبلسم وغيرها (٦) .

واذا كانت المدن الايطالية قد انجذبت الى مصر للحصول على السلع الشرقية والمصرية ، فان موانىء مصر ومدنها كانت تشكل ، منذ القرن العاشر ، سوقا رئيسيا لتصريف العديد من السلع والمتاجر التي نقلها التجار الايطاليون من الغرب الاوربي الى الموانىء المصرية مثل الخشب والحديد والقار والرقيق (٧) . وبذلك فقد كان وليام الصوري على حق في قوله أن الاسكندرية « سوق العالمين » (٨) .

ولم تكن الشام أقل أهمية عن مصر بالنسبة الى النشاط التجاري للمدن الايطالية التجارية ومستقبلها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فقد تدفقت متاجر الشرق الاقصى الى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسيا الصغرى ومصر (٩). وشكلت المدن الداخلية الشامية ، مثل دمشق وحلب ، محطات تجارية بالغة الاهمية مابين الشرق عامة والساحل الشرقي للبحر المتوسط (١٠) . وفضلا عن ذلك فان منتجات الشام كانت ذات أهمية فائقة بالنسبة الى التجار الايطاليين ، وبصفة خاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع والمتاجر (١١) . وبذلك تحولت الموانىء الشامية الى أسواق هامة لا بالنسبة الى متاجر الشرق الاقصى فحسب

(6) Lane, Amaritime., P. 72 .

(7) Niccolo, op., cit., P. 91

(8) William of Tyre , Hist. of deeds., 11, P. 336 .

(9) Beazley , op. cit., 11, PP. 442 — 43 .

(10) Thompson, op. cit., 1, P. 404 .

(11) Lane, Amaritime., P. 286 .

وانما بالنسبة الى المنتجات الشامية والمصرية أيضا (١٢) .

ونتيجة لهذه الاهمية الاقتصادية والتجارية الكبرى لمصر والشام ، فقد حرصت المدن الايطالية أشد الحرص على اقامة أوثق العلاقات التجارية وأوطدها مع حكام هذين البلدين . وكان أمراً طبيعياً الا تقوم العلاقات التجارية ما لم تكن هناك مصالح واضحة للطرفين معا ، ولهذا لم تكن رغبة حكام مصر والشام لتقل عن رغبة الايطاليين في قيام هذه العلاقات التجارية وتطويرها . وعندما كانت تنقطع التجارة بينهما ، نتيجة ظروف سياسية أو عسكرية ، فان الاضرار الاقتصادية التي تلحق بمصر والشام لم تكن لتقل عن الاضرار والخسائر التي تلحق بالمدن الايطالية (١٣) .

وتعتبر البندقية في مقدمة المدن الايطالية ، التي أقامت علاقات تجارية مع مصر والشام ، فمنذ القرن التاسع حملت البندقية الى الموانىء المصرية والشامية بعض المنتجات المتوفرة في المناطق المحيطة بها مثل الاخشاب والحديد (١٤) . وفي القرن العاشر أقامت البندقية علاقات ودية مع الفاطميين في مصر والشام ونقلت الى المسلمين الخشب اللازم لبناء السفن . ولما تعرضت البندقية لتهديدات الامبراطور البيزنطي حنا زيمسكيس بالانتقام منها اذا لم تمتنع عن مد مصر وغيرها من البلاد الاسلامية بالخشب الذي يصلح لعمارة السفن ، أصدرت البندقية أمرا بمنع تصدير هذا النوع من الخشب وسمحت بامدادها بأنواع أخرى من الخشب لا تصلح لانشاء السفن (١٥) .

الا أن البندقية رأت ألا تضحي بمصالحها الاقتصادية في سبيل ارضاء أباطرة الدولة البيزنطية ، فأرسل دوج البندقية بطرس أورسيلو Pietro Orseolo ، بعثات الى مصر عام ٩٩٢ م ، تمكنت من الحصول على امتيازات تجارية لتجار البندقية وسفنها في الموانىء المصرية وبالتالي من استئناف نشاطها التجاري مع المسلمين في مصر والشام (١٦) .

(12) Beazley, op. cit., 11, P. 446 ; Heyd, op. cit., 1, P. 384 .

(13) Runciman, A Hist. of the crusades, 111, P. 356 .

(14) Baker, med. trade routes, P. 8 ; Beazley, op. cit., 11, P. 404 .

(١٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الترجمة العربية ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

(16) Beazley, op. cit., 11, P. 404 .

وخلال القرن الحادي عشر الميلادي ، تمكنت البندقية من كسب موطيء قدم لها في أسواق الاسكندرية وانطاكية وطرابلس الشام ، وقامت سفنها برحلات تجارية منظمة ما بين البندقية وانطاكية والقسطنطينية[١٧] وذلك نتيجة سياسة التسامح التي تبناها الخلفاء الفاطميون بعد وفاة الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١ م) [١٨] . ويلاحظ أن هذه التجارة المربحة التي تحققت للبندقية في مصر والشام ، وقتذاك ، تفسر لنا الاسباب التي جعلت البندقية تتريث في تقديم المساعدة للصليبيين عند قدومهم في الحملة الصليبية الاولى [١٩] .

واستمرت السفن التجارية التابعة للبندقية ، خلال القرن الثاني عشر ، تقوم برحلاتها التجارية ما بين الاسكندرية وعكا وصور والقسطنطينية . وحملت الى مصر الرقيق والحديد والاخشاب . ونقلت من الموانىء المصرية التوابل الهندية والحرير الصيني والمنتجات المصرية وذلك على الرغم من الحروب بين المسلمين والصليبيين [٢٠] . فابن جبير الذي زار ، مصر والشام في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي (١١٧١ – ١١٩٣ م) ، قد أشار الى هذه الحقيقة بقوله : « وما أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين » [٢١] .

وفي الربع الاخير من القرن الثاني عشر لعبت البندقية دورا مزدوجا في علاقتها مع الصليبيين والمسلمين ، فمن جهة كانت تمد يد العون للصليبيين لمواجهة صلاح الدين الايوبي ، وذلك حرصا على امتيازاتها التجارية في المدن الصليبية ، ومن جهة أخرى كانت تقوم بنقل السلع والمتاجر ، وبخاصة الاسلحة وأدوات القتال ، الى المسلمين في مصر والشام. ولقد أشار الى ذلك القاضي الفاضل في الرسالة التي كتبها عن السلطان

(17) Bautier, op. cit., P. 99 .

(18) Stillman ; ' The merchant . ' ; PP. 15 — 16 .

(19) Fleming, op. cit., P. 93 .

(20) Bautier, op. cit., P. 101 ; Thompson ; op. cit., 1, PP. 320—321 ; Ashtor ; E., Asocial and Economic., P. 196 .

(٢١) ابن جبير ، رحلته ، ص ٢٤٥ .

صلاح الدين الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد عام (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) ، والتي ورد فيها « ومن هؤلاء : البنادقة البياشنة والجنوية ، كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ونقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة . وما منهم الآن الا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواصفة ، وانتظمت معه المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون» [٢٢] . وربما هذا كله يفسر لنا السياسة السمحة ، التي عامل بها السلطان صلاح الدين الجالية البندقية في عكا عندما افتتحها عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م [٢٣] .

واحتفظت البندقية بعلاقات ودية مع السلطان الايوبي الملك العادل (١١٩٩ – ١٢١٨ م) وانعكس ذلك على نشاطها التجاري في مصر ، خاصة وأن الملك العادل كان يرغب في تعزيز العلاقات التجارية بين مصر والبندقية ، فاحدى وثائق الجنيزة ، التي تعود الى عام ١٢٠٠ م ، تؤكد استمرار نقل البنادقة ، في سفنهم التجارية ، للاسلحة والاخشاب الى الموانىء المصرية [٢٤] . كما أنه من المعروف أن البندقية أبرمت مع السلطان الملك العادل أقدم معاهدة تجارية وصلت الينا ، مع مصر ، وذلك عام ١٢٠٨ م [٢٥] على يد السفيرين مارينو داندولو Marino Dandolo وبطرس ميخائيل Pietro Michiet واشتملت المعاهدة على منح البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانىء المصرية ، وعلى تعهد السلطان بحماية البنادقة في المناطق التابعة له ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة . كما منحت المعاهدة البنادقة فندقا ثانيا لهم في الاسكندرية ، اضافة الى الفندق الذي كانوا يملكونه في هذه المدينة نفسها . ومن ناحية أخرى انطوت المعاهدة على تعهد البنادقة بألا يقدموا أية مساعدة لاي مشروع صليبي ضد مصر [٢٦] ، ووعدوا بالعمل على كبح جماح الصليبيين ومنعهم من التوجه

(٢٢) انظر النص الاصلي للرسالة : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١٣ ، ص ٨١–٩٠. انظر أيضا : ابو شامة : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٦٢١ – ٦٢٢ .

(٢٣) عفاف صبرة : ص ٣٢ .

(24) Goitein, A mediterranean Society, vol. 1, P. 301 .

(25) Heyd, op. cit., 1, PP. 403 — 404 .

(٢٦) يرى بعض الباحثين أن الملك العادل قد كافأ البندقية بهذه المعاهدة على الجهود التي بذلتها في تحويل الحملة الصليبية الرابعة من مصر الى القسطنطينية .
انظر : Labib. s., Handels. P. 30 ; Heyd, 1, P. 401 .

الى الديار المصرية (٢٧) .

وأرسلت البندقية ، عام ١٢٠٧ — ١٢٠٨ م ، سفيرا من قبلها الى حلب ، يدعى مارينياني Mariniani حيث أبرم هذا السفير معاهدة تجارية مع صاحب حلب آنذاك وهو الامير غياث الدين غازي بن صلاح الدين (٢٨) . وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة ، وتحددت فيها الرسوم التي يتوجب على التجار البنادقة دفعها في حلب بواقع ١٢٪ ، كما تعهد الامير الايوبي بتقديم كافة المساعدات الى التجار البنادقة في مدينته (٢٩) .

ويلاحظ الباحث أن نشاطا غير عادي للبنادقة — في هذه الفترة — مع المسلمين في مصر والشام . ويبدو أن تفسير هذا النشاط يرتبط بأحوال البنادقة في بيزنطة عامة والقسطنطينية بخاصة ، فقد لاحظنا في الباب الثاني من هذا البحث أنه كان هناك محاولة — في هذه الفترة بالذات — لتقويض نفوذ اللاتين والتجار الايطاليين في القسطنطينية وذلك من قبل اباطرة نيقية . ولهذا ربما شعرت البندقية بأن نفوذها ومصالحها التجارية مهددة في القسطنطينية وبالتالي كان عليها ان تبحث عن البديل والتعويض في ميدان آخر ولهذا قامت باتصالاتها ، الآنفة الذكر مع حلب والقاهرة .

وكان أن أخذ التجار البنادقة يتدفقون الى الموانىء المصرية ، على أثر توقيع معاهدة عام ١٢٠٨ م ، بين البندقية والملك العادل حتى أن الايوبيين أخذوا يشعرون بالقلق ازاء التزايد المستمر للتجار البنادقة في الاسكندرية ، والدليل على ذلك ما رواه الحنبلي من أنه في عام ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م « توجه العادل الى الاسكندرية ، لانه اجتمع فيها من تجار الفرنج ثلاثة آلاف رجل وملكان من ملوكهم ، وعزموا أن يثوروا بأهل الاسكندرية فأمسك

(٢٧) انظر :
Mas La trie , Traite des Paix et de commerce, PP. 70 — 72

أيضا : عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٩٣٢ — ٩٣٣ ، عفاف صبرة : ص ٨٤ .

(28) Tafel and Thomas, 11, PP. 62 — 66 .

(29) Heyd, op. cit., 1, PP. 374 — 75 ; Ashtor, op. cit., P. 240 , Conder, op: cit., P. 305 .

العادل التجار وصادر اموالهم واعتقل الملكين وعاد الى القاهرة » (٣٠) .

وعلى الرغم من أن المقريزي نقل هذا الحادث عن الحنبلي (٣١) ، الا أن كلا المؤرخين لا يذكر اسم هذين الملكين او الرئيسين ، وان كانا يشيران الى اعتقاد السلطات المصرية بوجود خطة تستهدف احتلال الاسكندرية بالتعاون مع التجار الفرنجة المقيمين فيها . وطالما أن البنادقة كانوا يشكلون غالبية هؤلاء التجار كما يعتقد بازيلي Beazley (٣٢) ، فان الاضرار التي لحقت بهم من جراء عملية الاعتقال والمصادرة التي قام بها العادل كانت فادحة .

ومع أن المصادر المتداولة لا تحدد التاريخ الذي افرج فيه العادل عن التجار البنادقة ولا تذكر ما اذا كانت السلطات الايوبية قد أعادت اليهم اموالهم وبضائعهم التي صودرت الا أنه يبدو أن البندقية حاولت ايجاد تسوية لهذه المسألة . والدليل على ذلك أن الملك الكامل ، نائب السلطان العادل ، قد استقبل سفيرا بندقيا عام ١٢١٧ م (٣٣) وقد رحب الكامل بكل المطالب التي تقدم بها السفير البندقي ، وأعرب عن رغبته في تفضيل البنادقة على بقية الامم الفرنجية الاخرى (٣٤) . واذا كانت هذه السفارة لا تشير الى الكيفية التي تمت فيها معالجة حادثة الاسكندرية (١٢١٥ م) ، ولا الى مصير التجار البنادقة وأموالهم ، الا انها تدل على عودة العلاقات الودية بين البندقية ومصر وبالتالي استئناف البنادقة لنشاطهم التجاري في مصر .

ولكن سرعان ما ساءت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر ، مرة ثانية ، وذلك نتيجة مشاركة البنادقة في الحملة الصليبية الخامسة التي قادها جان دي برين على مصر (٦١٥ هـ — ٦١٨ هـ / ١٢١٨ —

(٣٠) الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط ، ورقة ٦١ أ .

(٣١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١٧٥ .

(32) Beazley, The dawn of Modern Geography, 11, P. 416 .

(33) Runciman, A Hist., of the crusades , 111, P. 151 .

(34) Heyd, op. cit, 1, P. 404 .

١٢٢١ م) (٣٥) . وعندما احتل الصليبيون مدينة دمياط رحب البنادقة في هذه المدينة بقدوم الصليبيين واستيلائهم عليها (١٢١٩ م) ، وذلك لان البنادقة نظروا الى سقوط دمياط في أيدي الصليبيين على أنه انتصار تجاري اكثر من كونه انتصارا عسكريا (٣٦) . يضاف الى ذلك أن البنادقة كانوا من المتحمسين لرفض شروط الصلح التي تقدم بها السلطان الملك الكامل للصليبيين مقابل الانسحاب من دمياط ، وذلك لان التجار البنادقة، وغيرهم من التجار الايطاليين ، كانوا يرغبون في جعل دمياط مركزا تجاريا لهم ولانها تفوق بأهميتها ، من الناحية التجارية ، مدينة بيت المقدس (٣٧) . وعندما اخذ المسلمون يقاتلون لاسترداد دمياط من أيدي الصليبيين كان التجار البنادقة في مقدمة المدافعين عنها (٣٨) .

وقد استرد المسلمون مدينة دمياط وطردوا الصليبيين منها ، ولم تتخذ الحكومة المصرية أية اجراءات ضد التجار البنادقة في مصر ، على الرغم من الدور الذي قامت به البندقية في الحملة الصليبية الخامسة ، في حين اتخذت جمهورية البندقية ذاتها اجراءات معينة ، نتيجة أخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط ، بأن منعت رعاياها من تصدير الخشب والحديد والقار الى مصر ، وقامت بمراقبة تجارها وسفنها وفرضت عقوبات على أي تاجر أو سفينة تنقل هذه المتاجر الى الموانىء المصرية (٣٩) . ولا شك أن البندقية كانت تدرك أن مثل هذه الاجراءات تلحق بمصالحها التجارية في مصر أبلغ الاضرار وأفدحها ، الا انها ربما اضطرت الى ذلك تحت ضغط من البابوية والامراء الصليبيين في الشام .

ويبدو ان البندقية رغبت في أن تعوض عما لحق بتجارتها من خسائر نتيجة اخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط من جهة ، والاجراءات التي

---

(٣٥) عن احتلال دمياط من قبل الحملة الصليبية الخامسة ، انظر : المقريزي : ثغر دمياط ، مخطوط ، ورقة ٢٦ أ ، ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٤ ، ص ١٥ — ١٩ ، ٣٢ — ٣٤ .

(36) Heyd, op. cit., 1, P. 404.

(٣٧) عاشور : الحركة الصليبية : ج٢ ، ص ٩٧٥ ، عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٢٧٥ .

(38) Heyd, op. cit., 1, P. 405 .

(39) Ibid., 1, PP. 404 — 405

اتخذتها لمنع المتاجرة مع مصر من جهة أخرى ، لهذانجد السناتو البندقي يبعث ، عام ١٢٢٥ م ، سفارة الى مدينة حلب برئاسة توماس فوسكاريني Thomas Foscarini ونجحت السفارة في توقيع معاهدة تجارية مع الملك العزيز بن الظاهر غازي ، صاحب حلب ، اشتملت على منح البنادقة تسهيلات تجارية في المدينة وتخفيض الرسوم الجمركية (٤٠) . ولم تمض اربع سنوات (١٢٢٩ م) ، حتى وصلت سفارة بندقية أخرى الى حلب ، وعقدت معاهدة تجارية أخرى مع الملك العزيز نفسه انطوت على تجديد للامتيازات التي حصل عليها البنادقة في معاهدة عام ١٢٢٥ م (٤١) .

وفي عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م بعث دوج البندقية سفارة الى القاهرة برئاسة روموس كورينو Romous Quirino ويعقوب باروشيو Jacebus Barocio ووقعت هذه السفارة معاهدة تجارية مع السلطان الملك العادل الثاني (٤٢) . وتعتبر هذه المعاهدة على جانب كبير من الاهمية لانها كانت أساسا لكل المعاهدات التجارية التي وقعتها جمهورية البندقية مع السلاطين الايوبيين والمماليك حتى أواخر القرن الرابع عشر . وذلك لانها حددت أشكال الحماية التي تعهدت السلطات المصرية بمنحها للبنادقة وسفنهم في مصر ،وموانئها . كما انها حددت اشكال المعاملات التجارية والمالية التي يجب على البنادقة ممارستها في الاسواق المصرية . فضلا عن انها حددت حقوق البنادقة وواجباتهم (٤٣) .

وفي ظل المعاهدة السابقة انتظمت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر ، وازدادالنشاط التجاري للبنادقة في الديار المصرية ، واخذت الاساطيل التجارية تصل الى الاسكندرية بانتظام من البندقية ، واخذت الجالية البندقية في الاسكندرية تمارس نشاطها وفق المعاملات التجارية التي حددتها هذه المعاهدة . ولم تمض سنوات قليلة حتى تمكنت سفارة

---

(40) Heyd, op. cit., 1, P. 375 ; Beazley , op. cit., 11, P. 417

(41) Heyd, op. cit., 1, P. 373 ; Beazley, 11, P. 416 .

(٤٢) انظر النص الاصلي لهذه المعاهدة في :
Maslatrie, Traite des paixet de commerce, PP. 72 — 74 .
وانظر أيضا : الترجمة العربية للنص : عفاف صبرة ، ملحق رقم٢،ص٢٤٠–٢٤٦ .

(43) Maslatrie, Traite des paix et de commerce ; PP. 72 — 73 .

بندقية اخرى من توقيع معاهدة تجارية اخرى مع السلطان الايوبي نجم الدين ايوب عام (٦٤١ هـ ١٢٤٤ م) ، انطوت على تجديد الامتيازات التجارية التي منحت البنادقة في معاهدة ١٢٣٨ م ، واضافت اليها امتيازا آخر ينص على تعهد السلطان بحماية البنادقة وممتلكاتهم من الاعتقال والمصادرة (٤٤) .

وفي عام ١٢٥٤ م تمكنت سفارة بندقية اخرى من توقيع معاهدة تجارية مع السلطان الملك المعز ايبك ، أول سلاطين المماليك في مصر (٤٥) . ورغم ان هذه المعاهدة كانت في حقيقتها تجديدا للامتيازات التي انطوت عليها معاهدة عام ١٢٣٨ م ، الا انها اشتملت على اتفاقيات جديدة تتعلق بحماية البنادقة ومتاجرهم في الاراضي والمياه المصرية ، وعلى اعفاء التجار البنادقة من بعض الرسوم والضرائب (٤٦) ، وعلى تنظيم الشؤون القضائية بالنسبة الى البنادقة المترددين والمقيمين في الديار المصرية . يضاف الى ذلك أن المعاهدة حددت حقوق البنادقة في الاسكندرية ونظم فنادقهم (٤٧).

وارسلت البندقية ، عام ١٢٥٤ م ، سفيرا الى حلب ، وقد حمل هذا السفير معه عند عودته خطابين من صاحب هذه المدينة ، الملك الناصر صلاح الدين بن الظاهر غازي ، يحتويان على وعود الامير بالصداقة والحماية للبنادقة داخل بلاده (٤٨) .

ولقد استمر النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام على الرغم من القتال الذي دار بين الصليبيين والظاهر بيبرس (٥٦٨ ـ ٦٧٩ هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٩ م) . وكان الظاهر بيبرس نفسه حريصا اشد الحرص على استمرار العلاقات التجارية بين المسلمين في مصر والشام والتجار البنادقة . وقد اشار المؤرخ ابن عبد الظاهر الى اهتمام السلطان الظاهر

(44) Ibid., PP. 76 — 77 .

(٤٥) انظر نص المعاهدة في :

Ibid., PP. 77 — 80 .

وانظر ايضا الترجمة العربية : عفاف صبرة : ملحق رقم ٤ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٤ .

(46) Mas Latrie, PP. 77 — 79 .

(47) Mas Latrie. Traite des paix et de commerce, PP. 79 — 80 .

(48) Heyd, op. cit., 11, P. 25 .

بتشجيع « التجار الفرنجة » بصفة عامة للقدوم الى الديار المصرية ، وكشف ابن عبد الظاهر الاهمية الاقتصادية الكبرى التي كانت لهؤلاء التجار في الحياة الاقتصادية للمسلمين في مصر والشام . واشار أيضا الى ان من الاسباب التي دفعت الظاهر بيبرس لتوقيع الصلح بينه وبين صاحب يافا ومتملك بيروت عام (٦٥٩ هـ / ١٢٦١ ـ ١٢٦٢م) هو الغلاء الذي عم بالشام لان « كثرة الجلب انما يكون من بلاد الفرنج(٤٩) » وفي اعقاب هذا الصلح « امنت السبل وكثر الجلب(٥٠) » و « ترددت التجار وسلكت السفار(٥١) » . وبالرغم من الاضرار الفادحة التي احقت بالبندقية وتجارتها نتيجة فتح الظاهر بيبرس لامارة انطاكية عام ١٢٦٨م فقد استمر التجار البنادقة ينقلون الاسلحة والمؤن والاخشاب الى الاسكندرية(٥٢) ، فعندما وصل الامير الانجليزي ادوارد الى عكا عام ١٢٧١ م ، استاء لانه وجد البنادقة يحتفظون بتجارة مزدهرة مع السلطان الظاهر بيبرس ، ويمدونه بالاخشاب والحديد ، وقد اظهر له البايلو البندقي في عكا آنذاك ، ويدعى فيليب بيلكنو Beligno ترخيصا كتابيا منحه ملوك بيت المقدس يسمحون بموجبه للتجار البنادقة بالمتاجرة مع المسلمين في مصر(٥٣) .

واحتفظت البندقية بعلاقاتها التجارية النشطة مع مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون ، وذلك لان البندقية كانت حريصة أشد الحرص وقتذاك على التعويض عن الخسائر التي لحقت بتجارتها وامتيازاتها في المدن الصليبية ، نتيجة ازدياد النفوذ التجاري الجنوي ، الذي وصل الى ذروته بتشكيل قومون لهم في مدينة طرابلس عام ١٢٨٨ م . وهذا يفسر لنا ـ كما بينا في الباب السابق ـ الاتصالات التي قام بها البنادقة في عكا مع السلطان المنصور قلاوون وتحريضهم له على فتح طرابلس واستخلاصها من ايدي الجنوية . كما وقعت البندقية معاهدة مع السلطان المنصور قلاوون عام ١٢٨٩م ، تعتبر امتيازا جديدا منحه السلطان للبنادقة ، فقد خفض

(٤٩) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، مخطوط ورقة ٩٤٤ ـ ٩٤٥ .

(٥٠) المصدر السابق : ورقة ٩٤٥ .

(٥١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوط ورقة ٤٨ ـ ٤٩ .

(52) Hodgson, op. cit., P. 138 .

(53) Runciman, Hist. of the Crusades, 111, PP. 335 — 36 .

فيه الرسوم الجمركية عنهـــم الى جانب منحهم الامـــن والحماية علـــى ممتلكاتهم وأرواحهم(٥٤) .

وتدفق التجار البنادقة بأعداد كبيرة الى الموانىء المصرية في عصر السلطان المنصور نتيجة السياسة الودية التي تبناها هذا السلطان تجاه الفرنجـــة بصفة عامة والبنادقة بصفة خاصة . والدليل علـى ذلك الوصيـــة التـــي كتبها السلطان المنصور الى ابنه الملك الصالح علاء الدين علي ، والتي يوصي فيها ابنه على ضرورة « حفظ فنادق الفرنج وحفظ مفاتيحها في الليل وفي وقت صلاة الجمعة ، وفي حفظ الامكنة المجاورة لها ، وفي حفظ المـــوانىء من جميع الجهات (٥٥) . وطلب السلطـــان المنصـــور الى ابنـــه بأن يأمـــر « ولاة الثغرين ، الاسكندرية ودمياط ، باستمالة قلوب التجار ومعاملتهم بالعدل والاحسان والرفق والانصاف ليتوجهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التجار(٥٦) » ، « فالعدل اجلب للبركات واحلب لثدي المرضعات وبه عمارة البلاد وتثمير الاموال(٥٧) . . » .

غير ان النشاط التجاري للبنادقة ، في مصر والشام ، ضعف نتيجة فتح السلطان الاشرف خليل مدينة عكا الصليبية عام (١٢٩١م) ، وما تبع ذلك من طرد الصليبيين نهائيا من الشام في العام نفسه . فقـــد فقدت البندقية بذلك احياءها وامتيازاتها التجارية ، التي كانت قد تمتعت بهـــا في المدن الصليبية على امتداد قرنين من الزمن ، كما أن أعدادا كبيرة مـــن تجارها ، الذين كانوا يقيمون في عكا ، قد وقعوا أسرى بأيـــدي السلطـــان الاشرف عندما فتح المدينة . وتم جلب هؤلاء الاسرى الـــى القاهرة حيث اودعوا سجونها(٥٨) . وفضلا عن ذلك فقد القى السلطان الاشرف القبض على سفينة تابعة للبندقية بالقرب من غزة ، وكانت تحمل هذه السفينـــة عددا كبيرا من التجار البنادقة ، الذين حاولوا النجاة بأنفسهم وأموالهـــم من ميناء عكا بعد أن سقط بيد المسلمين ، ولقد تم نقل السفينة بحمولتها

---

(٥٤) انظر : عفاف صبرة ، ٩١ .

(٥٥) شافع بن علي : الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصـــور ، مخطـــوط ، ورقة ٨٦ أ ، ب .

(٥٦) المصدر السابق ، ورقة ٨٦ ، ٨٧ أ ، ب .

(٥٧) المصدر السابق ، ورقة ٩٧ ، أ ، ب .

(58) Hodgson, op. cit., P. 323 .

الى مصر ، حيث أودع تجارها في السجون بالقاهرة(٥٩) .

وردت البندقية ، على ما حل بتجارها وسفينتها ، **ردا سريعا** ، الا انه الحق بنشاطها التجاري وجاليتها في مصر أفدح الاضرار . فقد قامت بعض سفن البندقية عام ١٢٩٢م بأسر عدد من التجار المسلمين في عرض البحر . وعندما سمع السلطان الاشرف بهذه الحادثة امر باعتقال « جماعة من البنادقة(٦٠) » الموجودين في الاسكندرية وجلبهم الى القاهـــرة ، حيث اودعوا السجون(٦١) . وبذلك أصاب الركود النشاط التجاري للبنادقـــة في مصر وتحولت العلاقات فيما بين الطرفين عما كانت عليه .

وقد زاد النشاط التجاري للبنادقة ضعفا ، في مصر والشام ، المرسوم الذي أصدره البابا نيقولا الرابع ، على اثر سقوط عكا (١٢٩١م) والذي ينطوي على تعهد بفرض عقوبة الحرمان الكنسي على كـــل مـــن يتاجر مـــع المسلمين في مصر والشام وعلى كل من ينقل اي نوع من السلع والمتاجر الى البلدان التابعة للسلطان الاشرف خليل(٦٢) . وبالرغم من ادراك البنادقـــة أن مصالحهم التجارية في مصر والشام اهم من أي اعتبار ديني او صليبي ، الا أنهم لم يكن باستطاعتهم أن يتحدوا البابوية وحكام الغرب الاوروبي بعد سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان هذا عاملا من عوامل تـــردي العلاقات التجارية بين البندقية والمسلمين في مصر والشام في سنة ١٢٩١م .

ولكن سرعان ما أدركت البندقية أن استمرار تردي علاقاتها مـــع السلطان الاشرف خليل وبقاء تجارها في سجون القاهـــرة ، سيؤدي الـــى دمار تجارتها ومستقبلها لا في مصر والشام فحسب وانما في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ايضا . ولهذا فقد حاولت البندقية التقرب الى السلطان الاشرف ، فبعث دوج البندقية سفارة الى الاسكندرية (١٢٩٢ — ١٢٩٣) برئاسة شخص يدعى « تنقولا » كما يقول ابن عبد الظاهر(٦٣) . وبعـــد أن

---

(59) Ibid. ; Labib , Handelsgeschichte., P. 74 .

(٦٠) ابن عبد الظاهر : الالطاف الخفية ، ص ٤٤ .

(٦١) المصدر السابق ، ص ٤٥ . أيضا انظر :
Labib, Handelsgeschichte., P. 74 .

(62) Ashtor, op. cit., P. 298 ; Boase ; op. cit., P. 215

(٦٣) ابن عبد الظاهر : الالطاف الخفية ، ص ٤٥ .

قابلت السفارة السلطان الاشرف في القاهرة « وقدمت له هدايا كثيرة وتحفا فاخرة » طلب الافراج عن التجار البنادقة المعتقلين مقابل مبلغ قدره سبعين الف درهم ، وهو تعويض عما لحق بالتجار المسلمين من اضرار نتيجةهجوم البنادقة عليهم في البحر ووافق السلطان الاشرف خليل على ذلك وأمر باطلاق سرح البنادقة من سجون القاهرة ، ومن ثم أعلن السلطان « أمان شريف » اشتمل على منح التجار البنادقة ، والبيازنة والجنوية وغيرهم ، حرية المتاجرة في مصر والشام والتردد « الى الثغور الاسلامية آمنين مطمئنين » (٦٤) .

وفي عام ١٣٠٢ م نجحت سفارة بندقية برئاسة جيدو دي كانالي Guids Canali في توقيع معاهدة تجارية مع السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، اشتملت على تجديد للامتيازات التجارية التي كانت قد حصلت عليها البندقية في مصر في عهد السلاطين السابقين (٦٥) ، كما حصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على اعفاء من نصف الرسوم الجمركية المقررة على تجارتها في مصر (٦٦) . كما انطوت المعاهدة على تعهد بحماية التجار البنادقة ومتاجرهم وأموالهم وممتلكاتهم في الديار المصرية (٦٧) . وفضلا عن ذلك فقد تضمنت المعاهدة امتيازات تتعلق بالاستقلال القضائي للبنادقة في مصر وحرية ممارسة عبادتهم وطقوسهم الدينية (٦٨) . يضاف الى ذلك أن سفارة البندقية تعهدت للسلطان الناصر بأن يستمر التجار البنادقة في جلب السلع والمتاجر الحربية المحرمة من قبل البابوية ، وبصفة خاصة الاخشاب والحديد والقار ، شريطة أن يسمح السلطان بتصدير سلع ومتاجر مصرية بقيمتها مع اعفائها من الرسوم الجمركية (٦٩) . وقبل مغادرة السفارة البندقية مصر وافق السلطان على أن يبقى أحد أفرادها ، وهو فرانسيسكودي كانالي de Canali

(٦٤) المصدر السابق : ص ٤٥ ، انظر أيضا :
Labib, Handelsgeschichte., P. 74 .

(65) Maslatrie , Traite des paixet de commerce, PP. 82 — 85 .

(66) Labib, Handelsgeschichte., P. 75 ;Maslatrie op. cit., P. 83.

(67) Maslatrie, Traite despaix et de commerce, PP. 83 — 85 .

(68) Ibid., PP. 84 — 85 .

(69) Hodgson, op. cit., P. 323 ; Pernoud, op. cit., PP. 212 — 13

Francisco كقنصل للبندقية لرعاية مصالح التجار البنادقة في الاسكندرية (٧٠) .

ولم يمض عامان على توقيع المعاهدة السابقة حتى ساءت العلاقات بين البندقية ومصر ، وذلك نتيجة استيلاء دوق البندقية في كريت على سفينة جنوية ، تحمل رقيقا متجهة بهم من القسطنطينية الى مصر عام ١٣٠٤ م . وعلى الرغم من أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد رد على هذا الحادث باعتقال القنصل البندقي في الاسكندرية ، فان دوق كريت رفض الافراج عن السفينة الجنوية (٧١) . وأسرعت جمهورية البندقية بارسال سفارة الى القاهرة ، تمكنت من الوصول الى حل للازمة القائمة (٧٢) ، وربما تم الافراج عن القنصل البندقي مقابل الافراج عن السفينة الجنوية المحتجزة في كريت ..

وبعثت البندقية بسفارة الى نائب صفد عام ١٣٠٤ م وذلك لابرام معاهدة تجارية معه والحصول على امتيازات تجارية في المناطق التابعة له آنذاك ، وهي عكا وصور وصيدا وجزء من دمشق . وبعث نائب صفد الى السلطان الناصر يخبره بأمر السفارة ويطلب امداده بالتعليمات بخصوص ما يجب اتباعه معها . فبعث اليه السلطان رسالة موجهة الى دوج البندقية يخبره فيها بأنه يمكن لرعاياه أن يحضروا الى أراضي السلطان دون خوف على ممتلكاتهم ، بل انه التزم بامداد الحجاج البنادقة بحرس لحمايتهم أثناء زيارة الاماكن المقدسة . كما نصّت الرسالة على تعهد السلطان بحماية البنادقة الذين يرغبون في القدوم لمصر والشام ومعاملتهم معاملة طيبة (٧٣) .

ويبدو أن معاهدة عام ١٣٠٢ م ، بين البندقية ومصر ، لم تمكن النشاط التجاري للبنادقة ، في مصر والشام ، لان يعود الى ما كان عليه قبل سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية . وربما ظلت بعض المسائل معلقة

(70) Hodgson, op. cit., 323 .

(71) Ibid., P. 323 .

(٧٢) انظر : عفاف صبرة : ، ص ٩٥ .

(73) Heyd, op. cit., 11, PP. 41 — 42; ; Ashtor, op. cit., P. 229

بين البندقية ومصر ، والدليل على ذلك ما يخبرنا به ابن أيبك الدواداري من أن « افرنجي من البنادقة » قد وصل الى القاهرة عام ٧١٨ هـ / ١٣١٧ م ، وقدم هدية الى السلطان الناصر « لم يعهد أن وصل مثلها ولا قريب منها في زمن من الازمان » (٧٤) . ومع ان المصادر لا تمدنا بتفاصيل هذه السفارة الا ان أحد الباحثين يرى أن والي الاسكندرية قد أطلق عام ١٣١٧ م سراح البنادقة المعتقلين في المدينة وأنه بعث بهدايا ثمينة الى دوج البندقية اشتملت على الحرير والصبار والزنجبيل اضافة الى بعض المنتجات والسلع الشرقية الاخرى (٧٥) . وهذا قد يوضح مهمة هذا المبعوث البندقي في مصر ورغبة البنادقة في تحسين علاقتهم بسلطنة المماليك .

واعتقد بعض الباحثين أن البابا حنا الثاني والعشرين قد تمكن عام ١٣٢٢ م من اقناع البندقية في قطع علاقاتها التجارية مع مصر والشام . واستجابت البندقية لرغبة البابا ، حيث أصدرت قرارا في العام التالي (١٣٢٣ م) حرمت فيه رعاياها من المتاجرة مع مصر والبلاد التي تخضع لسلطانها . واعتقد هايد أن العلاقات التجارية بين البندقية ومصر قد انقطعت في الفترة الممتدة ما بين ١٣٢٣ ــ ١٣٤٥ م (٧٦) . الا انه من المؤكد ان العلاقات التجارية بين البندقية ومصر لم تنقطع بدليل أن الرحالة لادولف ، الذي زار مصر والشام في الفترة ما بين ١٣٣٩ ــ ١٣٤١ م ، قد شاهد بنفسه البنادقة في الاسكندرية يمارسون نشاطهم التجاري ، ويتمتعون بحريتهم الدينية ، ويمارسون طقوسهم وعبادتهم في الكنيسة المرقصية فيها (٧٧) . يضاف الى ذلك أن البابا كليمنت السادس ١٣٤٤ م ، استجابة لرغبة دوج البندقية والحاحه ، أصدر مرسوما سمح فيه للبنادقة بالمتاجرة ، ولمدة خمس سنوات ، مع المسلمين في مصر والشام ، وذلك « شفقة على البندقية التي تعتمد على التجارة البحرية وحدها للحصول على قوتها اليومي » . الا أن المرسوم البابوي حذّر ، في الوقت ذاته ، من نقل الخشب والحديد والاسلحة والرقيق الى المسلمين ، والزم دوج البندقية

(٧٤) ابن أيبك : الدر الفاخر ، ص ٢٩٤ .

(75) Hodgson, op. cit., P. 323 .

(٧٦) عن ذلك انظر :

Heyd. op. cit., 11. PP. 35 — 37 , 42 — 44 . Ashtor, op. cit., PP. 298 — 300 .

(77) Ludolph , op. cit., P. 46 .

وقومونها بتفتيش سلع البنادقة ومتاجرهم قبل شحنها الى مصر والشام (٧٨) .

ولم تدع البندقية فرصة الافادة من هذا الامتياز البابوي ، فبعثت عام ١٣٤٤ م ، سفيرا الى مصر يدعى نيقولا زينو Nicolozeno وفي فبراير من العام نفسه أصدر السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد منشورا أعلن فيه ترحيبه بمطالب السفير البندقي وتعهد « بحماية الرعايا البنادقة ، المقيمين في الاراضي المصرية أو المترددين عليها ، ومعاملتهم اطيب معاملة على أساس الاحترام المتبادل . وحدد المنشور ضريبة الاستيراد التي يتوجب على البنادقة دفعها ، فضلا عن أن المرسوم قد انطوى على مجموعة من التدابير والاجراءات الاحتياطية لضمان حرية التجار البنادقة وحمايتهم » (٧٩) .

وبعد عودة السفير نيقولا أرسلت البندقية الى السلطان نفسه مبعوثا آخر يدعى آنجيلو سيربي Angelo Sérbi . وحمل هذا السفير الى حكومته كتابا من السلطان الصالح اسماعيل مؤرخا في ٦ أغسطس عام ١٣٤٥ م يحتوي على تجديد السلطان وعده بالترحيب بالتجار البنادقة . كما اذن لحكومة البندقية بانفاذ قناصلها الى الاسكندرية وغيرها من البلاد الخاضعة لنفوذه . وعندئذ ارسلت البندقية الى الاسكندرية قافلة من غليونين ، وعلى ظهر احد الغليونين وصل القنصل البندقي الجديد الذي اختارته البندقية للاقامة في الاسكندرية (٨٠) .

ومن المؤكد أن النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام قد ازداد بعد التوقيع على المعاهدة الاخيرة ، فالرحالة نيقولو Niccolo ، الذي زار مصر والشام بعد ثلاثة أعوام من توقيع هذه المعاهدة ، التقى بالعديد من التجار اللاتين بصفة عامة والبنادقة بصفة خاصة في القاهرة والاسكندرية ودمياط (٨١) . ولكن على الرغم من ذلك يمكننا القول بأن حجم التجارة البندقية في مصر والشام ، خلال العقد التالي على توقيع معاهدة عام

(78) Hodgson, op. cit., P. 380 .

(79) Ibid., P. 382 .

(٨٠) انظر : Heyd, op. cit., 11, PP. 45 — 46 .

سرور : دولة بني قلاوون ، ص ٣٤٢ ، عفاف صبرة ، ص ١٠١

(81) Niccolo, op. cit., PP. 85, 89, 120 — 21 .

١٣٤٥ م كان ضئيلا بسبب عاملين أساسيين ، أولهما : انتشار الطاعون (الموت الاسود) في عام ١٣٤٧ – ١٣٤٨ م ، الذي ادى الى تحطيم اقتصاديات عالم البحر المتوسط (٨٢) . وكان أمرا طبيعيا ان يلحق بالبنادقة ونشاطهم التجاري ، في مصر والشام ، ابلغ الأضرار وافدحها ، وثانيها : اندلاع الحرب بين البنادقة والجنوية (١٣٤٩ – ١٣٥٢) ، في بيزنطة وامتدادها الى اجزاء اخرى من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ويبدو انه كان لهذه الحرب اثر بالغ على النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام ، والدليل على ذلك ما يرويه القاضي عبد الباسط من انه في عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م قد « عز الخشب في مصر وغلا سعره وتعذر وجود الكثير من الاصناف التي يجلبها الفرنج ، كالقصدير والزعفران بسبب الفتنة التي قامت بينهم » (٨٣) .

وبعد ان استردت البندقية قواها مما الحقه بها الوباء والقتال مع الجنوية من اضرار اقتصادية وبشرية ، عقدت معاهدة تجارية مع السلطان الناصر حسن عام ١٣٥٥ م ، اشتملت على تجديد للامتيازات التجارية التي كان قد حصل عليها البنادقة بموجب المعاهدات السابقة (٨٤) . وفي عام ١٣٦١ م حصلت البندقية على اذن من البابا انوسنت السادس بالمتاجرة مع المسلمين في مصر والشام (٨٥) . واسرعت البندقية بتوقيع معاهدة تجارية اخرى مع السلطان الناصر حسن في العام نفسه (١٣٦١ م) . ولقد انطوت هذه المعاهدة على زيادة الامتيازات التجارية للبنادقة في مصر ، كما أمر السلطان بازالة المطعم المجاور لفندقهم في الاسكندرية بعد أن كثرت شكواهم من الاذى الذي يسببه لهم الدخان ورائحة الطعام وكذلك الصعاليك من

---

(٨٢) تحدث ابن حجر العسقلاني عما لحق بمصر والشام من دمار اقتصادي وبشري من جراء هذا الطاعون . ابن حجر : بذل الماعون في فوائد الطاعون ، مخطوط ، ورقة ٩٢ – ٩٣ ، ٩٦ – ٩٧ .

(٨٣) عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، مخطوط ، ج١ ، ورقة ٤٠ ب .

(٨٤) انظر نص المعاهدة في :
Mas latrie, Traite., PP. 88 — 92 .
وانظر الترجمة العربية للنص : عفاف صبرة ، ملحق رقم/٦ ، ص ٢٦٣ – ٢٦٩ .

(85) Hill, op. cit., 11, P. 311 .

اهل الاسكندرية الذين يترددون على هذا المطعم (٨٦) . ويتبين لنا أن هاتين المعاهدتين قد عززتا مكانة البنادقة ونشاطهم التجاري في مصر (٨٧) .

وعلى الرغم من ان جمهورية البندقية كانت تدرك أن الحرب ضد المسلمين تتناقض ومصالحها التجارية في مصر والشام ، فانها لم تكن تتردد في دعم اية حملة صليبية تأمل أن تحقق من خلالها توسعا في امتيازاتها التجارية . وهذا يفسر لنا اشتراكها في الحملة البحرية التي قادها بطرس الاول ملك قبرص ، ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ (٨٨) ، في الوقت الذي كانت فيه العلاقات بين البندقية والمسلمين في مصر والشام طيبة والنشاط التجاري للبنادقة في الاسكندرية مزدهرا (٨٩) .

الا أن البندقية اخطأت في تقديرها ، فعندما بدأت قوات بطرس لوزيجنان باقتحام المدينة اعتقل متولى ثغر الاسكندرية (٩٠) نحو خمسين تاجرا فرنجيا وقناصلتهم وقادهم الى دمنهور (٩١) ، وكان من بينهم بعض تجار البندقية وقنصلهم في الاسكندرية ، وعندما احتلت هذه القوات المدينة تعرضت مستودعات البنادقة وحوانيتهم وفنادقهم فيها الى أعمال النهب والسلب التي قام بها القبارصة في المدينة (٩٢) .

ولا ريب في ان احتلال الاسكندرية ، من قبل الملك القبرصي كان ضربة

---

(٨٦) انظر : Heyd, 11, P. 48, Ashtor, P. 299.

(٨٧) انظر : Beazley, 111, P. 473 .

(٨٨) انظر : المقريزي : السلوك ، ج٢ ، قسم ١ ص ١٠٧ .

(٨٩) انظر : عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، ورقة ٧٦ – ٧٧ .

(٩٠) انظر : المقريزي : السلوك ، ج٣ ، قسم ١ ، ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٩١) النويري السكندري : الالمام بالاعلام ، مخطوط ، ج١ ورقة ٣٢٢ ، المقريزي : السلوك ، ج١ ، قسم ١ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ . أيضا :
Atiya , Crusade in the later middle ages, P. 358 .

(٩٢) انظر تفاصيل الخراب الذي الحقته هذه الحملة بمدينة الاسكندرية : النويري : الالمام بالاعلام ، ورقة ٣٢٦ – ٣٣٥ ، المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة التركية ، مخطوط ، ورقة ٤٦ ، عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول : ورقة ٧٦ – ٧٧ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، مخطوط ، ورقة ١٦٨ – ١٦٩ . ابن حبيب : درة الاسلاك مخطوط ، ج٣ ، ورقة ٤٣ ، المقريزي : السلوك ، ج٣ ، قسم ١ ص ١٠٦ – ١٠٧ ، ايضا : عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٦٦ ، أيضا :
Atiya , Crusade in the later , PP. 365 — 66 .

عنيفة لمصالح البندقية في مصر والشام ، حتى أنه كان من الصعوبة على البنادقة أن يستعيدوا مكانتهم في الاسكندرية كما كانت عليه (٩٣) . كما أن الامير يلبغا قد حمّل جزءا كبيرا من مسؤولية ما حدث للجاليات التجارية الفرنجية المقيمة في مصر والشام ، بما فيها البنادقة ، ولهذا نجده يأمر / عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م / ، « بالقبض على جميع من بديار مصر والشام من الفرنج » (٩٤) . ولئن تمكن بعض التجار الفرنجة من الفرار على ظهر سفنهم من الاسكندرية قبل أن ينفذ هذا الامر (٩٥) ، فلقد تم القبض على جميع التجار الفرنج الموجودين في بلاد الشام (٩٦) .

واخذت البندقية تبعث الى القاهرة بسفارة اثر أخرى (١٣٦٥ — ١٣٧٠ م) في محاولة منها للتنصل من أية مسؤولية عن الغارة التي قام بها ملك قبرص ضد الاسكندرية ولإعادة السلام بين البندقية ومصر واطلاق سراح التجار البنادقة المعتقلين في القاهرة وبالتالي السماح للبنادقة باستئناف نشاطهم التجاري في مصر والشام (٩٧) .

والذي يهمنا أن نؤكده أن النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام، خلال السنوات الخمس التالية على حملة بطرس ، كان متوقفا من الناحية العملية ، فعلى الرغم من أن الامير يلبغا قد أطلق سراح البنادقة المعتقلين في مصر والشام عام ١٣٦٦ م وجدد مع البندقية ، أثناء ذلك ، كل المعاهدات التجارية القديمة بين مصر والبندقية (٩٨) ، الا أنه لم يتم استئناف النشاط

(93) Atiya, Crusade in the later middle ages, P. 367 ; Hill, op. cit., 11, P. 337 .

(٩٤) عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، ج ١ ، ورقة ٧٧ ، المقريزي : السلوك ، ج ٢ ق ١ ، ١٠٧ .

(٩٥) عبد الباسط : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٧٨ ، المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ١١٤ .

(٩٦) عبد الباسط : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٧٧ .

(٩٧) انظر تفاصيل ذلك في : عبد الباسط : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٧٩ ، المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ١١٨ — ١١٩ ، أيضا :
Atiya, Crusade in the later, PP. 370—71 ; Hill, op. cit., 11, PP. 337 — 341 .

(98) Hill, op. cit., 11, PP. 339 — 41 .

التجاري للبنادقة في مصر والشام ، وذلك لان السلطات المملوكية اعتقلت سنة ١٣٦٦ م في بيروت ثمانية وخمسين تاجرا بندقيا كانوا قد وصلوا الى الميناء على ظهر ثلاث سفن تجارية ، وتمت مصادرة سلع ومتاجر هؤلاء التجار ، كما أن اجراءات مماثلة اتخذت ضد البنادقة في ميناء طرابلس في العام نفسه (٩٩) . وفي العام التالي ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م يخبرنا المقريزي ان نائب السلطنة في الاسكندرية اعتقل مئة وخمسين من الفرنج كانوا قد وصلوا الى الميناء على ظهر عدة مراكب « في هيئة مراكب تحمل البضائع » (١٠٠) . وفي العام الذي يليه (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) أسرت البحرية المصرية سفينة بندقية (١٠١) .

ولقد استأنف البنادقة نشاطهم التجاري في مصر والشام بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وقبرص عام ١٣٧٠ م . خاصة وأن البابا أصدر فور التوقيع على هذه المعاهدة (١٣٧٠ م) مرسوما ألغى فيه كل المراسيم السابقة المتعلقة بتحريم المتاجرة مع مصر (١٠٢) . وفي عام ١٣٧٣ م أبرمت البندقية معاهدة مع السلطان الاشرف شعبان اشتملت على امتيازات تجارية جديدة وتعهد بحماية تجارة البندقية في بلاد الشام بصفة عامة ودمشق بصفة خاصة (١٠٣) ، وبذلك كله بدأت مرحلة جديدة في النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام ، واستمرت خلال الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، دون أن يعكر صفوها أية اجراءات من الطرفين . وبالرغم من أن البنادقة اضطروا الى الهرب مع قناصلهم من بلاد الشام نتيجة استيلاء تيمورلنك على حلب ودمشق في عهد السلطان فرج بن برقوق (١٣٩٩ — ١٤١٢) (١٠٤) ولكن صالح بن يحيى يحدثنا عن وجود الجالية البندقية في بيروت وثرائها عندما تحدث عن مهاجمة الجنوية لها عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م،

(99) Ibid., P. 343

(١٠٠) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ١٥٦ .

(١٠١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

(102) Hill, Hist. of Cyprus, 11, P. 376 .

(١٠٣) انظر :
Mas La trie . Traite, PP. 93 — 94 .
أيضا : عفاف صبرة : ، ص ١٠٦ .

(104) Heyd, op. cit., 11, P. 469 ; Beazley , op. cit., 111, P. 473

حيث نهب الجنويةمن بيروت«حواصل بهابضائع لفرنج البنادقة بقيمة عشرة آلاف دينار » وهذا الرقم بذاتـه يدل على ثراء هذه الجـالية البنـدقية واستمرارها [١٠٥] .

اما بالنسبة الى النشاط التجاري للبيازنة في مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابـع عشر الميلاديين ، فمن المؤكد أن المصـالح التجارية والاقتصادية الكبرى للبيـازنة في هذين البلدين ، لم تكن تقـل اهمية عن مصالح البنادقة فيهما . وعلى الرغم من أننا لا نعرف البدايـة الحقيقية للعلاقات التجارية بين بيزا ومصر والشام ، الا أنه من المعروف أن مدينة بيزا قد حرصت أشد الحرص على توثيق صلة المودة بينها وبين الخلفاء الفاطميين في مصر [١٠٦] . ففي عام ١١٥٤ م وصل سفير بيزاوي، يدعى رينيه بوتاشيو Raniri Bottaccio ،الى بلاط الخليفـة الظافر الفاطمي بالقاهرة ، يحمل خطابات من رئيس أساقفة بيزا وقناصلتها تتعلق بتسوية بعض المشاكل المتعلقة في العلاقات بين بيزا ومصر [١٠٧] وذلك ان عددا من التجار البيازنة كانوا قد ابحروا في العام السابق (١١٥٣ م) على ظهر سفينة مع عدد من زملائهم التجار المسلمين ، وقام فريق من هؤلاء البيازنة بقتل التجار المسلمين وسلبهم ، وثارت الخلافة الفاطمية لرعاياها المصريين بالانتقام من التجار البيازنة المقيمين في مصر والمترددين عليها ، حيث تم اعتقالهم ومصادرة أموالهم ومتاجرهم ، وادى ذلـك الى توقف النشاط التجاري للبيارنة في مصر [١٠٨] .

ولقد تمكن سفير بيزا ، رينيه ، من الوصول الى تسوية مع الخلافة الفاطمية وتوقيع معاهدة سلام وتجـارة معهـا ، تضمنت تعهد السـفير البيزاوي ، باسم حكومته ، بمعاقبة الذين ارتكبوا جريمة قتل التجـار المسلمين ، وبألا تساعد جمهورية بيزا الصليبيين في الشام أو في اي مكان آخر ، ضد مصر . وتعهد السفير أيضا بأن ينقل التجار البيازنة الاخشاب

---

(١٠٥) صالح بن يحي : تاريخ بيروت ، ص ٣٤ .

(١٠٦) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٩ .

(107) Amari, M., Diplomi Arabi del R. Archivio Florentino, PP. 241 — 42 .

(108) Heyd, op. cit., 1, P. 392 .

والحديد والقار . ومن جهة أخرى تعهدت الخلافة الفاطمية بإطلاق سراح المعتقلين البيازنة في مصر ، وبالسماح لتجار جمهورية بيزا بممارسـة نشاطهم التجاري في مصر وشغل فندقهم في الاسكندرية واستخدام فندق آخر في القاهرة . كما تعهد الفاطميون بألا ينتقموا من البيازنة الذين يرتكبون جرائم ضد رعاياهم وممتلكاتهم ، وانما تعطى حكومة بيزا فتـرة سنـة لكي تقوم الاخيرة خلالها بمعالجة الموقف ومعاقبة الجناة . كما تعهـدت الخلافة الفاطمية أيضا بحماية التجار البيازنة الذين يسافرون في سفن غير حربية ، في حين من حقها أن تعتبر كل بيزاوي على ظهر مركب حربي أو يتبع القراصنة هو عدو لها [١٠٩] . وبموجب هذه المعاهدة استأنف التجار البيازنة نشاطهم في مصر ، وكدليل على ذلك فقد عاد السفير البيزاوي ، رينيه ، الى بلاده وبصحبته خمسة وعشرون من أهل بيزا كانوا معتقلين في مصر منذ عام ١١٥٣ م [١١٠] .

وبلغ من اهتمام حكومة بيزا بتوطيد علاقاتها برجال الخلافة الفاطمية، أنه عندما اسندت الوزارة في مصر الى طلائع بن رزيك (١١٥٥ م) سارعت الى ارسال وفد لتقديم تهنئتها اليه ، فرحب بقدومهم وأكرم وفادتهم ووعد بالعمل على حماية رعاياهم [١١١] . ولقد نشر ميخائيل آماري M. Amari خطابين بعثهما ابن رزيك الى حكومة بيزا ، أحدهما مؤرخ في ٢٠ مارس عام ١١٥٥ م وثانيهما مؤرخ في ٢ فبراير عام ١١٥٦ م ، وفيهما أعـرب عن رغبته في استمرار العلاقات الودية بين مصر وبيزا وتعهد بحماية التجار البيازنة وممتلكاتهم وأموالهم في أراضي مصر ومياهها ، كما ضمن فيهما لحكومة بيزا كل الامتيازات التجارية التي تمتع بها تجارها في مصر بموجب المعاهدات السابقة ، سواء منها ما يتعلق بالدخول والخروج أو الاقامة ، أو ما يتعلق بحرية المتاجرة في البلاد المصرية ، شريطة ألا يتعاون البيازنة مع الصليبيين ضد مصر [١١٢] .

الا أن حكومة بيزا لم تكن مخلصة في تقربها من الفاطمين وهذا ألحق بتجارتها في مصر أضرارا بالغة ، ففي عام ١١٥٦ م وقع البيازنة اتفاقا مع

---

(109) Amari, op. cit., 1, PP. 241 — 45 , 47 — 49 .

(110) Heyd, op. cit., 1, P. 394 .

(١١١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠ .

(112) Amari, op. cit., 1, PP. 250, 252 .

ملك بيت المقدس تعهدوا فيه بألا ينقلوا الى مصر الخشب والحديد والقار وأنه يحق للصليبيين مصادرة هذه السلع من السفن البيزاوية في حالة وجودها (١١٣) . وهذا الاتفاق يخالف أهم بنود معاهدة بيزا مع مصر عام ١١٥٤ م ، وبذلك أخذ البيازنة يلعبون دورا مزدوجا في سياستهم ، فمن جهة أخذوا يشاركون في الحملات الصليبية التي اتجهت ضد مصر ، بغية الحصول على امتيازات تجارية في المدن الصليبية بالشام ، وفي الوقت ذاته كانوا يستخدمون كل امكاناتهم لتعزيز امتيازاتهم التجارية في الممتلكات والاراضي الفاطمية (١١٤) . ووضح ذلك حين أخذ عموري ملك بيت المقدس ، يهدد الفاطميين في مصر ، فأظهرت بيزا استعدادها لمعاونة الصليبيين . ووعد عموري البيازنة ، مقابل ذلك ، ببعض الامتيازات التجارية في الديار المصرية . لما اتضح للبيازنة أن الصليبيين لن يتيسر لهم البقاء في مصر وأنهم في سبيل الاتفاق مع الحكومة الفاطمية للجلاء عن البلاد، سارعت حكومة بيزا الى الوساطة بين الطرفين . وأفادها هذا الموقف اذ منحها الخليفة العاضد الفاطمي امتيازات تجارية في مصر . ولكنها لم تلبث أن عادت الى ايثار مصالحها الخاصة ، فاشتركت مع الصليبيين ، عام ١١٦٩ م ، في الهجوم على ثغر دمياط رغم الامتيازات التي منحتها لها الحكومة الفاطمية (١١٥) . وبذلك ساءت العلاقات بين بيزا ومصر نتيجة مخالفة البيازنة لمضمون معاهدة عام ١١٥٤ م .

وسرعان ما أدركت حكومة بيزا الاضرار التي يمكن أن تلحق بتجارتها ورعاياها في مصر وبالتالي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط نتيجة تردي علاقاتها مع حكام مصر ، ولهذا بعثت عام ١١٧٣ م سفيرا الى القاهرة ، يدعى ايلد براندو Ilde Brando ، تمكن من توقيع معاهدة جديدة مع السلطان صلاح الدين الايوبي في مصر بتاريخ ٢٥ سبتمبر من العام نفسه (١١٧٣ م) (١١٦) . واشتملت المعاهدة على تعهد السلطات المصرية بحماية البيازنة ومتاجرهم وأموالهم في الاراضي المصرية ، وعلى حق البيازنة المقيمين في الاسكندرية بأن يكون لهم حمام وكنيسة اضافة الى فندقهم

(113) Beazley , op. cit., 11, P. 431 .
(114) Beazley, op. cit., 11, P. 430 .
(١١٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠ ، أيضا : البراوي : حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي ، رسالة دكتوراه ـ آداب القاهرة ص ١٩٤-١٩٥ .
(116) Amari, op. cit., P. 257 .

فيها ، وأن يكون لهم أيضا حرية العبادة وممارسة الطقوس الدينية واستخدام مكاييلهم وموازينهم الخاصة بهم (١١٧) . كما انطوت المعاهدة على اعفاء التجار البيازنة من كل الرسوم المتعلقة باستيراد الذهب والفضة الى الاراضي المصرية شريطة أن يسلموا رجال الجمارك المصريين ، عند مغادرتهم الاراضي المصرية ، كل ما تبقى لديهم من ذهب وفضة ، وتعهد البيازنة بأن يستمروا في نقل متاجر الغرب وسلعه بصفة عامة والخشب والحديد والقار بصفة خاصة ، الى المسلمين في مصر (١١٨) .

وتتجلى أهمية المعاهدة السابقة في كونها كانت أساسا للنشاط التجاري لمدينة بيزا في مصر ، على الرغم من أن هذا النشاط كان مقتصرا على الاسكندرية ، لان صلاح الدين الايوبي لم يسمح للتجار الاوربيين عامة بالتغلغل الى داخل البلاد ، وذلك بهدف اقصائهم عن التجارة الداخلية (١١٩) ، واغلاق البحر الاحمر في وجههم وذلك بغية الابقاء عليه كبحر اسلامي خالص (١٢٠) ، لانه يطل على الحرمين الشريفين ، وبالتالي لم يكن بامكان المسلمين أن يسمحوا لاية سفينة ان تبحر في هذا البحر الذي اعتبروه « بحرا مقدسا » .

وعلى الرغم من اعتداء اثنين من القراصنة البيازنة ، عام ١١٧٣ م ، على سفينة جنوية تحمل كمية من الشب تعود الى شمس الدولة تورانشاه (١٢١) ، شقيق صلاح الدين (١٢٢) ، الا أن العلاقات التجارية بين بيزا ومصر كانت تتوطد يوما بعد آخر ، حتى أن البيازنة شاركوا في الدفاع عن الاسكندرية عندما هاجمها نورمان صقلية عام ١١٧٤ م وكافأهم صلاح الدين على موقفهم هذا بأن أعفاهم من بعض الضرائب ، ووضع حدا لعدد من المضايقات التي كانوا يتعرضون لها ، كاجبارهم مثلا ، على بيع سلعهم

(117) Ibid., PP. 258 — 59 .
(118) Ibid., PP. 259 — 60 .
(119) Labib, ' Egyptian commercial policy. P. 66.
(120) Fischel, ' The Spice trade ' , P. 160 .
(١٢١) انظر تفاصيل هذه الحادثة في آماري : Amari, op. cit., P. 262.
(١٢٢) « ويشير آماري في الوثيقة نفسها الى ان السلطان صلاح الدين قد اقطع أخاه شمس الدولة تورانشاه مدينة الاسكندرية . وبالرغم من ان الشب كان من محتكرات الدولة الا ان صلاح لدين كان قد بعث بأوامر الى أخيه بأن يصدر هذه الحمولة من الشب . انظر : Amari, PP. 262 F.

بأثمان أقل من الاثمان العادية (١٢٣) .

وتعاقبت سفارات بيزا الى مصر ما بين ١١٧٦ — ١١٨٠ م وتمكنت بفضلها من اطلاق سراح البيازنة الذين وقعوا أسرى أثناء الحرب بين المسلمين والصليبيين وتجديد الامتيازات التجارية التي يتمتع بها البيازنة في مصر من قبل ، وبصفة خاصة ما يتعلق بجاليتهم في الاسكندرية وحماية التجار البيازنة واموالهم في مصر والمدن الشامية والداخلية (١٢٤) ، ويفسر هذا ازدياد النشاط التجاري للبيازنة في مدينة حلب في أواخر القرن الثاني عشر ومستهل القرن الثالث عشر (١٢٥) .

وفي عام ١٢٠٨ م ألقت السلطات المصرية القبض على عدد من التجار البيازنة في ميناء الاسكندرية . ووفقا للخطاب الذي بعثته حكومة **بيزا الى** الملك العادل في ذلك العام ، مع سفيرها مارزوكو تيبيرتي Marzucco Teperti ، فان التجار البيازنة كانوا يتاجرن في بيروت ، ومن ثم اتجهوا الى قبرص ، حيث قاموا بأعمال تجارية فيها ، وبعد ذلك اتجهوا من قبرص الى مصر ، ودخلوا ميناء الاسكندرية ودفعوا الرسوم الاعتيادية ، وأقاموا في المدينة أياما ، ثم اشتروا عددا من السلع والمتاجر ، من ضمنها « سمك البوري » وعندما طلبوا السماح لهم بالسفر احتجزتهم السلطات المصرية في الاسكندرية بحجة أنهم قبارصة وليسوا بيازنة ، مما أدى الى فساد تجارتهم من السمك (١٢٦) . وقد تمكن السفير البيزاوي تيبيرتي من تسوية المسألة مع الايوبيين وتوقيع معاهدة تجارية مع السلطان الملك العادل في العام نفسه (١٢٠٨ م) اشتملت على تثبيت امتيازات البيازنة في مصر وملكيتهم لفندقهم وكنيسة القديس نيقولا والحمامات الخاصة بهم في الاسكندرية . وتعهد السلطان أن يقوم باصلاح فندق البيازنة وكنيستهم في الاسكندرية ، على نفقته وبألا يزيد الضرائب الاعتيادية على البضائع والسلع وأن يستمر اعفاء البيازنة من الضرائب المتعلقة بالذهب

(123) Heyd, op. cit., 1, P. 397 .
(124) Amari, op. cit., PP. 264 , 266 , 268 ; Brand, op. cit., P. 20 ; Beazley, op. cit., 11, P.431 .
(125) Beazley , op. cit., 11, P. 445 .
(١٢٦) انظر تفاصيل هذه الحادثة :
Amari, op. cit., PP. 70 — 71 .

والفضة (١٢٧) .

وبعثت الحكومة البيزاوية عام ١٢١٥ م سفارة أخرى الى القاهرة برئاسة بنديتو ديل فرنانشو Benedettodel Vernaceio ، الذي تمتع بصلاحيات مطلقة من حكومته (١٢٨) . وتمكنت السفارة من عقد معاهدة مع الملك العادل في ٢٩ مارس ١٢١٥ م ، اشتملت على تعهد الملك بضمان حرية البيازنة وأعمالهم التجارية في مصر ، والحماية الشخصية للبيازنة المقيمين أو المترددين الى الديار المصرية ، وتجديد ملكيتهم لفندقهم وكنيستهم في الاسكندرية . وثبتت المعاهدة الرسوم التي يتوجب على البيازنة دفعها في الموانىء المصرية ، كما نصت المعاهدة على الاعفاءات الجمركية التي يحق لهم التمتعبها . وأكدت المعاهدة حرص الجانبين على احترام بنودها وضمان تنفيذها (١٢٩) . وعلى أثر هذه المعاهدة أطلقت السلطات المصرية عددا من الاسرى البيازنة المعتقلين في مصر (١٣٠) .

وقد واجهت تجارة بيزا في مصر ضعفا نتيجة عودة الحكومة البيزاوية الى السياسة المزدوجة في علاقاتها مع المسلمين والصليبيين . فلقد تحالفت بيزا مع الصليبيين وشاركتهم في الحملة الصليبية الخامسة التي هاجمت دمياط (١٣١) ، على الرغم من المعاهدات التي وقعتها مع الملك العادل عام ١٢٠٨ وعام ١٢١٥ م . كما أن قوات بيزاوية اشتركت في حملة لويس التاسع ضد مصر (١٣٢) ولكن السلطات المصرية — فيما يبدو — لم تتخذ أية اجراءات انتقامية ضد التجار البيازنة المقيمين في الديار المصرية والمدن الشامية أو المترددين عليها ، مع أن هذه السياسة البيزاوية تعتبر انتهاكا لاهم ما نصت عليه المعاهدات الموقعة بين البيارنة من جهة والفاطميين والايوبيين من جهة أخرى .

الا اننا نستطيع القول ان التجارة البيزاوية في مصر والشام قد

(127) Ibid., P. 81 .
(128) Ibid., PP. 81 — 82 .
(129) Ibid., PP. 280 — 81 .
(130) Heyd, op. cit., 1, PP. 412 — 13 .
(131) Conder, op. cit., P. 326 .
(١٣٢) انظر عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٨٤ .

عانت تدهورا كبيرا منذ أواخر القرن الثالث عشر ، ويرجع ذلك الى ضعف جمهورية بيزا من جهة وسقوط مملكة بيت المقدس عـام ١٢٩١ م من جهة ثانية ، كما يرجع أيضا الى المراسيم البابويـة ، التـي حرّمت المتاجرة مع المسلمين . ولكن على الرغم من كل ذلك فقد كانت الجاليـة البيزاويـة وقنصلها لا تزال تمارس نشاطها التجاري في الاسكندرية عام ١٣٠٥ م وان قرار الحكومة البيزاوية في عام ١٣٢٢م ، بمنع رعاياها مـن نقـل الخشب والحديد والقار الى مصر والشام(١٣٣) ، دليل علـى استمـرار النشـاط التجاري للبيازنة في هذين البلدين . كما أن السفارة البيزاوية التي تفاوضت مع السلطان برقوق عام ١٣٨٥ م ، بشأن التعويض عن بعض الاضرار التي لحقت بعدد من التجار البيازنة في مدينة الاسكندريـــة(١٣٤) دليـل علـى استمرار النشاط التجاري للبيازنة في مصر والشام وبقاء الجالية البيزاوية فيها حتى أواخر القرن الرابع عشر .

اما بالنسبة الى النشاط التجاري للجنوية في مصر والشام ، فيبدو انه يعود الى النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، فقد استولى أمـير سالرنو (١٠٥٣ ـ ١٠٧٧ م) على عدد من المراكب الجنوية أثناء مرورهـا على مقربة من بلاده ، مما يدل ، كما يعتقد هايد ، على أنها كانت تعتـزم اختراق مضيـق مسينـا في طريقها الـى موانىء مصـر والشام (١٣٥) . كما ان حاجا انكليزيا يروى انه جاء الى يافا عام ١٠٥٦ علـى ظهر اسطول جنوي (١٣٦) . ومن المؤكد ان مدينة جنوه كانت تحرص على التودد الى الفاطميين، ولهذا فقد عقد مندوب عنها معاهدة مع الحكومة الفاطمية، عام ١٠٦٣م . كما وافق بعض الخلفاء في أواخر العصر الفاطمي على حماية رعايا جنوة أثناء اقامتهم بأراضي الدولة الفاطمية ، ولهذا توافد كثير من التجار الجنوية الى الاسكندرية لاستيراد بعض السلع ومن بينها الشب والنطرون ، التي احتكرت الحكومة الفاطمية تجارته واحتفظت لنفسها بحق بيعه للروم(١٣٧) . ولقد أكـدت وثائق الجنيزة التي تعود الى مستهل القرن الثاني عشر ، ازدهار النشاط

(133) Heyd, op. cit., 11, P. 49.

(134) Amari, op. cit., PP. 315 — 16 .

(135) Heyd, op. cit., 1, P. 124 .

(136) Ashtor, op. cit., P. 196

(١٣٧) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

التجاري للجنوية في مصر ، حيث كانوا ينقلون اليها الاخشاب (١٣٨) . وفي الوقت الذي كان فيه التجار الجنوية يقومون بالمتاجرة في مصر كان بعض أبناء جلدتهم يساعدون الصليبيين في الاستيلاء على الساحل الشامي وربما كان هذا أحد الاسباب التي دفعت السلطات المصرية الى اعتقال التجـار الجنوية في مدينة القاهرة عام ١١٠٣م(١٣٩) .

ولقد ازدهر النشاط التجاري لجنوة في مصر والشام خلال النصف الاول من القرن الثاني عشر . فمن المعروف أن سفينة جنوية قد تحطمت في البحر عام ١١٣١م أثناء عودتها من الاسكندرية وهـي محملـة بالسـلع والمتاجر الشرقية (١٤٠) . كما أن الوثائق الجنوية ، المتعلقة بنشاط أهـل هذه المدينة في مصر والشام ، تذكر مدينة الاسكندرية أكثر من أي مينـاء آخر في الحوض الشرقي للبحر المتوسط كهدف لرحلاتها التجارية ، التي تنقل منها الشب والتوابل والفلفل والسلع الشرقية الاخرى(١٤١) .

وفي الربع الاخير من القرن الثاني عشر ، كانت سفن جنوة تقوم بنقل القمح من المغرب وبلاد الاندلس الى الاسكندرية ، كما كانت تقوم بنقـل الحجاج المسلمين من شمال أفريقية الى مصر والشام . ومن المعروف أن ابن جبير قد وصل الى ميناء الاسكندرية ، في أيام السلطان صلاح الدين، على ظهر واحدة من سفن الجنوية ، وهذا يدل على مدى نشاطهم ورحلاتهم الى الموانىء المصرية آنذاك(١٤٢) .

ويبدو أن الجنوية ارتبطوا بعلاقات ودية مع مصر في عهد السلطـان صلاح الدين الايوبي بدليل أن الحكومة الجنوية وقعت عام ١١٧٧ م معاهدة مع السلطان صلاح الدين كانت أساسا متينا للعلاقات التجارية بين جنوة ومصر لسنوات طويلة (١٤٣) . وخـلال شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨ م كان

(138) Goitein, A mediterranean society, 1, P. 46 .

(139) Ibid., PP. 45 , 59 .

(140) Beazley, op. cit., 11, P. 423 .

(141) Byrne,' Genoese trade ' , PP. 201 — 202 ; Beazley, op. cit., 11, P. 423 .

(١٤٢) ابن جبير : ص ١٢ .

(143) Beazley, op. cit.,11, P. 423 .

في ميناء الاسكندرية حوالي سبعة وثلاثين مركبا تجاريا من جنوة وبيزا والبندقية ، ومن المعروف أن أكثر التجار كانوا يأتون الى مصر في فصلي الربيع والخريف ، كما أن قادة السفن كانوا يفضلون أن يقضوا الشتاء بين أهليهم ، فلا بد من القول بأن ما كان يأتي الى مصر في فصول الربيع والخريف والصيف ، لم يقتصر على سبع وثلاثين سفينة بل جاء الى الاسكندرية مئات من السفن(١٤٤) .

ويعتبر موضوع العلاقات التجارية بين جنوة ومصر ، خلال القرن الثالث عشر ، من أعقد الموضوعات وأصعبها ، وذلك نتيجة انعدام المعلومات التي تتعلق بهذه المسألة . فالمصادر المتداولة لا تمدنا الا بمعلومات مبعثرة حول وصول مراكب أو سفارات جنوية الى مصر أو رحيلهم عنها ، دون أن تخبرنا عن أهداف هذه السفارات أو النتائج التي تحققت من مهماتها .

ويبدو أن النشاط التجاري لجنوة في مصر والشام في عصر السلطان الايوبي العادل كان مزدهرا ، فعلى الرغم من عدم معرفتنا بتوقيع أية معاهدات تجارية بين الحكومة الجنوية والسلطان الملك العادل ، غير أنه من المؤكد ــ كما يقول هايد ــ أنه كان بالاسكندرية قنصل جنوي يشرف على المصالح التجارية لبلده فيها (١٤٥) ومن ناحية أخرى فاننا نعلم أن السلطان العادل ارتبط بعلاقات طيبة مع بعض الجنوية ، والدليل على ذلك ما يرويه المقريزي عن علاقة السلطان العادل مع أحد كبار التجار الجنوية ، فهو يروي قدوم التاجر كليام الفرنجي الجنوي (٦٠٨هـ/١٢١١م) الى القاهرة، فاتصل بالملك العادل وأهدى اليه نفائس ، فأعجب العادل به ، وأمره بملازمته ، وكان كليام ــ كما يقول المقريزي في باطن الامر « عينا للفرنج يطالعهم بالاحوال ، فقيل هذا للعادل فلم يلتفت الى ما قيل عنه(١٤٦) . وفي عام ٦١١ هـ / ١٢١٤ م أمر الملك العادل « أن يقيم معه كليام الفرنجي الجنوى بدار الوزارة »(١٤٧) . يضاف الى ذلك أن دراسة العقود التجارية

(144) Heyd, op. cit., 1, P. 399 .

(145) Heyd, op. cit., 1, PP. 414 — 15 .

(١٤٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١٧٣ .

(١٤٧) المصدر السابق : ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٠ .

الجنوية أثبتت أنه كان للتجار الجنوية نشاطات واضحة في حلب ودمشق في مستهل القرن الثالث عشر (١٤٨) .

وعلى الرغم من أن أهل جنوة شاركوا في الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٨م (١٤٩) ، وفي حملة لويس التاسع عام ١٢٤٩ م (١٥٠) ، ضد مصر ، الا أننا لا نستطيع القول ان تلك المشاركة قد أدت الى انقطاع في العلاقات التجارية بين جنوة ومصر ، وذلك لاننا لا نجد ذكرا لأية اجراءات معادية للجنوية في مصر ، أثر وقوع هاتين الحملتين . واذا كانت السلطات المصرية قد اتخذت مثل هذه الاجراءات فربما كانت من قبيل تشديد المراقبة على التجار الفرنجة عامة في مصر أثناء الاحداث حتى اذا ما زال الخطر أعيدت الى التجار حريتهم وسمح لهم بمواصلة أعمالهم التجارية وفق الامتيازات التي يتمتعون بها في الديار المصرية .

ويلاحظ أن الضعف الذي أصاب تجارة جنوة في المدن الصليبية عامة وعكا بصفة خاصة ، في أواسط القرن الثالث عشر ، نتيجة حرب دير القديس سابا بينهم وبين البنادقة وبالتالي طردهم من مدينة عكا ، كما بينا في الباب السابق ، قد دفع الجنوية للتقرب من حكام مصر المسلمين بغية تعزيز نشاطها التجاري في الديار المصرية من جهة والتحالف مع المسلمين في مصر والشام للانتقام من منافسيهم البنادقة من جهة أخرى . ووضح ذلك كله في العلاقة الطيبة التي قامت ، بين الجنوية والظاهر بيبرس ، ففي عام ٦٣١هـ/١٢٦٢م وصل الى القاهرة رسول من جنوة ، فأحسن الظاهر اليه وأكرم وفادته(١٥١) . وعلى الرغم من أن المصادر لا تكشف عن أهداف هذه السفارة والمناقشات التي دارت بينها وبين الحكومة المصرية آنذاك ، الا انه يمكن القول بأنها تتعلق بتجديد امتيازات الجنوية في مصر ، وبقيام التحالف بين مصر وجنوة ضد الصليبيين في عكا . ويتضح ذلك مما ذكره ابن عبد الظاهر من أن السلطان الظاهر بيبرس قد وقع تحالفا مع الجنوية

(148) Byrne, ' Commercial Contracts' , P. 143 .

(١٤٩) عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٢٣٦ ، ٣١٠ .

(150) Runciman , A Hist. of the Crusades, 111, PP. 237 , 356 , 363 .

(١٥١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٩٩٥ ، ايضا انظر : المقريزي السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٥ .

في عـــكا(١٥٢) .

ولقد حرصت حكومة جنوة حرصا شديدا علـى الا يضعف الصراع بين المسلمين والصليبيين بالشام من علاقاتها التجارية مـع مصر ، بل ان انتصارات الظاهر بيبرس علـى الصليبيين قـد قوبلت بالترحـاب مـن الجنوية(١٥٣) . وعلى الرغم من أنهم عانوا خسائر فادحة من جراء فتـح الظاهر بيبرس لامارة انطاكية عام ١٢٦٨م ، فقد استمروا في نشاطهـم التجاري مع المسلمين في مصر والشام ، كما نجد أنهم كانوا يصدّرون الخشب والحديد والقار الى مصر عام ١٢٧١ م علـى الرغم من تحريـم البابوية نقل هذه السلع الى المسلمين(١٥٤) . كما أننا نسمع بوصول سفارة جنوية تحمل « هدية سنية » الىالقاهرة عام٦٧٤هـ/١٢٧٥–١٢٧٦م(١٥٥)، ولا تسعفنا المصادر في الكشف عن أهداف هذه السفارة ولكن يبدو أنهـا قد حلّت بعض المسائل المعلقة بين جنوة ومصر ،والدليل علـى ذلك أن الظاهر بيبرس قد أصدر وقتذاك عدة مراسيم تضمن للجنويـة الامـن والحماية لاعمالهم التجارية في مصر (١٥٦) . ولقد عادت السفارة الجنوية الى بلادها بكل الحفاوة والتكريم من السلطان(١٥٧) .

ولم يمض عشر سنوات على السفارة الجنوية السابقة حتى وصلت (١٢٨٥/٦٨٤ م) « رسل من الفرنج بتقادم من عند الجنوية(١٥٨) ». ويعتقد لـين بـول Lane Poole أن معاهدة تجارية قد تم توقيعها بين الجنوية والسلطان المنصور قلاوون آنذاك (١٥٩) ، واذا كنا لا نستطيع الجزم بتوقيع مثل هذه المعاهدة ، الا أنه يمكننا القول أن النشاط التجاري للجنويـة في مصر والشام كان مزدهرا آنذاك .

ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين جنوة ومصر نتيجة استيلاء المماليك

---

(١٥٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٠٧٥ – ١٠٧٦ .

(١٥٣) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٤٥ .

(154) Hodgson, op. cit., P. 138 ; Runciman, A Hist. of the crusades, 111, PP. 325 — 26 .

(١٥٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٤ .

(١٥٦) المصدر السابق : ج ٧ ، ص ٤٤ .

(١٥٧) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢١ .

(١٥٨) المصدر السابق : ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٩ ايضا : ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(159) Lane — Pool, A Hist. of Egypt, P. 281 .

عام ١٢٨٧م على سفينة تجارية جنوية ، محملة بالسلع والمتاجـر ، كانت راسية في ميناء الاسكندرية عقب عودتها من الشـــام . ورفض السلطـان المنصور قلاوون التخلي عن السفينة وحمولتها قبل دفع فدية كبيرة(١٦٠) .

ولقد ازدادت العلاقات بين جنوة ومصر سوءا نتيجـة فتح السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس عام ١٢٨٩م . وذلك أن هذه المدينـة كانت قد شكلت قومونا برئاسة أحد الشخصيات الجنوية (١٢٨٧/٦٨٦) يدعى بينديتو زكريا(١٦١) . وأعلنت حكومة جنوة بموجب ذلك ، حمايتها لمدينـة طرابلس ،ولهذا فان فتح السلطان قلاوون لها كان ضربة قاسية للنشاط التجاري الجنوي لا في الشام فحسب وانما في شرق البحر المتوسط (١٦٢) . وأثر ذلك بدأ آل زكريا الجنوية بأعمال قرصنة انتقامية ضد المسلمين ، نتيجة لما حل بهـم في طرابلس ، وهذا الحق بدوره أبلغ الاضرار في تجارة جنوة في مصر . فبعد استرداد السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس بأشهـر قليلـة ، قـام بينديتو زكريا الجنوي (١٢٨٩) باختطاف سفينـة مصريـة « كانت قـد خرجت من الاسكندرية وفيها تجار وأموال ، وذلك بالقرب مـن شواطىء آسيا الصغرى(١٦٣) » .كما قام أحد القراصنة الجنوية بمهاجمة مينـاء مصري صغير ، وهو ميناء الطينة ، الواقع في الدلتا(١٦٤) . ويذكر المـؤرخ المعاصر ابن عبد الظاهر أن الجنوية المقيمين في الاسكندرية قد خافـوا أن تنعكس عليهم أعمال القرصنة التي كان يقوم بها بينديتو زكريا ،وغيره من الجنوية فركبوا في مركـب وهربـوا (١٦٥) . ولما بلغ السلطـان المنصـور قلاوون ذلك « أمسك من بقي من الجنوية في الثغور ، ولم يتعرض الى شيء مـن أموالهم وضيق المسالك على جنس الجنوية ، وتبرأ منهم أهل عكا وجميع الفرنج » . وعندما ذهب بينديتو زكريا الى مدينة جنوة « أنكروا عليه ذلك

---

(160) Heyd, op. cit., 1, P. 415 .

(١٦١) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص ١٦٥ .

(162) Beazley, op. cit., 111, P. 477 .

(١٦٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص ١٦٥ .

(١٦٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص ١٦٥ .

(١٦٥) المصدر السابق : ص ١٦٥ .

وأخذوا منه التجار والمال(١٦٦) » .

وفي عام ١٢٩٠ ، بعثت الحكومة الجنوية سفارة من قبلها الى القاهرة برئاسة البرتو سبينولا ، وجلب البرتو معه التجار المصريين الذين أسرهم بينديتو زكريا في العام الماضي ، كما جلب معه أموال هؤلاء ومتاجرهم . وأبلغ السفير السلطنة بالنيابة عن حكام جنوة ، أن القومون الجنوي غير مسؤول عن أعمال القرصنة التي يقوم بها رعاياه ، أمثال آل زكريا ، ورجا السفير أن تعود العلاقات الودية بين جنوة ومصر الى ما كانت عليه . وبعد أن تردد السلطان المنصور قلاوون في هذا الامر ، وافق على توقيع هدنة مع الجنوية « لاجل عمارة الثغور » كما يقول ابن عبد الظاهر(١٦٧) ويرى هايد أن هذه الهدنة كانت في حقيقتها معاهدة سلام وتجارة وتعتبر بداية مرحلة جديدة في العلاقات التجارية بين جنوة ومصر ، وذلك لانها اعطت التجار الجنوية كل الضمانات اللازمة لهم في مصر ، ومنحتهم الحماية على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم في الديار المصرية ، وأعفتهم من بعض الرسوم الجمركية في موانىء مصر وأسواقها (١٦٨) . ومن ناحية أخرى فقد تعهد السفير الجنوي بأن يحترم الجنوية رعايا السلطان وأرضه ، وبحماية مراكب المسلمين ومتاجرهم وبألا يتعاون الجنوية مع أي طرف ضد المسلمين في مصر والشام(١٦٩) .

لم يلحق سقوط مملكة المقدس الصليبية (١٢٩١م) أضرارا «بالغة» بالجنوية ، كما هو الحال بالنسبة الى البنادقة ، وذلك لان تجارة جنوة في هذه المملكة كانت تعاني آنذاك ضعفا نتيجة سيطرة البنادقة وتفوقهم في عكا بصفة خاصة . وفضلا عن ذلك كله فان « الامان الشريف » الذي اصدره السلطان الاشرف خليل (١٢٩٢ — ١٢٩٣ م) (١٧٠) قد شمل الجنوية كما أشرنا من قبل(١٧١) ولكن على الرغم من كل ذلك فان جنوة قد

---

(١٦٦) المصدر السابق : ص ١٦٥ .

(١٦٧) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(168) Heyd, op. cit., 1, PP. 417 — 18 .

(١٦٩) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص ١٦٦ .

(١٧٠) ابن عبد الظاهر : الالطاف الخفية ، ص ٤٥ .

(١٧١) انظر ما سبق ص ٢٠٠ .

لجأت في تلك الفترة الى تهريب السلع والمتاجر الى الديار المصرية،وبخاصة الخشب والحديد والقار . ولقد أثبت بعض الباحثين أن الموثقين الجنوية كانوا لا يسجلون في العقود التجارية هذه المواد ، وذلك خوفا من الحرمان الكنسي(١٧٢) .

وهكذا فقد استمر النشاط التجاري للجنوية في مصر والشام في مستهل القرن الرابع عشر ، وظلت جالياتهم في مدن وموانىء السلطنة المملوكية تتمتع بامتيازاتها التجارية التي ضمنتها لها معاهدة عام ١٢٩٠ م (١٧٣) . ولكن ساءت العلاقة بين جنوة ومصر عام ٧١١ هـ/١٣١١ وقد انعكس ذلك على أحوال الجالية الجنوية في الثغور المصرية ونشاطها التجاري ، حيث أن آل زكريا الجنوية ، أصحاب جزيرة خيوس ، قد أسروا في هذا العام رسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، الذين كانوا في طريقهم الى خان مغول القفجاق اضافة الى رسل طقطاي الذين كانوا قد أرسلوا الى السلطان الناصر محمد ، وبلغ عدد الاسرى جميعا حوالي ستين أسيرا ، على ما يروي المقريزي(١٧٤) . ورفض آل زكريا اطلاق سراح الاسرى قبل الحصول على فدية قدرها ستون ألف دينار . وعندئذ رد السلطان على ذلك فأمر باعتقال « تجار الفرنج » في الاسكندرية ودمياط ومصادرة ممتلكاتهم ، « فأحيط بحواصلهم وحبسوا بأجمعهم » . ولكن سرعان ما تمت تسوية لهذه المسألة ، عندما تعهد احد التجار الجنوية المعتقلين ، للسلطان الناصر باحضار الرسل ومن معهم من المصريين المعتقلين في خيوس(١٧٥) .

وعلى الرغم من بعض أعمال القرصنة التي قام بها بعض الجنوية ضد السواحل الشامية كاغارتهم على بيروت (عام ١٣٣٣/٧٣٤ — ١٣٣٤م)(١٧٦)، فاننا نستطيع القول أن العلاقات التجارية بين جنوه ومصر والشام كانت مزدهرة خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، لان الجنوية كانوا القوة

---

(172) Prawer, op. cit., PP. 398 — 99 ; Mayer, op. cit., P. 174

(173) Beazley, op. cit., 111, P. 484 .

(١٧٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٠١ .

(١٧٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٠٢ .

(١٧٦) صالح بن يحي : تاريخ بيروت ، ص ٩٧ .

الرئيسية المهيمنة على تجارة الرقيق في منطقة البحر الاسود ، منذ استرداد البيزنطيين للقسطينطينية عام ١٢٦١ م . وهذا أمر يهم سلاطين المماليك ، خاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣ – ١٣٤١ م) الذي « أكثر من جلب المماليك والجواري وأكثر من طلب التجار اليه وبذل لهم المال ، وكان اذا أتاه بالجلبة من المماليك بذل له فيها أغلى القيم » (١٧٧) .

وضعف النشاط التجاري للجنوية ، نتيجة حملة بطرس الاول ، لوزيجنان ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ ، وقد أكد المقريزي اشتراك الجنوية بهذه الحملة « بغرابين » (١٧٨) . وقد عانى التجار الجنوية في الاسكندرية – كزملائهم من التجار الفرنجة – من أعمال الاعتقال والمصادرة التي قامت بها السلطات المملوكية أثناء احتلال الصليبين للمدينة .

وقد سارعت جنوة الى ارسال سفارة الى القاهرة بغية تبرئة نفسها من أنه لم يكن لها أي دور في حملة بطرس لوزيجنان ، وحاولت اطلاق سراح تجارها المعتقلين ، وبالتالي استئناف نشاطها التجاري فيمصروالشام. فيروي القاضي عبد الباسط أنهفي عام (٣٦٧ هـ/١٣٦٥ م) «قدمتالديار المصرية رسل ممتلك جنوه ومعهم هدية جليلة وستون من الاسرى من أهل الاسكندرية ، وأن هؤلاء الاسرى كانوا نصيبه في واقعة الاسكندرية (١٧٩) ، وهو يعتذر بأنه لم يعلم بواقعة الاسكندرية ، الا بعد أن حدثت ، وأنه متى قدر على ملك قبرص قبضه وقتله ، فأجيب الرسول الجنوي بالشكر والثناء وأثنى عليه الاسرى خيرا ، وأنهم لما وصلوا اليه أحسن اليهم وكساهم ورتب لهم ما يليق بهم حتى بعث بهم » (١٨٠) . وفي العام التالي (٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م) قدمت سفارة أخرى ، كما يقول المقريزي والقاضي عبد الباسط من « ممتلك جنوه » بمراسلة يسأل فيها أن يمكن تجارهم من النزول الى الاسكندرية على العادة في ذلك ، فأجيبوا الى ذلك (١٨١) . وبذلك

---

(١٧٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ص ٥٢٤ – ٥٢٥ .

(١٧٨) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٠٧ .

(١٧٩) المقريزي : المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(١٨٠) عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، ج ١ ، ورقة ٨٠ أ .

(١٨١) المصدر السابق ، ج ١ ورقة ٨٢ ب ، المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٤٤

استأنف الجنوية نشاطهم التجاري في مصر ، بعد انقطاع دام قرابة عام ، على حين لم يتمكن البنادقة ، كما بينا ، من استئناف نشاطهم التجاري في مصر والشام قبل توقيع معاهدة الصلح بين قبرص ومصر عام ١٣٧٠ م .

الا أن تدهورا خطيرا أصاب العلاقات التجارية بين جنوة ومصر خلال العقدين الاخيرين من القرن الرابع عشر ، وذلك أن تفوق النشاط التجاري للبنادقة ، منذ عام ١٣٧٠ ، في بيروت والاسكندرية كما يرى لابيدوس Lapidus ، قد أثار الجنوية (١٨٢) . فأغاروا على الموانىء المصرية والشامية وهاجموا السفن الاسلامية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ولعل أبرز هذه الغارات مهاجمة الاسطول الجنوي (٧٨٤ هـ/١٣٨٢ م) لمدينة صيدا والاستيلاء على بعض المراكب في مينائها ، والاغارة على مدينة بيروت ، في العام نفسه ، واستولى المغيرون الجنوية من بيروت على سفينتين تجاريتين للبنادقة (١٨٣) . وعلى الرغم من أن صلحا قد تم توقيعه بين الجنوية والسلطان المملوكي برقوق (٧٨٨ هـ/١٣٨٥ – ١٣٨٦) (١٨٤) فقد استولى القراصنةالجنوية على سفينة اسلامية (٧٩١–٧٩٢ هـ/هـ ١٣٨٨–١٣٨٩م) تحمل بعض أقارب السلطان برقوق وعددا من التجار المسلمين(١٨٥)،وهي في طريقها من بلاد الشام الى مصر ، وعندما علم السلطان بذلك «شقعليه ذلك غاية المشقة وطلب الى جميع البلاد الساحلية أن يقبض نوابها على كل من عندهم من الفرنج وتجار وغيرهم » . ويروى المقريزي : « أن شخصا قدم من ثغر الاسكندرية وأنه كان قد رأى نائب السلطنة فيها وحاشيته قد قبضوا على من بثغر الاسكندرية من الفرنج وختموا على حواصلهم وتسلموا

---

(182) Lapidus, Muslim cities, P. 27 .

(١٨٣) صالح بن يحي : تاريخ بيروت ، ص ٣١ – ٣٢ .

(١٨٤) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٤٦ .

(١٨٥) عن أعمال القرصنة الجنوية ضد الموانىء المصرية والشامية ، ما بين ١٣٨٢ – ١٣٨٧ ، انظر : المقريزي : السلوك ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٩٠ ، ٥١٥ ، ٥٣٣ ، ٥٦٢ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ، ص ٧ ، عاشور : العصر المماليكي ص ٢٧٨ .

امتعتهم وكان ما كان لهم » (١٨٦) . كما أمر السلطان بمنع دخول التجار الجنوية الى بلاد المسلمين « حتى يحضر الجنوية الاسرى (١٨٧) » واسرعت جنوه في ارسال سفارة الى القاهرة ٧٩٢ هـ/١٣٨٩ م ومعها جميع الاسرى المسلمين فضلا عن هدية ثمينة الى السلطان برقوق وتم توقيع الصلح بين مصر وجنوه ، و « أمر السلطان بفك خواتم حواصل الفرنج وخلع على القاصد » (١٨٨) . الا أن هذا الصلح لم يوقف أعمال القراصنة الجنوية ضد الموانىء المصرية والشامية وبالتالي فقد كان النشاط التجاري للجنوية في مصر والشام ، يعاني ضعفا وصعوبات بالغة ، وذلك في أواخر القرن الرابع عشر .

(١٨٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك : ج ٩ ، ص ٣٣ ، انظر أيضا : المقريزي: السلوك ج ٣ ، قسم ٢ ص ٥٨١ — ٥٨٥ .

(١٨٧) ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٨ .

(١٨٨) عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول : ورقة ١٤٧ أ ، العيني : تاريخ البدر في اوصاف أهل الاصر ، مخطوط ، ورقة ١٣١ ب .

الفصل الثاني

التنظيمات التجارية والمعاملات المالية

لقد حرصت المدن الايطالية على تنظيم أساطيلها التجارية المتجهة الى مصر والشام ، الا أن ظروفا معينة لعبت دورا حاسما في تحديد مواعيد رحلات هذه الاساطيل ، وذلك أن حركة الرياح في البحر المتوسط قد حددت المواعيد الملائمة للملاحة بين المدن الايطالية والسواحل المصرية والشامية (١)، كما أن مواعيد الحج الى بيت المقدس قد لعبت دورا هاما في تحديد مواعيد اقلاع السفن الايطالية وعودتها ، وذلك لان نقل الحجاج المسيحيين كان بالنسبة الى المدن الايطالية موسما تجاريا هاما ، جمعوا فيه، في بعض الاحيان ، بين نقل السلع والحجاج وتقاضوا أجورا عالية من هؤلاء الحجاج ، وبتعبير آخر فان نقل الاساطيل الايطالية للحجاج الى الاماكن المقدسة كان جزءاً لا يتجزأ من النشاط التجاري للمدن الايطالية في مصر والشام (٢) . ويضاف الى ذلك أن مواعيد وصول التوابل ، وغيرها من سلع ومتاجر الشرق الاقصى، الى الموانىء المصرية والشامية، قد لعبت بدورها دورا كبيرا في تحديد مواعيد رحلات الاساطيل التجارية الايطالية الى مصر والشام (٣) .

واقتصرت المدن الايطالية ، حتى أواسط القرن الثالث عشر على القيام برحلة تجارية واحدة ، في العام ، الى مصر والشام ، وكانت أساطيلها التجارية تنطلق في فصل الربيع ، وبخاصة في شهر أبريل أو مايو ، وتعود الى ايطاليا في اغسطس أو سبتمبر ، أو انها كانت تبحر في شهر اغسطس او سبتمبر ، وتعود الى ايطاليا في أواخر يونيو من العام التالي ، بعد أن

(1) William of Tyre, Hist. of deeds , 1, PP. 548 — 49 .

(2) Canon, op. cit., PP. 124 , 155 .

(3) Heyd, op. cit., 11, PP. 440 — 42 .

تمضي فصل الشتاء في احد الموانىء المصرية أو الشامية (٤) .

غير أن الاساطيل التجارية الايطالية أخذت ، منذ أواخر القرن الثالث عشر ، تقوم برحلتين تجاريتين سنويا الى مصر والشام (٥) وذلك نتيجة استخدام البوصلة والخرائط البحرية . الاولى : رحلة الربيع ، التي يقلع فيها الاسطول من ايطاليا في فبراير ويعود في مايو والثانية : رحلة الصيف ، التي يقلع فيها الاسطول من ايطاليا في أغسطس ويعود في ديسمبر (٦) .

وكان الاسطول التجاري البندقي ، الذي يتجه الى مصر يتوقف في محطتين تابعتين للبندقية وهما : مودون : Modon وكورون Coron ثم يتجه الى كريت ، وبعدها يتجه الى الاسكندرية مباشرة ، اما اذا كان متجها الى الموانىء الشامية فعليه أن يتابع طريقه من كريت الى قبرص أو رودس ثم الى الشاطىء الشامي (٧) .

اما بالنسبة الى السفن الجنوية والبيزاوية ، المتجهة الى مصر والشام ، فقد كان عليها أن تتوقف في احد الموانىء الصقلية ، ثم الى كريت وقبرص ورودس اذا كان اتجاهها نحو الشام . أما اذا كان هدفها مصر فكانت تتجه من كريت الى الشواطىء المصرية مباشرة (٨) . أما طريق العودة ، فالسفن الايطالية التي تغادر مصر في فصل الصيف الى الغرب الاوربي بصفة عامة تنطلق من الموانىء المصرية باتجاه الشمال الشرقي ، حيث تتوقف في أحد

---

(4) Lane, ' The Economic meaning ' P. 608 ; Idem, Amaritime P. 72 , Atiya, Crusade, Commerce,, P. 176 ; Goitein, Amediterranean., P. 317 .

(٥) وضع لين لوحة حدد فيها مواعيد اقلاع سفن البندقية الى مصر والشام ، وبين انه من ١٠ الى ١٥ فبراير موعد اسطول الربيع الى الشام وفي ٢٥ اغسطس موعد اسطول الصيف الى بيروت ، وفي ٣٠ اغسطس موعد اسطول الصيف الى الاسكندرية . انظر تفصيل ذلك :
Lane, ' Rhythm and rapidity ' , P. 110 .

(6) Lane, ' Rhythm ' , P. 110 .

(7) Heyd, 1, PP. 180 — 81 ; Lane, Operation. ; P. 188 .

(8) Heyd, op. cit., 1, P. 182 .

الموانىء الشامية ، أو في جزيرة قبرص قبل أن تجد الرياح المناسبة لتدفع بها غربا ، أما السفن الايطالية التي تغادر الموانىء المصرية والشامية في فصل الربيع أو الخريف فانها تتجه مباشرة الى ايطاليا لان حركة الرياح ملائمة لاتجاهها (٩) .

وكانت قوانين المدن الايطالية تحتم على اساطيلها التجارية السفر الى مصر والشام على شكل قوافل (١٠) ، فالسناتو البندقي كان يلزم السفن التجارية المتجهة الى مصر والشام بالسفر على هيئة قوافل كما أن القوانين البحرية للبندقية لم تسمح بنقل التوابل من الشرق الى البندقية الا بواسطة القوافل التجارية . كما ألزمت القوانين الجنوية السفن التجارية بالسفر الى مصر والشام على شكل قوافل ، وكان يرافق هذه الاساطيل التجارية ممثل عن حكومة المدينة ، فضلا عن سفن حربية لحراسة القوافل والدفاع عنها ضد القراصنة (١١) . وكانت قافلة السفن التجارية التابعة للبندقية التي تتجه الى مصر تتألف من أربع الى ست سفن ، اما قافلة الشام فقد تألفت من خمس سفن من بينهم سفينتين مخصصتين لنقل الحجاج (١٢) . ولكن ذلك لم يكن قاعدة مقررة ، ففي مستهل القرن الرابع عشر أصدرت حكومة البندقية أوامر تقضي بألا تزور السفن التجارية التابعة للبندقية اي ميناء في الشام اذا كان عددها يقل عن سبع سفن (١٣) . أما قافلة السفن التجارية الجنوية فكانت تتألف من أثني عشر سفينة موزعة بين مصر والشام (١٤) .

---

(9) Lane, Amaritime, P. 72 ; Stillman, op. citi., P. 28 .

(١٠) عرفت قوافل الاساطيل التجارية التي تخرج من البندقية باسم Mudua أو Mudae وهي كلمة تعنى المدة أو الموسم ، وهي تشير الى الفترات التي حددتها القوانين البندقية بالنسبة الى تحميل السفن التجارية المتجهة الى الشرق ، وفي القرن الخامس عشر أصبحت هذه الكلمة تعني السفن التجارية البندقيـــة التي تحمـــل الى الشرق خـــلال شهر مارس . انظر :
Lane, ' Fleets ' PP. 128 — 29 .

أيضا صبره ، ص ١١٦ .

(11) Atiya, crusade, commerce., P. 176 ; Lane; The merchant ', PP. 143, 45 .

(12) Lane, A maritime, P. 287 ; Heyd, op. cit., 11, P. 453

(13) Lane, ' Operation ' , P. 187 .

(14) Goitein, A mediterranean., 1, P. 317 .

وكانت القوافل الرسمية غالبا ما تعجز عن نقل كميات السلع والمتاجر المعدة للتصدير من موانىء مصر والشام ، لذلك كانت تسبقها عادة ، الى كل من الاسكندرية وبيروت سفينةاخرى، كانت تعرف في البندقية باسم الكوكا Coca ، وكانت الكوكا تنتظر في هذين الميناءين حتى وصول القافلة ومن ثم يتم شحنها بالتوابل والبضائع الشرقية الاخرى ، الفائضة عن حمولة السفن التجارية التابعة للقافلة (١٥) .

اما أهم السلع والمتاجر التي تم تبادلها بين المدن الايطالية ومصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد نقلت المدن الايطالية من مصر والشام نوعين من السلع ، أولهما السلع المحلية وثانيهما سلع ومتاجر الشرق الاقصى التي تصل الى الموانىء والمدن المصرية والشامية . أمام أهم السلع والمنتجات المحلية ، التي كانت مركز اهتمام النشاط التجاري للمدن الايطالية فهي :

المنسوجات : نقلت المدن الايطاليةمن مصر والشامالمنسوجات والاقمشة بأنواعها المختلفة ، وكانت المنسوجات الكتانية من أهم المنسوجات التي نقلتها المدن الايطالية ، فعلى الرغم من أن أوربا كانت تعنى عناية فائقة آنذاك بالكتان وصناعاته ، غيران المنسوجات الكتانية المصرية كانت أكثر متانة ، وذات شهرة عالمية واسعة ، واستمرت تحقق تفوقا على المنسوجاتالكتانية الاوربية حتى القرن الرابع عشر (١٦) . وقد أكدت وثائق الجنيزة أن المنسوجات الكتانية المصرية كانت من السلع الرئيسية في التجارة الدولية منذ القرن الحادي عشر (١٧) . وقد نقل التجار الايطاليون المنسوجات الكتانية المصرية لا الى الغرب الاوربي فحسب ، وانما الى بيزنطة أيضا (١٨) وبالاضافة الى المنسوجات الكتانية (١٩) نقلت المدن الايطالية من مصر أنواعا

---

(15) Heyd, op. cit., 11, P. 447 .
(16) Stillman, op. cit., P. 28 ; Prawer, op. cit., P. 398 .
(17) Goitein, A Mediterranean, PP. 104 — 105 .
(18) Baker, med. routes, P. 18 .

(١٩) كانت أشهر مراكز صناعة المنسوجات الكتانية في مصر : الاشمونين والفرما والمحلة وسمنود وبناصير والاسكندرية وتنيس ودمياط . انظر : المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠١ — ١٠٢ ، ٢٣٦ ابن أياس : نشق الازهار مخطوط ، ورقة ٢٧٧ — ٢٧٨ . ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ٦١ — ٦٢ .

اخرى من المنسوجات كالمنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية والقصب (٢٠) .

كما نقلت المدن الايطالية منسوجات من الشام الى الغرب الاوربي وبصفة خاصة المنسوجات الحريرية والقطنية ، التي كانت دمشق مركزا رئيسيا لصناعتها (٢١) ، حتى أنه كان فيها سوق للحريريين وآخر للقطانيين (٢٢) ، كما كانت كل من حلب وحماه مركزا رئيسيا للصناعات القطنية (٢٣) . كما جلب الايطاليون من مدينة طرابلس المنسوجات الحريرية (٢٤) . ومن مدينة بعلبك الثياب البعلبكية التي ذاع صيتها في الغرب الاوربي (٢٥) .

الشب : تطلبت الصناعات النسيجية في الغرب الأوربي في العصور الوسطى ، استخدام احجار الشب بشكل واسع النطاق (٢٦) وذكر ابن مماتي : « أن الشب حجر معروف يحتاج اليه في أشياء كثيرة اهمها صبغ الاحمر ، والروم فيه الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة ، وهو عندهم ما لا بد منه ولا مندوحة عنه » . وكان يجلب الشب من صعيد مصر والواحات الى الاسكندرية (٢٧) . واكد الصفدي أن اكثر انواع الشب المصري هو الشب الابيض الموجود في الواحات (٢٨) . وقد احتكرت الدولة المصرية حق بيع الشب

---

(٢٠) انظر تفصيل ذلك في : المقريزي : ثغر دمياط ، مخطوط ، ورقة ٦٠ — ٦١ ، ابن اياس : نشق الازهار ورقة ٦٥ أ ، ابن مماتي : ص ٨١ ، المقريزي : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٩ ، ابن شاهين ص ٤١ ، ابن ظهيرة : ص ٦١ — ٦٢، عاشور : العصر المماليكي ص ٢٨١ .

(21) Goitein ; A Mediterrenean ; P. 102 .

(٢٢) ابن صصري : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ١٧٣

(٢٣) انظر : ابن سعيد : ص ١٥٤ ، ابن بطوطة : ج ١ ، ص ٦٧ .

(24) Poloner, P. 33 ; Burchard ; P. 16 ; Ludolph ; PP. 19 — 20 .

(٢٥) انظر : ابن بطوطة : ج ١ ، ص ٨٣ — ٨٤ ، ابن اياس : نشق الازهار ، ورقة ٧١ أ .

(26) Cahen, op. cit., P. 433 .

(٢٧) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ ، المقريزي : الخطط ج ١ ، ص ١٠٨ ، ربيع : النظم المالية ، ص ٤٥ .

(٢٨) الصفدي : نزهة الملك والممالك ، مخطوط ، ورقة ١٥ أ .

الى التجار الايطاليين الواردين الى مصر ، وفرضت أقسى العقوبات على التجار الذين يحاولون بيع الشب (٢٩) . ولهذا لم يقم التجار المصريون بنقل الشب الى الغرب الاوربي ، وانما جاء التجار الايطاليون الى مصر لشراء هذه المادة وتسويقها في الغرب الاوربي (٣٠) .

النطرون : نقل التجار الايطاليون من مصر النطرون ، وقد حدد المقريزي الجهات التي يوجد فيها معدن النطرون في مصر فقال : « أما النطرون فيوجد في البر الغربي من ارض مصر بناحية الطرانة وهو احمر واخضر ، ويوجد فيه بالفاقوسية شيء دون ما يوجد في الطرانة » (٣١) . وكان ينقل هذا المعدن الى الاسكندرية حيث كان يخزن فيها ريثما يتم بيعه للتجار الايطاليين من قبل الدولة المصرية لانه كان من احتكارات الدولة كما هو الحال بالنسبة الى الشب (٣٢) .

البلسان : ونقل التجار الايطاليون من مصر دهن البلسان أو ما تسميه العامة بالبلسم . وحجر البلسان لا ينبت الا بمصر وبخاصة في المطرية، وكان « ملوك النصارى يعظمونه وهو عندهم انفس الاشياء » وهذا يفسر لنا اهتمام السلطات المصرية بحماية انتاج البلسان ، وكذلك اهتمام الرحالة اللاتين بالبلسان واصطحابهم كميات كبيرة منه اثناء عودتهم الى أوربا (٣٣) .

---

(٢٩) انظر : المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ١٠٨ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ، ٤٥٩ — ٤٦٠ .

(30) Labib ; Handelchsichte., P. 314 .

(٣١) المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ١٠٩ .

(٣٢) انظر تفصيل ذلك في : ابن مماتي ، ص ٣٣٤ . ابن العمري : التعريف ، ص ١٧٥ ، المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ١٠٨ ، القلقشندي : صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ — ٤٦١ ، ربيع : النظم المالية ، ص ٤٥ ، ايضا
Lapidus, ' The grain economy ' , P. 1 .

(٣٣) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٣٣ ، ايضا :
Burchard, P. 62 ; Niccolo , P. 93 ; Mandeville ; PP. 36 — 38 .

الزمرد : « وهو معدن لا يوجد الا بمصر » ومنها « يحمل الى سائر الدنيا(٣٤) . الا ان انتاجه قد أهمل بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون لقلة ما يتحصل منه على قول القلقشندي (٣٥) . كما نقل التجار الايطاليون مواد أخرى عديدة مثل الزجاج من مصر والشام (٣٦) وقصب السكر والسكر المصنع (٣٧) من مصر والشام أيضا (٣٨) .

ولقد قام التجار الايطاليون بنقل سلع ومتاجر الشرق الاقصى من المدن والموانىء الشامية والمصرية مثل الحرير والخزف والتوابل الهندية بأنواعها المختلفة مثل الفلفل والقرفة والزنجبيل والقرنفل وكذلك الاحجار الكريمة من سيلان ، وخشب البرازيل ، الذي تستخرج منه الصباغة الحمراء (٣٩) . وكانت هذه السلع تصل الى اليمن بواسطة التجار الهنود ثم ينقلها التجار المسلمون عبر البحر الاحمر الى مصر ، حيث يتسلمها التجار الايطاليون . كما كانت تصل هذه السلع الى الشام عن طريق الخليج العربي وفارس ومن ثم الى الشام عبر العراق (٤٠) . كما نقل التجار الايطاليون بعض سلع شبه الجزيرة العربية ، التي كانت تصل الى مدن مصر والشام ، مثل اللؤلؤ من البحرين والعنبر من عمان (٤١) . كما نقل التجار الايطاليون من مدن

---

(٣٤) انظر تفصيل ذلك : ابن مماتي ، ص ٨١ ، ابن ايبك : الدر الفاخر ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٣٣ .

(٣٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٩ .

(36) Niccolo, PP. 58, 79 ; Haynes ; Glass Through the ages, PP. 52, 55, 57 ;

(٣٧) انظر : ابن دقماق : الانتصار ، ص ٤٠ — ٤٦ .

(٣٨) انظر تفصيل ذلك : المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، ابن شاهين : ص ٣٥ ، ابن ظهيرة : ص ١٣٤ ، ايضا :
Burchard, P. 16 ; Poloner, P. 30 · Stillman, P. 47 .

(٣٩) انظر تفصيل ذلك : ابن بطوطة ، ج ١ ص ٥٩٤ — ٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٩ .
Also : Goitein, Amediterranean ; P. 45 ; Stillman, op. cit., PP. 44, 49 ; Atiya, Cursade, commerce., P. 115 .

(40) Lane, Amaritime., PP. 70 — 71 .

(٤١) الدمشقي : محاسن التجارة ، ص ١٩ ، ابن العمري : التعريف ، ص ٨٠ — ٨١ .

الشام بعض سلع آسيا الصغرى ، مثل الشب الذي كان يأتي من آسيا الصغرى الى حلب عن طريق القوافل (٤٢) .

اما بالنسبة الى السلع والمتاجر التي نقلها التجار الايطاليون الى مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فهي :

الخشب : لقد اكدت وثائق الجنيزة أن الخشب كان السلعة الرئيسية التي نقلها التجار الايطاليون من الغرب الاوربي الى مصر خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (٤٣) . وبيّن القاضي عبد الباسط ، والرحالة نيقولا ان التجار الايطاليين كانوا ينقلون الاخشاب الى مصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٤٤) . وكانت هذه المادة ذات اهمية فائقة في مصر للحاجة الماسة اليها للبناء وصناعة السفن (٤٥) .

المعادن : ونقل التجار الايطاليون الى مصر والشام انواعا عديدة من المعادن مثل الحديد ، فالرحالة نيقولا تألم عندما شاهد « التجار المسيحيين » ينقلون الحديد الى مصر (٤٦) . وكذلك نقل الايطاليون الى مصر والشام ، القصدير والنحاس والرصاص ، من انجلترا وايرلنده كما يقول ابن سعيد (٤٧) . واشار المقريزي الى كثرة جلب التجار الفرنج للنحاس الاحمر ، وذلك لان دولة المماليك كانت تسك فلوسا نحاسية وبخاصة في عهد السلطان برقوق (٤٨) .

ويعتبر الرقيق من اهم ما حمله التجار الايطاليون الى موانىء مصر والشام ، وحتى أوائل القرن الثالث عشر كان التجار الايطاليون ينقلون الرقيق الى مصر من اوروبا الوسطى ، الا أن تحول الهنغار والسلاف الى المسيحية قد وضع نهاية مؤقتة لهذه التجارة ، خاصة

(42) Cahen ; ' L'alum Avant phocée ' , PP. 442 — 43 .

(43) Goitein ; Amediterranean. , P. 301 .

(٤٤) انظر : عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، ورقة ٤٠ ب ، ايضا :
Niccolo, op. cit. , P. 91.

(45) Niccolo, op. cit., P. 91 ; Goitein , Amediterranean., 1, P. 46

(46) Niccolo, op. cit., P. 91 .

(٤٧) ابن سعيد : ص ١٨١ ، ايضا : عبد الباسط : ج ١ ورقة ٤٠ ب .

(٤٨) المقريزي : اغاثة الامة ، ص ٧١ ، شذور العقود ، ص ٣٩ .

وان الكنيسة حرّمت استرقاق المسيحيين (٤٩) . وفي أواسط القرن الثالث عشر انعش الجنوية هذه التجارة ، ونقلوا أعدادا كبيرة من الرقيق الاتراك والمغول من منطقة البحر الاسود الى مصر لبيعها الى سلاطين المماليك (٥٠) .

ولقد وصلت تجارة الرقيق الى ذروتها في أيام سلاطين بني قلاوون الذين اكثروا من شراء الرقيق وشجعوا التجار الايطاليين على جلب المزيد منهم ، ودفعوا لهم أغلى الاثمان . حتى أن السلطان الناصر محمد عين تاجرا جنويا كوكيل له لجلب المماليك من كافا (٥١) .

كما جلب التجار الايطاليون أنواعا من المنسوجات والاقمشة من الغرب الاوربي الى مصر والشام ، مثل المنسوجات الكتانية والصوفية من الفلاندرز وايطاليا (٥٢) ، ولهذا ذاع صيت « الجوخ البندقي » في مصر والشام ، ويقول القلقشندي : « والى البندقية ينسب الجوخ البندقي الفائق لكل نوع من الجوخ » (٥٣) . وكانت الثياب البندقية في مقدمة الهدايا التي كانت تصل الى سلاطين المماليك من ملوك أوربا (٥٤) ، ولقد كان في القاهرة « سوق الجوخيين » ، وهو السوق المخصص « لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج » (٥٥) . واشتكى المقريزي من مسألة انتشار الاقمشة والمنسوجات الايطالية وتفضيل الناس في مصر والشام للبضائع والاقمشة القادمة من أوربا (٥٦) .

كما نقل التجار الايطاليون الى مصر والشام كل انواع الفراء مثل السنجاب والقاقم والسمور ، من موانىء البحر الاسود ، التي تصلها

(49) Mcneill, op. cit., P. 54 .

(٥٠) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، مخطوط ، ورقة ٩٣ أ ، ايضا :
Labib, Handelsgeschichte, PP. 327 — 28 .

(٥١) انظر تفصيل ذلك في : المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة التركية ، مخطوط ، ورقة ٣١ ، شافع بن علي : الفضل المأثور ، مخطوط ، ورقة ٩٨ — ٩٩ .

(52) Labib, Handel., P. 311 ; Pounds , P. 192 .

(٥٣) القلقشندي : ج ٥ ، ص ٤٠٥ .

(٥٤) ابن العمري : التعريف ، ص ٦٣ .

(٥٥) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

(56) Lapidus, Muslim cities, P. 34 .

بدورها من روسيا الشمالية (٥٧) . وكان في القاهرة سوق خاص للفرائيين (٥٨) . كما جلب التجار الايطاليون الى مصر والشام انواعا أخرى من السلع والمتاجر ، مثل الخمور من كريت وغرب أوربا (٥٩) والجبن والعسل من كريت وصقلية وبيزنطة (٦٠) ،والمرجان من ايطاليا(٦١) وزيت الزيتون (٦٢) والزعفران (٦٣) .

ولقد أدركت المدن الايطالية أن أول عنصر من عناصر استقرار نشاطها التجاري في مصر والشام ، هو أن يطمئن تجارها على حياتهم وأموالهم ومتاجرهم ، ولهذا فقد اشتملت المعاهدات ، التي وقعت بين المدن الايطالية وحكام مصر والشام ، على تعهد السلاطين بحماية السفن التجارية الايطالية التي تتحطم أو تغرق في المياه المصرية والشامية ، وبتسليم ما يتم انقاذه من السلع والمتاجر الى أصحابها أو لذويهم أو للقنصل الذي يتبع اليها أصحاب السلع (٦٤) . كما منحت السلطات المصرية الحق للسفن التجارية الايطالية بالالتجاء الى الشواطىء المصرية والشامية عندما تضطرها ظروف الطقس أو نفاذ المؤونة أو حالات العطب . وتعهدت أيضا بحماية هذه السفن وتجارها ومتاجرها . وتعهدت دولة المماليك بحماية ممتلكات التجار الايطاليين الذين يموتون في مصر والشام ، وبتسليم ممتلكاتهم وأموالهم الى ورثتهم أو الى قناصلهم أو الى حكوماتهم (٦٥) .

وترتبط حركة نقل السلع والمتاجر بين المدن الايطالية ومصر والشام ـ خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ـ بمسألة الرسوم

---

(٥٧) ابن بطوطة : ج ١ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

(٥٨) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٥٩) ابن اياس : نشق الازهار ، مخطوط ، ورقة ١٦٨ ب .

(٦٠) ابن سعيد : ص ١٩٧ ، ابو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٩٥ .

(61) Goitein, Amediterranean, 1, P. 303 .

(62) Ashtor, op. cit., PP. 251 , 253 .

(٦٣) عبد الباسط ، ورقة ٤٠ ب ، ايضا :
Heyd, 11, P. 42 .

(64) Mas latrie, Traité. P. 77 — 78 , 84 ; Amari, 1, P. 286 .

(65) Mas latrie, Traité., PP. 74 , 90 ; Amari ; 1, P. 243 ; Heyd, op. cit., 1, P. 418 .

والضرائب التي كان يدفعها التجار الايطاليون في الموانىء المصرية والشامية. فعندما كانت تصل السفن التجارية الى أحد هذه الموانىء ، يتم تفريغ حمولتها وتفتيشها وتسجيل السلع والمتاجر التي تحملها (٦٦) ، وذلك من أجل تحديد الرسوم والضرائب المستحقة عليها عند بيعها . وفي الوقت ذاته كانت كل سفينة تدفع ضريبة الميناء فور وصولها ، وكانت هذه الضريبة تختلف ,وفقا لحجم السفينة ونوعية حمولتها (٦٧) . كما كان على كل تاجر وصل على ظهرها أن يدفع ضريبة قدرها ٢٪ من قيمة ما معه من سبائك أو عملة نقدية (٦٨) .

ولقد تنوعت الضرائب التي دفعها التجار الايطاليون ، في مصر والشام ، الا أن أهمها ضريبتاالصادر والوارد Sadro et Verdo وكان الجمركهو الهيئة المختصة بتحصيل هاتين الضريبتين (٦٩) ولم تحصّل ضريبة الوارد الا على البضائع التي كانت تباع فعلا ، أما اذا لم تجد بعض البضائع سوقا لها في البلاد فلا يدفع عنها ضريبة وارد (٧٠) .

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر كان التجار الايطاليون يدفعون رسوما ، على السلع التي يجلبونها الى مصر ، قيمتها خمس قيمة هذه السلع . وقد أشار المخزومي ،الذي عاشفيأواخر ايام الدولة الفاطمية،الى الخمس ، ولكنه صنف الرسوم المفروضة على التجار « الفرنجة »وفقاالانواع السلع التي يحملها هؤلاء التجار (٧١) .

وفي مستهل القرن الثالث عشر أكد ابن مماتي بأن الخمس هو الضريبة

---

(٦٦) انظر تفصيل هذه الاجراءات في : المخزومي : المنهاج في علم خراج مصر ، مخطوط ، ورقة ٦٣ أ ، ٨٧ ب ، ٩٠ ـ ٩١ .

(67) Smith, Nobility., P. 92 ; Idem, ' Government ' P. 112 .

(٦٨) عاشور : المجتمع المصري ، ص ٥٥ ، ايضا :
Heyd, 11, PP. 429 .

(69) Maslatrie, Traité., PP. 75 , 90 ; Amari, op. cit., 1, P. 289 .

(70) Mas latrie, Traité., P. 92 .

(٧١) المخزومي : المنهاج في علم خراج مصر ، ورقة ٥٠ ، انظر مناقشة هذا الموضوع في :
Rabie, op. cit., PP. 93 — 94 .

التي تؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغر « ولكنه استأنف قائلا : « ربما بلغ ما يستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين دينارا، وربما انحط عن العشرين دينار ويسمى كلا هما خمسا » (٧٢) . ويبدو أن هذه المسألة بقيت على هذه الحال حتى أواسط القرن الخامس عشر ، على الاقل، لان المقريزي والقلقشندي يؤكدان استمرارها كما ذكرها ابن مماتي(٧٣) .

وحددت المعاهدات التجارية التي وقعتها المدن الايطالية مع سلاطين الايوبيين والمماليك ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، نسبة الضرائب التي كان يدفعها التجار الايطاليون . فالمعاهدة التي وقعتها مدينة بيزا مع السلطان الايوبي العادل عام ١٢١٥ م ، اشتملت على أن الرسوم المفروضة على بضائع البيارنة هي ١٦٪ من قيمة هذه البضائع والسلع ، أما الرسوم المفروضةعلىالذهب والفضة فقد حددتها المعاهدة ب ١٠٪(٧٤). كما أن المعاهدة التي وقعتها مدينة جنوه مع السلطان المملوكي المنصور قلاوون عام ١٢٩٠ م، قد بينت الرسوم التي كان يدفعها تجار هذه المدينة في مصر فالمنسوجات والاقمشة بكافة أنواعها ، سواء الخام منها أو المصنع، وكذلك الاخشاب ، كانت تدفع الجنويه عليها رسوما قدرها ١٠٪ ، أما السلع التي كان يتم وزنها ، كالزيوت والحبوب ، فيدفعون عنها رسوما قدرها ١٢٪ . أما الرسوم المتعلقة بالذهب والفضة فكانت تصل الى ٤٪ ، في حين كانوا يدفعون عن السبائك الذهبية ٦٪ (٧٥) . كما أن المعاهدات التي وقعتها مدينة البندقية مع مصر قد حددت الرسوم التي كان يتوجب على التجار البنادقة دفعها ، ففي زمن السلطان الناصر محمد دفع البنادقة ١٠٪ على جميع البضائع والسلع ، عدا الذهب والفضة الذين يؤتى بهما كسبائك ويضربان بدار السك دنانير اسلامية ، حيث كانت الرسوم عليهما ٢٪ . كما دفع البنادقة ١٠٪ على الخشب والحديد

(٧٢) ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ ، ايضا : ربيع : النظم المالية ، ص ٥١

(٧٣) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ – ٤٦٤ .

(74) Amari, op. cit., 1, P. 285 ; Heyd, 1, PP. 412 — 413.

(75) Heyd, op. cit., 1, P. 418 .

والقار (٧٦) . ولكن كانت هناك استثناءات بالنسبة الى هذه الرسوم . فمعاهدة عام ١٣٠٢ م ، التي وقعها السلطان الناصر محمد مع البندقية ، اشتملت على أن يدفع التجار البنادقة نصف الضريبة المقررة على تجارتهم في مصر ريثما يتم استيفاء التعويضات عن الاضرار التي لحقت بالسفينة التابعة للبندقية عند غزة في عهد السلطان الاشرف خليل (٧٧) .

وقد دفع تجار المدن الايطالية جميعا ضرائب اضافية مثل ضريبة السمسرة قدرها ٢٥ر٠٪ ، وكذلك ضريبة للترجمة على الصفقات التي تتم خارج الجمرك قدرها ٢٥ر٠٪ أيضا على كل صفقة (٧٨) .

وتمتع تجار المدن الايطالية ، في مصر والشام ، باعفاءات جمركية وضرائبية متعددة ، فالمعاهدات التي وقعتها مدينة بيزا مع السلطان الملك العادل ، عام ١٢٠٨ م وعام ١٢١٥ م ، أعفت الخمور والجبن والمواد الغذائية الاخرى ، التي كان يجلبها البيازنة للاستهلاك الشخصي في فنادقهم بمصر والشام ، من أية رسوم أو ضرائب (٧٩) . كما أعفى القنصل البيزاوي ورجال الدين البيازنة الذين كانوا يرعون الشئون الروحية للبيازنة في مصر والشام ، من أية ضرائب (٨٠) .

كما تم اعفاء التجار الجنوية ، بموجب معاهدة عام ١٢٩٠ م من الضرائب والرسوم الجمركية المتعلقة بالفراء والاحجار الكريمة ، كما أعفى الجنويه من الرسوم الجمركية المتعلقة بكل المواد الغذائية والخمور المخصصة للاستهلاك في فنادقهم بمصر والشام (٨١) .

ويبدو أن التجار البنادقة قد تمتعوا بنصيب كبير من الاعفاءات

(76) Maslatrie, Traite., PP. 89 , 92 .

عفاف صبره : ، ١٢٩ – ١٣٠ .

(٧٧) انظر ما سبق ، ص ٢٣١ .

(78) Mas latrie, Traité., PP. 79 — 80 , 85 ; Amari, 1, PP. 259 — 60 .

(79) Amari, op. cit., 1, 286 .

(80) Ibid.,

(81) Heyd, op. cit., 1, PP. 414 — 18 .

الضرائبية والجمركية في مصر والشام ، فقد أعفى قناصل البنادقة من دفع رسوم على البضائع الخاصة بهم والتي تصل قيمتها الى حوالي الف بيزانت . كما أعفى البنادقة من الرسوم المتعلقة باللآلىء والفراء والاحجار الكريمة (٨٢) . وكذلك أعفي من الرسوم المتعلقة بالذهب والفضة اللذين يقدمونهما الى دار الضرب لسكهما نقودا . كما تم اعفاء البنادقة من ضريبة الجوالي « الرأس » لانهم ليسوا من مواطني البلاد مع أن غيرهم من الجنسيات الاخرى كانوا يدفعونها . وأعفى البنادقة أيضا من ضريبة الحراسة وضريبة دخول الحجاج البنادقة الى الاراضي المقدسة (٨٣) . كما تم اعفاء البنادقة من الرسوم المفروضة على الجبن والخمور وغير ذلك من المواد الغذائية التي تجلب للاستهلاك الشخصي في فنادقهم بمصر والشام(٨٤). وفي معاهدة عام ١٢٥٤ م أعفى السلطان المملوكي المعز أبيك البنادقة من رسوم السمسرة والترجمة التي كانوا يدفعونها كما أعفاهم من ضريبة العرصة والقوف (٨٥) . ومن رسوم حراسة سفنهم دون غيرهم (٨٦) .

وحددت المعاهدات التجارية ، التي وقعت بين المدن الايطالية وسلاطين الايوبيين والمماليك ، أصول المعاملات التجارية ، التي كان يمارس على أساسها التجار الايطاليون نشاطهم في المدن والاسواق المصرية والشامية. فلقد سمح للتجار الايطاليين باستخدام قواربهم الخاصة في شحن سفنهم التجارية وتفريغها في الموانى المصرية والشامية (٨٧) . وخصصت السلطات المصرية للتجار الايطاليين مستودعات في الجمرك لتخزين سلعهم ومتاجرهم،

(82) Maslatrie, Traite., PP. 79 , 82 .

(83) Ibid., PP. 82 , 89 , 92 ; Prawer, op. cit., P. 403 .

(84) Maslatrie, Traite., P. 92 .

(٨٥) لقد فرضت السلطات المصرية ضرائب على البضائع المستوردة في الاسكندرية ، منها ضريبة القوف وضريبة العرصة ، ونسبتها تعادل تقريبا ١٩٪ من قيمة هذه البضائع مهما كانت طبيعتها . انظر مناقشة هذه المسألة في :
Rabie, op. cit., PP. 90 — 91 .

(86) Maslatrie, Traite, PP. 77 ff.

(87) Amari, op. cit., 1, P. 246 .

دون دفع رسوم عليها ، وظلت مفاتيح هذه المستودعات بأيدي التجار الايطاليين (٨٨) .

وكان يتولى موظفو الجمرك ، عند وصول السفن التجارية الايطالية الى الموانىء ، بيع السلع والمتاجر التي جلبتها ، وذلك عن طريق المزاد العلني الذي يقام لهذا الفرض (٨٩) وسمحت السلطات المصرية أن يكون لكل جالية تجارية ايطالية مشرف تجاري ليكون صلة الوصل بين رجال الجمرك وبين تجار جاليته ، وتنظيم الحسابات المالية والتجارية المتعلقة بذلك ، وأن يحتفظ بالسجلات المعنية بعمليات البيع والشراء التي يقوم بها هؤلاء التجار في الجمرك (٩٠) .

وذكرت المعاهدات التجارية أنه في حالة عجز أحد التجار الايطاليين عن أداء الرسوم والضرائب المفروضة على بضائعه ، فانه يجب على موظفي الجمرك أن يقبلوا كفالة المشرف التجاري الذي يتبع له هذا التاجر ، أو كفالة احد المواطنين المسلمين ، شريطة أن تتم هذه الكفالة بصورة نظامية أو أمام رجال الجمرك (٩١) .

ويجب أن تكون عمليات البيع والشراء موثقة بعقود تجارية مكتوبة، سواء تمت الصفقة داخل الجمرك أو خارجه ، ويجب أن يشهد على عقد البيع الكاتب والترجمان والشهود ، ولا يجوز فسخ هذا العقد الا بموافقة الطرفين أو في حالة اكتشاف المشتري أن البضاعة مغشوشة أو مخالفة للشروط المتفق عليها (٩٢) .

وأوضحت المعاهدات ، التي وقعتها المدن الايطالية مع مصر والشام ، انه لا يجوز ارغام التاجر الايطالي على بيع سلعه ومتاجره ، كما نه لايحق لاي موظف في السلطة المصرية ارغام التاجر على شراء سلعة معينة من مكان معين ، وانما يحق للتاجر نقل سلعه ومتاجره الى اي مكان يرغببه ، وله

(88) Maslatrie, Traite., PP. 75 , 78 , 80 , 82 ; Heyd, 1, P. 417 .

(89) Maslatrie, Traite., P. 85 .

(90) Ibid, PP. 75 , 84 , 91 ; Amari, op. cit., 1, P. 286 .

(91) Maslatrie, Traite., PP. 75 , 84 , 91 ; Amari, 1, P. 286 .

(92) Amari, op. cit., 1, P. 197 ; Maslatrie, Traite, PP. 73 — 74 ;
أيضا : صبره ، ص ١٣٩ .

حرية بيعها في فندق أبناء جلدته أو في الاسواق أو في الجمرك أو في أي مكان يشاء . بل لقد منحت المعاهدات التجار الايطاليين الحق في اعادة تصدير سلعهم ومتاجرهم التي كانوا قد جلبوها معهم اذا لم يتم بيعها أو لم يجدوا مخازن لها ، شريطة الا يكون ضمن هذه السلع والمتاجر الخشب والحديد والقار ، حيث كان لدى الجمارك المصرية تعليمات مستمرة في ضرورة شراء هذه المواد ومنع التجار الايطاليين من اعادة تصديرها (٩٣) .

واستخدام تجار المدن الايطالية في تجارتهم مع مصر والشام طريقة اخرى في التعامل التجاري ، وهي طريقة المقايضة التي انتشر التعامل بها منذ القرن الرابع عشر ، فالمعاهدة التي وقعتها مدينة بيزا مع مصر عام ١١٧٣ م اشارت الى حق التجار البيارنة في التعامل مع التجار المسلمين بطريقة المقايضة شريطة أن يكون ذلك برغبة الطرفين (٩٤) . كما استخدم البنادقة طريقة المقايضة في تعاملهم مع التجار المسلمين . وتدخلت السلطات المملوكية لحماية التجار البنادقة والتجار المسلمين فمنعت كل منهما من العدول عن صفقة المقايضة الى الشراء بالنقد حتى لايضار أحدهما .

واحتكر سلاطين الايوبيين والمماليك حق بيع بعض المنتجات المحلية الى التجار الايطاليين مثل الشب والنطرون ، ولم يكن بامكان هؤلاء التجار شراء هاتين المادتين الا عن طريق السلطة (٩٥) ، وفي الوقت ذاته احتكر المتجر السلطاني حق شراء بعض المواد والسلع من التجار الايطاليين مثل : الاخشاب والحديد والجلد ، وقد اشترى رجال المتجر السلطاني تلك المواد بأموال الخمس المفروضة على السلع التي جلبها التجار ، فما زاد على أموال الخمس دفعه رجال المتجر الى التجار الايطاليين من البضائع المحلية،

(93) Amari, 1, PP. 243 , 289 ; Maslatrie, PP. 75 , 90 .

انظر ايضا :

Heyd, op. cit., 1, P. 418

(94) Amari, op. cit., 1, P. 209 .

(٩٥) انظر : ابن مماتي : ص ٣٣٤ ، المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٠٨ ، ابن العمري : التعريف ، ص ١٧٥ ، القلشندي : ج ٣ ، ص ٤٥٩ – ٤٦١ ، ربيع : النظم المالية ، ٤٥ .

التي أهمها الشب ، بما يساوي ثلثي الثمن ومن الذهب بحق الثلث الباقي (٩٦) . وفي ظل السلطان الناصر محمد أصبح المتجر تابعا للسلطان (٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م) (٩٧) .

وكان للتجار الايطاليين في مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، معاملات تجارية ومالية مع تجار الكارم (٩٨) في مصر والشام — وعلى الرغم من أننا لا نستطيع ان نحدد بدقة طبيعة هذه المعاملات ، إلا أن ازدهار نشاط الكارم وتنظيماتهم في مصر وانتظام حركتهم مابين اليمن ومصر ، قد سهل وصول متاجر الشرق الاقصى للتجار الايطاليين المقيمين في مصر والشام أو المترددين عليهما . وقد جلب تجار الكارم الى مصر التوابل الهندية ليبيعوها ثانية ، في فنادقهم الى التجار الايطاليين (٩٩) .

وتم توقيع عقود تجارية بين تجار الكارم والتجار الايطاليين ، فهناك وثيقة تعود الى عام ١٤٠٠ م تتعلق باتفاقية بين تجار الكارم وقائد سفينة بندقية لنقل سلع ومتاجر الى مصر (١٠٠) . ويبدو أن التجار الايطاليين قد تبادلوا القروض التجارية مع تجار الكارم ، فالمقريزي يروي واقعة لها دلالتها وملخصها أن السلطان الناصر محمد اشترى عام ٧١١/هـ ١٣١١ م جواهر من تجار « الفرنج » بمبلغ ستة عشر ألف دينار ، وأحالهم بها على وكيل السلطان ، وقرر كريم الدين الاقتراض من تجار الكارم لدفع ثمن

(٩٦) انظر : ابن مماتى ، ص ٣٢٧ ، المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ١٠٨ . ربيع : النظم المالية ، ص ٥١ ، أيضا :

Rabie, op. cit., PP. 92 — 93 .

(97) Rabie, op. cit., P. 94

(٩٨) تجار الكارم هم مجموعة من التجار المسلمين الذين قاموا بنقل سلع ومتاجر الشرق الاقصى من اليمن الى مصر وبخاصة التوابل والفلفل ولهذا عرفوا « بتجار الفلفل والتوابل أو البهار » ، وقد استمر نشاط تجار الكارم ما بين القرن الثاني عشر وأواخر القرن الخامس عشر . انظر تفاصيل ذلك : ابن المجاور ص ١٤٧ ، عبد الباسط ، ج ١ ورقة ٨٨ ، ايضا :

Labib, Handelsyechichte, P. 6 ; Rabie, op. cit., P. 97 — 98 .
Fischel, ' The spice trade in Mamluk Egypt ' , PP. 157 , 161 ;

(99) Lapidus, Muslim cities, P. 125 , Fischel, op. cit., PP. 163 — 64 .

(100) Fischel , op. cit., P. 168 .

الجواهر ، ولكن سرعان ما تبين لكريم الدين أن أحد تجار الفرنج كان قد اقترض من أحد تجار الكارم مبلغ عشرين الف دينار . فأحال التاجر الفرنجي مبلغ ستة عشر الف دينار ليتسلمها التاجر الكارمي من كريم الدين، وهي حوالة السلطان بثمن الجواهر ، ثم دفع التاجر الفرنجي اربعة آلاف دينار الى الكارمي ، وهي تتمة القرض البالغ عشرين الف دينار . وتمت عملية التحويل بموافقة الطرفين أمام كريم الدين (١٠١) .

(١٠١) انظر المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

الفصل الثالث

الجاليات التجارية الايطالية في مصر والشام ونظمها

وعاش التجار الايطاليون ، في المدن المصرية والشامية ، على هيئة جاليات تجارية ، الا أنه لم يكن لهذه الجاليات أحياء أو مناطق خاصة بها داخل هذه المدن ، كما هو الحال بالنسبة الى الجاليات التجارية الايطالية في القسطنطينية والمدن الصليبية ، وانما عاش التجار الايطاليون داخل فنادق وضعتها السلطات المصرية تحت تصرفهم (١) . فقد كان للبنادقة – حتى مستهل القرن الثالث عشر فندق واحد في الاسكندرية ، ولكن السلطان الملك العادل منحهم – بموجب معاهدة عام ١٢٠٨ م – فندقا آخر في الاسكندرية ايضا (٢) أما في الشام فقد كان للبنادقة فندق في كل من دمشق وبيروت وطرابلس واللاذقية (٣) . وكان للبيازنة ايام الفاطميين كما بينت معاهدة ١١٥٤ م – فندقان ، أحدهما في الاسكندرية (٤) ، وثانيهما في القاهرة . أما بالنسبة الى الجنوية فقد كان لهم خلال القرنين الثالث عشر والرابع فندق واحد في الاسكندرية (٥) وفندقان في الشام احدهما في بيروت وثانيهما في دمشق (٦) .

وقد أشار بنيامين التطيلي ، الذي زار مصر في بداية عهد صلاح الدين ، الى الفنادق التي كان يأوى اليها التجار الايطاليون والتي يسكنون

(1) Heyd, op. cit., 11, P. 431 ; Labib ; ' Egyptian commercial ' P. 71 .

(2) Menahem, op. cit., P. 162 .

(3) Heyd, 1, P. 377 ; 11, PP. 462 — 63 .

(4) Menahem, P. 162 .

(5) Ibid., P. 162 .

(6) Heyd, 11, PP. 462 — 63 .

في « اعاليها ويعرضون بضائعهم في اسفلها » وأكد أن « لتجار كل أمـــة فندقهم الخاص بهم ، وهم في ضجة وجلبة يبيعون ويشترون » . ويلاحظ ان فنادق الايطاليين في مصر والشام ، كانت عبارة عن أبنية مربعة الشكل ومحاطة بسور متين ، وتتألف من عدة أدوار تشرف على ساحة داخليـــة تستخدم لتعبئة السلع والمتاجر وتفريغها . وكانت مستودعات التجـــار وحوانيتهم في الدور الارضي ، في حين استخدمت غرف الادوار العليا لسكن التجار واقامتهم فيها . واشتمل الفندق ايضا على حمامات وأفران خاصة بالتجار المقيمين في الفندق ، وكان يحيط بالفندق حدائق جميلة (٧) .

ويبدو أنه كان هناك بعض البيوت أعدت لسكن التجار الاوربيين في بعض المدن والموانىء مثل دمياط ، والدليل على ذلك ما أشار اليه الرحالة نيقولا ، الذي زار مصر في أواسط القرن الرابع عشر ، من أنه شاهد في دمياط عددا من التجار الايطاليين في المدينة وانه نزل ، أثناء وجوده بدمياط ، في بيت تاجر لا تيني يدعى داميان Damian . وعندما زار نيقـــولا الاسكندرية لاحظ أن عددا من التجار اللاتين ينزلون في بيوت لفتـــرة مؤقتة (٨) . ومن ناحية أخرى فقد اشار ابن صصري ، أثناء حديثـــه عن الحريق الذي اندلع في مدينة دمشق (٧٩٨ هـ /١٣٩٥ — ١٣٩٦ م) الى الخانات التي كان يسكنها « الفرنج . ويودعون فيها متاجرهم » فـــي مدينة دمشق ، مثل : خان الشقق وخان الحبالين وفي قيسارية ابن البابي بصفة خاصة ، وكذلك في قيسارية الصوف وقيسارية الاقباعيين (٩) .

وكان يقوم موظف بندقي بادارة كل فندق مـــن فنـــادق البنـــادقة في مصر والشام ، وآخر جنوي لادارة فنادق الجنوية ، وكـــذلك بيزاوي لادارة فنادق البيازنة ، وكان يطلق على هذا الموظف الاداري اسم الفندقي Fonticarium . وكان يتم اختياره من أحد ذوي الجاه والمنزلة ،وكانت مهمته الاشراف على شئون الفندق وادارة اعماله (١٠) .

---

(7) Lane, Amaritime, P. 287 ; Heyd, op. cit., 11, PP. 430—31

(8) Niccolo, op. cit., PP. 85 , 120 .

(٩) ابن صصري : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ١٧٣ .

(١٠) انظر عاشور : المجتمع المصري ص ٥٥ ، العصر المالكي ، ص ٢٨٩ ايضا :
Heyd, 1, P. 411 ; Atiya, crusade, Commerce, P. 181 .

وبعثت المدن الايطالية ، البندقية وجنوة وبيزا ، قناصل للاشراف على جالياتهم في مصر والشام ، وكانت تستبدلهم بعد سنة او سنتين او ريثما تبعث من يحل محلهم (١١) . وكان لكـــل من البندقية وجنوة وبيزا قنصل في الاسكندرية (١٢) . وكان لكل من البندقية وجنوه قنصل في كل من مدينتي الرملة وبيت المقدس ، كما كان لكل منهما قنصل في دمشـــق وبيروت (١٣) . ويرى هايد أنه كان للبنادقة قنصل في دمشق في حين كان في بيروت وحلب وطرابلس موظف آخر اتخذ لقب نائب قنصل (١٤) .

وكان القناصلة الايطاليون ، في مصر والشام ، ممثلين لدولهم وصلة الوصل بين أبناء جلدتهم والسلطات المحلية من جهة وحكومات المدن الايطالية من جهة أخرى ، وكان القنصل مسئولا عن ادارة شئون جالية بلاده ورعاية مصالحها ودفع الظلم عنها اذ كان يحق لكل قنصل مقابلة السلطان عشر مرات في السنة لعرض مشاكـــل جاليتـــه . وكان عليـــه مهمـــة الاشـــراف على وصول السفن التجارية التابعة لمدينته الى الموانىء المصرية والشاميـــة ومغادرتها (١٥) . كما كان القنصل مسئولا أمام السلطات المحلية عن كـــل ما يصدر عن رعاياه من مخالفات للقوانين والتقاليد الاسلامية (١٦) في مصـــر والشام ، ومن واجبات القنصل أيضا حماية ما يمكن انقاذه من السلـــع والمتاجر ، عند تحطم سفن بلاده أو غرقها في المياه المصرية والشامية ،وكذلك حماية ممتلكات الذين يموتون من أبناء جاليته وأموالهم وتسليمها الـــى ذويهم أو الى حكومة بلاده (١٧) .

وكان يساعد كل قنصل من قناصلة المدن الايطالية ، في الاسكندرية ودمشق ، مجلس يتألف من اثنى عشر تاجرا من التجار المقيمين في هاتـــين

---

(11) Heyd, op. cit., 11, P. 464.

(١٢) انظر عبد الباسط : نيل الامل في ذيـــل الدول ، ورقة ١٣٨ ب ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك : ص ٤١ .

(13) Beazley, op. cit., 111, P. 483 .

(14) Heyd, 11, PP. 464 — 465 .

(15) Lane, A Maritime, P. 287 .

(١٦) ابن شاهين : ص ٤١ .

(17) Mas La trie, Traité des paix et de Commerce, PP. 74,84,90 .

المدينتين . وكانت مهمة هذا المجلس ادارة شئون الجالية التجارية الايطالية . واختيار خلف للقنصل في حال انتهاء مدة خدمته ريثما يصل من يحل محله من المدينة الام . وكذلك كان من مهمة هذا المجلس اختيار تاجر ليمثلهم أمام السلطان عند الحاجة (١٨) .

ويلاحظ أن قناصلة المدن الايطالية في مصر والشام اتخذوا من فنادق جالياتهم مقرا لهم (١٩) . في حين كان لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية ـ كما بينا سابقا ـ مقر خاص بهم . وفي الوقت الذي كان فيه القناصلة في الدولة البيزنطية والمدن الصليبية يتمتعون بسلطات مطلقة من قبل حكوماتهم ويعقدون المعاهدات التجارية والسياسية مع الاباطرة وأمراء الصليبيين ، كان القناصلة في مصر والشام يفتقدون لمثل هذه السلطات ، فلا نسمع أن أحدا منهم قد وقع معاهدة مع السلطات المصرية . وفضلا على ذلك كله فقد كان القناصلة في مصر والشام يفتقدون للنفوذ السياسي ، في هذين البلدين ، الذي تحقق لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية وفي الوقت الذي نجد فيه القناصلة ـ في بيزنطة والامارات الصليبية ـ يتدخلون في الشئون المحلية ويمارسون تأثيرا واسعا على الشئون السياسية ويتآمرون للاطاحة بامبراطور او ملك ، فاننا لا نجد اي تأثير أو نفوذ لقناصلة مصر والشام على سياسة السلاطين أو الحكومات الاسلامية في مصر والشام .

وفي مصر والشام تمتعت الجاليات الايطالية بقسط وافر من الحرية والحماية داخل فنادقهم ، فمن ناحية سمح لهم باقتناء الخنازير وتربيتها في حدائق فنادقهم ، وباحضار الخمور في سفنهم وانزالها الى فنادقهم ، على الرغم من ان ذلك كان محرما في جميع المدن الاسلامية (٢٠) ، كما سمح سلاطين المماليك لسكان بيت لحم بصناعة الخمور في مدينتهم لضمان حاجة تجار الفرنجة وحجاجهم من هذه السلعة (٢١) .

---

(18) Heyd, 11, P. 464 .

(19) Menahem, op. cit., P. 162 .

(20) Maslatrie, Traité de paix et de commerce, P. 73 ; Heyd., 1, P. 411.

(21) Niccolo, op. cit., P. 51 .

ومن ناحية اخرى عمل السلاطين على حماية الجاليات الايطالية والسهر على سلامتهم (٢٢) . فعندما طلب البنادقة (١٢٥٤ م) رفع سوق السمك المجاور لاحد فنادقهم في الاسكندرية ، أمرت السلطات المصرية بنقله الى مكان آخر ، وعندما تلقت السلطنة المملوكية عام ١٣٦١ م شكاوى البنادقة في الاسكندرية عن كثرة الضوضاء والسكارى أمام فندقيهم في الاسكندرية ، أمرت والى الاسكندرية بنقل الحانات المجاورة لهذين الفندقين (٢٣) . وفضلا على ذلك كله فقد اشتملت المعاهدات التي وقعتها المدن الايطالية مع سلاطين الايوبيين والمماليك بعض التعليمات التي كان على أبناء الجاليات الايطالية الالتزام بها وذلك بغية حماية هؤلاء وأموالهم وفنادقهم ، فمن ذلك كان على الجاليات الايطالية اقفال فنادقها ليلا ، وذلك تحاشيا لاعمال السطو ، كما كان عليها اغلاق فنادقها خلال أوقات الصلاة في كل يوم جمعة ، وذلك تجنبا للاصطدامات مع المسلمين ، كما كان على القناصل اقفال فندقهم دون استشارة السلطات المحلية ، وذلك لمواجهة الظروف الطارئة التي تهدد حياة الجاليات واموالها (٢٤) .

ولقد تمتعت الجاليات التجارية الايطالية ، في مصر والشام بحريتها الدينية ، ومارست شعائرها وطقوسها الخاصة ، فكان لكل جالية طائفة من رجال الدين للاشراف على الشئون الروحية المتعلقة بالجالية . وسمحت المعاهدات التي وقعت بين المدن الايطالية ومصر والشام ، على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بأن تخصص لكل جالية في فندقها مكانا خاصا لممارسة الشعائر الدينية ، كما سمحت المعاهدات أن يمارس التجار الايطاليون طقوسهم وشعائرهم في كنائس معينة في المدينة التي يعيشون فيها ففي الاسكندرية اعتادت الجالية الجنوية تأدية الصلوات في كنيسة القديسة

---

(22) Maslatrie, Traité., P. 79 ; Heyd, 1, P. 431 .
أيضا : عفاف صبره : ص ٢١٣

(23) Maslatrie, Traité., PP. 80 , 93 ; Heyd, 1, P. 411 ; Labib, Handelsgeschichte., P. 751 .

(٢٤) انظر تفصيل ذلك : عاشور : المجتمع المصري ، ص ٥٦ .
ايضا : Lane, Amaritime, P. 287, Heyd, 1, P. 411 ; 11, P. 431
Atiya, crusade, commerce, P. 194 .

مريم والجاليات البيزاوية في كنيسة القديس نيقولا والجالية البندقية في كنيسة القديس ميخائيل (٢٥) . وعندما زار الرحالة لادولف الاسكندرية ، في أواخر أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون شاهد البنادقة يمارسون عباداتهم وطقوسهم الدينية في كنيسة القديس مرقص ، الموجودة في المدينة ويقوم بهذه الطقوس رجال الدين البنادقة (٢٦) .

كما حصلت الجاليات التجارية الايطالية ، في مصر والشام ، على استقلال قضائي محدود ،وهو يشبه ـ الى حد ما ـ ما حصلت عليه هذه الجاليات في الامارات الصليبية ، فاذا كان النزاع بين أبناء الجالية الايطالية، فان القضية تعرض امام مجلس هذه الجالية وبرئاسة قنصلها ، وتتم المحاكمة وفقا لقوانين هذه الجالية في بلادهم الام (٢٧) ، أما اذا كان النزاع بين أحد ابناء الجالية واحد المسلمين وكان المدعى عليه ايطاليا وصاحب الدعوى مسلما ، فانالقضية تعرض أمام قنصل الجالية التي ينتمي اليها المدعى عليه أما اذا كان المدعى عليه مسلما وصاحب الدعوى أحد ابناءالجالية فانه يتم الفصل في القضية امام القاضي المسلم وفق الشريعة الاسلامية (٢٨) . أما اذا لم يتمكن القاضي من الفصل في هذه القضية وانه أصدر أحكاماً فيها تعسف ، فانه يحق ـ والحالة هذه ـ التاجر الايطالي أن يعرض المسألة أمام أحد الامراء ، فيروي المقريزي والعيني ان رجلا « فرنجيا » خاصم شخصا «مسلما» على مال ادعى عليه بين يدي الامير بركة(عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م)(٢٩) .

وحرص السلاطين على تحقيق العدالة للتجار الايطاليين ودفع الظلم والاعتداء عنهم دون مسوغ ، فالكثير من نواب الثغور ، في مصر والشام ، كانوا يقفون الى جانب التجار الايطاليين وجالياتهم ضد محاولات الاهالي

(٢٥) انظر تفصيل ذلك في :
Maslatrie, Traité., P. 79 ; Amari, op. cit., 1, P. 281 Heyd ; op. cit., P. 417 .

(26) Ludolph, op. cit., P. 46 .

(27) Maslatrie, Traité., P. 91 .

عفاف صبره : ، ملحق رقم ٦ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٩ .

(28) Maslatrie, Traité., P. 79 .

(٢٩) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٣٧٩ ، العيني تاريخ البدر في أوصاف أهل الاصر ، مخطوط ، ورقة ١٠٨ أ .

للاعتداء عليهم . ويروى ابن بطوطة احداث الفتنة التي وقعت في الاسكندرية (عام ٧٢٧/١٣٢٦) ، بين التجار الفرنجة وبعض المسلمين ، ويقول أن متولي ثغر الاسكندرية آنذاك ، ركن الدين الكركي ، وقف يناصر التجار الفرنجة والقى القبض على عدد من التجار المسلمين بعد أن تبين له تحامل المسلمين على الفرنج (٣٠) . كما أن المقريزي يحدثنا عن تاجر فرنجي القى القبض عليه في طرابلس الشام عام (٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م) بتهمة القرصنة وبعثه نائب طرابلس الى القاهرة لعقابه « واكثر التاجر من التظلم » أمام السلطان الناصر محمد « وتبرأ من القرصنة » فصدق السلطان أقوال « الفرنجي » وكتب الى نائب طرابلس يأمره باعادة ممتلكات الفرنجي ومركبه وجميع ما أخذ منه ، ونفذت أوامر السلطان على الرغم من احتجاج نائب طرابلس (٣١) .

وهكذا فان النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في مصر والشام، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالاهمية الاقتصادية والتجارية لهذين البلدين ، وبالمصالح التجارية الكبرى للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتمكنت الجمهوريات الايطالية من اقامة علاقات تجارية نشطة مع سلاطين الايوبيين والمماليك في مصر والشام واستندت هذه العلاقات على معاهدات تجارية محددة . حاول الاطراف الالتزام بها حفاظا على المصالح التجارية المتبادلة بينهم . وافادت المدن الايطالية من هذه المعاهدات في الحصول على الامتيازات التجارية وتحقيق الحماية لتجارها وفنادقها ، والاستقرار لتجارتها ومعاملاتها المالية والتجارية في الموانىء والاسواق المصرية والشامية . يضاف الى ذلك أن الجمهوريات الايطالية تمسكت بمصالحها الاقتصادية والتجارية الكبرى في مصر والشام دون الاهتمام ـ معظم الاحيان ـ بالدعوات الصليبية والمواقف البابوية المعادية للمسلمين في مصر والشام .

★ ★ ★

(٣٠) ابن بطوطة ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٣١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

البابُ الخامِسُ

النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

يعتبر النشاط التجاري للمدن الايطالية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط جزءا لا يتجزأ من النشاط التجاري لهذه المدن في بيزنطة وفي مصر والشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . واهمية هذه الجزر بالنسبة الى المدن التجارية الايطالية لا تتوقف على ثروة هذه الجزر فحسب وانما على اهميتها كمحطات تجارية للاساطيل التجارية الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

الفصل الأول

النشاط التجاري للبندقية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط

يرتبط النشاط التجاري للمدن الايطالية في جزيرة قبرص بأهمية موقع هذه الجزيرة من جهة وبثرواتها من جهة أخرى ، فوقوع قبرص بين ثلاث قارات جعلها « قنطرة بين الشرق والغرب » ومحطة رئيسيةلاساطيل المدن الايطالية التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ومستودعا كبيرا لسلع ومتاجر الشرق الاقصى وعالم البحر المتوسط والغرب الاوربي ، ونقطة التقاء لكل الطرق التجارية القادمة من الغرب والشرق في البحر المتوسط[1] .

أما ثروات جزيرة قبرص ومنتجاتها ، التي كانت موضع اهتمام النشاط التجاري للمدن الايطالية ، فقد اشتملت بشكل رئيسي على اجود انواع الخمور نتيجة ثراء الجزيرة بالكروم[2] والسكر والملح والقطن والنحاس

---

(١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢ ، انظر ايضا :

Ludolph, P. 7, Anonymous ; PP. 14 — 15 .

(2) Ludolph, 44 ; Anonymous, P. 15 .

حيث قامت المدن الايطالية بنقل هذه السلع الى الغرب الاوربي[٣] ، كما اشتهرت قبرص بانتاج المنسوجات الصوفية الملونة والميعة واللاك ويبدو ان التجار الايطاليين قد نقلوا هذه المتاجر الى مصر والشام[٤] .

وكانت مدينة البندقية أول مدينة ايطالية تمتعت بامتيازات تجارية في جزيرة قبرص ، ففي عام ١١٤٨ م اصدر الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١١٤٨ – ١١٨٠ م) مرسوما منح بموجبه البنادقة حق المتاجرة في الجزيرة ، واعفاهم من الرسوم الجمركية في موانئها ، وذلك مقابل مساعدة البندقية لبيزنطة ضد الملك النورماني روجر الثاني (١١٣٠ – ١١٥٤)[٥] . ومنذ ذلك الوقت أخذ البنادقة يتدفقون على جزيرة قبرص ، وتشكلت لهم جاليات تجارية صغيرة في كل من ليماسول ونيقوسيا[٦] .

وعندما استولى آل لوزيجنان على قبرص ، في ختام القرن الثاني عشر [٧] ، لم يعترفوا بالامتيازات التجارية التي كان مانويل كومنين قد منحها للبنادقة ، واعتبروها امتيازات غير شرعية[٨] ، الا أن حاجة آل لوزيجنان الى القوة البحرية للبنادقة ، للحفاظ على قبرص وتثبيت سلطتهم فيها ، اضطرتهم للتودد الى البنادقة وتشجيعهم على المتاجرة في الجزيرة ، فقد جدد الملك القبرصي هنري الاول (١٢١٨ – ١٢٣٣ م) ، والملكة

---

(3) Mandevill, P. 20 ; Hill, 11, P. 197 ; Lane A maritime, P. 145

(٤) الاصطخري : مسالك الممالك : ص ٧٠ – ٧١ ، ابن سعيد : ص ١٧٠ ، ابن اياس ، نشق الازهار ، ورقة ١٦٨ ب .

(5) Heyd, 1, P. 200 ; Brown, ' The Venetian ' , P. 74 ; Beazley, 411 — 12 .

(6) Hill, Hist. of cyprus, P. 224 .

(٧) انتزع ريتشارد قلب الاسد جزيرة قبرص من البيزنطيين (عام ١١٩١) وهو في طريقه الى عكا في الحملة الصليبية الثالثة ، وباع ريتشارد الجزيرة الى الداوية ، الا انهم ادركوا صعوبة حكمها ومواجهة ثورات سكانها ، فحلوا الصفقة مع ريتشارد الذي باعها عام ١١٩٢ الى جاي لوزيجنان مقابل تخلي الاخير عن حقه في مملكة بيت المقدس ، انظر :
عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٦ – ٢٨ ، ٣١ – ٣٢ .

(8) Hill, op. cit., 11, P. 225 .

الوصية بلايسنس Plaisance (١٢٥٣ – ١٢٦١ م) [٩] امتيازات البنادقة في قبرص .

وبالرغم من تجديد آل لوزيجنان لامتيازات البنادقة في الجزيرة ، فان النشاط التجاري للبندقية في قبرص ، خلال القرن الثالث عشر ، كان مقتصرا على تصدير السكر والملح والقطن من الجزيرة ونقل الخيول من اسبانيا والبندقية الى ملوك قبرص ، اضافة الى استخدام الاساطيل التجارية التابعة للبندقية الموانىء القبرصية محطة لها في رحلاتها الى الشام وارمينية والقسطنطينية[١٠] .

وارتبط نشاط البندقية التجاري في جزيرة قبرص بسقوط مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١٢٩١ م ، وذلك ان طرد الصليبيين من الشام جعل جزيرة قبرص الحد الشرقي للعالم اللاتيني[١١] . وانتقلت الجاليات التجارية التابعة للبندقية ، وغيرها من المدن الايطالية ، من الساحل الشامي الى قبرص ، وتأسست بها المؤسسات التجارية لتكون على اتصال دائم بفنادقها في مصر وآسيا الصغرى[١٢] يضاف الى ذلك أن ملوك قبرص دابوا ، بعد سقوط عكا ، على تشجيع التجارة بين جزيرتهم وموانىء آسيا الصغرى ، وذلك بغية تحويل انظار التجار الاوربين عامة عن موانىء مصر والشام واجتذابهم الى الموانىء القبرصية للحصول على ما يريدونه من توابل وحاصلات آسيوية[١٣] .

ورغبت البندقية في توسيع نشاطها التجاري في جزيرة قبرص ، وذلك بغية التعويض عما لحق بها من خسائر بسقوط المملكة الصليبية في الشام ، وعن الضعف الذي أصاب تجارتها مع مصر ، نتيجة موقف البابوية من مسألة المتاجرة مع المسلمين ، بعد سقوط عكا ، ولهذا كله بعثت البندقية عام ١٣٠٦ م ، سفارة الى قبرص برئاسة فيتال ميخائيل Vital Michiel

---

(9) Ibid. , 11, P. 225 .

(10) Lane, A maritime., PP. 130 , 145 .

(11) Ludolph , op. cit., PP. 43 — 44 .

(١٢) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٣ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

لتوقيع معاهدة تجارية مع حاكم قبرص وقتذاك عموري(١٤) . ونجح فيتال في مهمته ، حيث تم توقيع معاهدة تجارية بين الطرفين في مدينة نيقوسيا في ٣ يونيو عام ١٣٠٦ م . ولعل أهم البنود التي تعنينا في هذه المعاهدة هي : منح البنادقة كنيسة ومقرا للممثل البندقي والموظفين البنادقة المساعدين له في كل من فماجوستا ونيقوسيا وليماسول ، ومنح البنادقة الحق في شراء بيوت سكنية في المدن الآنفة الذكر ، واعفاء التجار البنادقة من الرسوم الجمركية في موانىء الجزيرة(١٥) .

كما نصت المعاهدة على منح البنادقة الاستقلال القضائي ، بحيث تتولى محكمة بندقية خاصة معالجة القضايا المتعلقة بالبنادقة أنفسهم ووفق قوانينهم ، ويحق لهذه المحكمة أيضا معالجة القضايا التي يكون فيها أحد البنادقة مدعيا ، أما في حالات القتل والاغتصاب والخيانة والقضايا التي يكون فيها أحد البنادقة مدعى عليه فيجب أن يتم النظر فيها جميعا أمام المحكمة الملكية القبرصية(١٦) . كما انطوت المعاهدة على تعهد الحكومة القبرصية بحماية البنادقة وممتلكاتهم في حال تحطم سفنهم أو غرقها في المياه القبرصية ، ويجب على الحكومة القبرصية ، في هذه الحالة ، أن تسلم ممتلكات البنادقة وما تم انقاذه من متاجرهم الى ورثتهم أو الى الحكومة البندقية(١٧) .

وتعتبر هذه المعاهدة أساسا لكل المعاهدات التي وقعتها البندقية مع قبرص حتى نهاية القرن الرابع عشر ، ونستطيع القول أن الامتيازات التي انطوت عليها هذه المعاهدة قد مكنت البنادقة من وضع اسس متينة لنشاطاتهم التجارية في الجزيرة ، فعلى اثر هذه المعاهدة اتخذ القنصل البندقي مكانه في الجزيرة ، وشغلت الجالية البندقية الاماكن التي خصصت لها في المعاهدة ، وازدادت حركة أساطيل البندقية في الموانىء القبرصية . ومما ساعد البنادقة على ذلك كله هو أنهم كانوا يتمتعون وقتذاك بسمعة

(14) Maslatrie, Hist. de chypre, 11, P. 102 .
(15) Ibid., PP. 103 — 105 .
(16) Ibid., 11, PP. 103 — 105 .
(17) Ibid, 11, PP. 104 P. 106 .

طيبة ، في قبرص ، لان نشاطهم في القرصنة أقل مما كان عليه نشاط الجنوية (١٨) .

وفي ٦ سبتمبر ١٣٢٨ م ، وقع دوج البندقية ، حنا سورانزو : John Soranzo ، معاهدة تجارية مع ملك قبرص هيو الرابع ، ويلاحظ أن بنود هذه المعاهدات هي تجديد كامل لكل البنود التي اشتملت عليها معاهدة عام ١٣٠٦ م اضافة الى بند جديد يحق بموجبه الحكومة القبرصية استيراد الخيول والاسلحة البندقية لسد حاجات الجزيرة(١٩) .

وقبل أن ينقضي ربع قرن على المعاهدة الاخيرة تعرض البنادقة في مدينة فماجوستا الى خسائر فادحة عام ١٣٥٠ م ، نتيجة المنازعات التي نشبت فيها بين الجاليتين البندقية والجنوية . وكان سبب ذلك أن غوغاء المدينة وجماعات من الجنوية استغلوا الفوضى التي دبت في المدينة أثناء النزاع بين الجاليتين ، وهاجموا الحي البندقي فيها ، حيث نهبت بيوت البنادقة وحوانيتهم ومستودعاتهم ودمرت ، وجرحت أعداد كبيرة من الجالية البندقية بما فيهم القنصل البندقي(٢٠) وبعثت جمهورية البندقية مندوبا الى قبرص للمطالبة بمعاقبة المسؤولين عن النزاع وبالتعويضات عن الخسائر التي لحقت بالبنادقة من جراء حوادث الشغب . وبالرغم من أننا لا ندري فيما اذا تسلمت البندقية التعويضات الا انه من المؤكد ان الملك القبرصي قد عاقب المسؤولين عن الحوادث(٢١) . ويبدو أن الاجراءات الصارمة التي اتخذتها الحكومة القبرصية لاعادة النظام والامن في المدينة ولحماية المستوطنين جعلت السناتو البندقي يتوقف عن المطالبة بالتعويضات(٢٢) .

وبعثت جمهورية البندقية سفارة الى قبرص سنة ١٣٥٩ م لتهنئة الملك بطرس الاول باعتلائه العرش ، ولتجديد الامتيازات التجارية التي يتمتع بها البنادقة في موانىء الجزيرة ومدنها(٢٣) . ونجحت سفارة البندقية

(18) Hill, op. cit., 11, P. 286 .
(19) Mas Latrie, Hist. de chypre, 11, PP. 142 — 144 .
(20) Alastos, Cyprus in history , P. 188 .
(21) Hill, op. cit. , 11, P. 290 .
(22) Alastos, op. cit., P. 188 .
(23) Maslatrie, Hist. de chypre, 11, P. 228 .

في توقيع معاهدة مع الملك الجديد في ١٦ أغسطس عام ١٣٦٠ م . وبالرغم من ان هذه المعاهدة قد اشتملت على جميع البنود التي وردت في معاهدة عام ١٣٠٦ م الا انها انطوت على امتيازات جديدة ذات أهمية بالغة بالنسبة الى النشاط التجاري للبنادقة في الجزيرة . وذلك أن المندوب البندقي تعهد بألا ينقل البنادقة في سفنهم سلعا أو متاجر مهربة ، ويحق لمندوب الملك القبرصي تفتيش حمولة سفن البندقية للتأكد من هذه المسألة . كما تعهد المندوب البندقي بألا ينقل البنادقة الا أبناء مدينتهم أو من يحمل تصريحا خاصا بالسفر من الحكومة القبرصية . ومن ناحية أخرى فقد تعهد الملك بأن يدفع كافة التعويضات عن الاضرار أو الخسائر التي يلحقها رعاياه بالجالية البندقية في الجزيرة(٢٤) .

الا أن العلاقات بين البندقية وقبرص قد ساءت الى حد بعيد في أعقاب فشل حملة الملك القبرصي بطرس ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . فلقد الحقت هذه الحملة – كما بينا في الباب السابق – أضرارا فادحة بالنسبة للتجار البنادقة ، في مصر والشام ، وأضعفت العلاقات التجارية بين البندقية وسلاطين المماليك . ويبدو أن اخفاق البندقية – في أعقاب الحملة – في اقناع الملك بطرس بضرورة رأب الصدع مع مصر وتوقيع معاهدة سلام معها ، جعل البندقية تتخذ موقفا متشددا في علاقاتها مع الحكومة القبرصية ، فالمؤرخ ماس لاترى ينشر مرسوما كان قد أصدره السناتو البندقي ، بتاريخ ٢٢ أغسطس عام ١٣٦٦ ، يمنع فيه رعاياه من التجار والبنادقة من تصدير الاسلحة والخيول الى قبرص(٢٥) . ولكن العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص قد عادت الى حالتها العادية بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وقبرص عام ١٣٧٠ م .

وفي عام ١٣٧٣ م واجهت تجارة البندقية في جزيرة قبرص أخطر مرحلة من مراحلها ، وذلك نتيجة النزاع الذي حدث بين البنادقة والجنوية في فماجوستا ، أثناء حفلة تتويج الملك بطرس الثاني (١٣٧٣ م) ، وما تبع ذلك من احتلال الجنوية لمدينة فماجوستا وأصدر السناتو البندقي

(24) Ibid., 11, PP. 230 — 32 .

(25) Ibid., 11, P. 285 .

تعليمات ، عام ١٣٧٤ ، الى الممثل البندقي في فماجوستا يطلب منه أن يغادر جميع التجار البنادقة جزيرة قبرص وان يظل الممثل في مكانه انتظارا لتعليمات أخرى ، وفي العام التالي (١٣٧٥) صدرت تعليمات الحكومة البندقية الى ممثلها في قبرص بأن يغادر الجزيرة في الحال(٢٦) .

وعلى الرغم من أننا لا ندري فيما اذا انسحب كافة التجار البنادقة من الجزيرة ، الا أننا نستطيع القول أن انقطاعا قد حدث في العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص ، فطالما أن قرار المقاطعة قد صدر من حكومة البندقية ، فان الاخيرة لن تسمح للاساطيل التجارية بمغادرة البندقية الى قبرص ، غير أن السناتو البندقي سحب قراراته عام ١٣٧٨ م . وعاد القنصل البندقي الى مقر عمله في قبرص ، واستأنف التجار البنادقة نشاطهم في الجزيرة ، وأخذت الاساطيل التجارية للبندقية بالرسو في الموانىء القبرصية(٢٧) . ولقد أثار سحب السناتو لقراراته جدلا بين بعض المؤرخين المحدثين ، فماس لاترى يرى أن السبب الذي دفع السناتو البندقي الى سحب قرارات قطع العلاقات التجارية مع قبرص أن الحكومة الجنوية قد قررت عام ١٣٧٦ اعطاء تعويض للبنادقة عن البيوت التي دمرت لهم في فماجوستا أثناء الفتنة بين الجنوية والقبارصة فيها(٢٨) ، في حين يرى آلاستوس Alastos أن السبب في سحب السناتو لقراراته هو سقوط دولة أرمينية الصغرى عام ١٣٧٥ ، وبالتالي أصبحت قبرص الدولة المسيحية الوحيدة في شرق البحر المتوسط ، ولا بد من وجود علاقات ودية بينها وبين البندقية(٢٩) .

ويتساءل الباحث : ما علاقة سقوط دولة أرمينية الصغرى بعودة العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص . ويبدو أن تفسير ذلك في انه كان للبندقية مصالح تجارية كبرى في أرمينية الصغرى ، فقد كانت أرمينية منفذا تجاريا بالغ الاهمية بالنسبة لتجارة الشرق الاقصى ، كما كان للبنادقة جالية تجارية كبيرة في عاصمة أرمينية الصغرى (اياس) . وعلى

(26) Ibid., 11, P. 363 .

(27) Maslatrie, Hist. de chypre, 11, PP. 363 — 64 .

(28) Ibid., 11, P. 365 .

(29) Alastos, op. cit., P. 202 .

الرغم من أنه لم يكن لقبرص ــ بالنسبة للتجارة البندقية ــ الاهمية التجارية نفسها التي كانت تتمتع بها أرمينية الصغرى ، الا أن عودة العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص كانت نوعا من التعويض لما لحق بالبنادقة وتجارتهم من خسائر فادحة نتيجة سقوط أرمينية الصغرى بيد المماليك .

وهكذا فان النشاط التجاري للبنادقة في قبرص خلال القرن الثالث عشر ، كان نشاطا ضعيفا بالنسبة الى ما كان عليه في الامارات الصليبية وبيزنطة قبل استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١ م . الا أن العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص قد انتظمت خلال القرن الرابع عشر . وترسخت أقدام الجاليات التجارية البندقية في مدن الجزيرة ، وبالتالي كانت مرحلة ازدهار واضحة للنشاط التجاري البندقي في قبرص ، وربما السبب في ذلك هو اقتناع البندقية بأن احلامها ، في استعادة مكانتها التجارية ، في بيزنطة والشام ، قد تجاوزها الزمن ، وادراكها أن تثبيت أقدامها في قبرص ، باعتبارها آخر موقع للغرب اللاتيني في شرق البحر المتوسط ، أمر لا مفر منه بالنسبة الى مصالحها التجارية في مصر والشام بصفة خاصة والحوض الشرقي للبحر المتوسط بصفة عامة .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري للبندقية في جزيرة كريت فمن المعروف أن البندقية كانت قد حصلت على امتيازات تجارية لها في جزيرة كريت عام ١١٤٨ م ، حيث منحها الامبراطور مانويل كومنين حق المتاجرة في الجزيرة واعفاها من الرسوم والضرائب(٣٠) . وبعد احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤ م كانت جزيرة كريت من نصيب المركيز بونيفاس مونتفرت ، وذلك بموجب معاهدة تقسيم الامبراطورية البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة عام ١٢٠٤ م ، الا أن بونيفاس سرعان ما باع الجزيرة الى جمهورية البندقية في ١٢ أغسطس عام ١٢٠٤ م(٣١) .

ولم تتمكن البندقية من امتلاك جزيرة كريت فعلا الا منذ عام ١٢١٢ م،

(30) Heyd, 1, P. 200 .

(٣١) انظر نص عقد شراء البندقية للجزيرة من بونيفاس في :
Tafel and Thomas, 1, PP. 512 — 16 .
Miller , The Latins in the Levant, P. 2

وذلك لانه كان عليها ــ خلال ذلك ــ أن تخوض حربا ضد كونت مالطة ، الذي كان قد احتل كريت ــ قبيل شراء البندقية لها ــ بدعم من الجنوية ومساندتهم(٣٢) .

وقسمت حكومة البندقية (١٢١٢ م) جزيرة كريت الى اقطاعات ، ووزعتها بين عدد من الفرسان البنادقة ، شريطة أن يقوم هؤلاء بمهمة الدفاع عن الجزيرة وتوطيد الحكم البندقي فيها وحماية المصالح التجارية العليا للقومون البندقي في الجزيرة(٣٣) . وبهذا فقد بدأ البنادقة عملية استيطان منظمة في كريت ، وكان المستوطنون البنادقة فئتين الاولى فئة الفرسان المحاربين ، الذين امتلكوا اقطاعات موزعة في كل انحاء الجزيرة ، والفئة الثانية التجار ، الذين استقروا في المدن الرئيسية للجزيرة ، وبصفة خاصة في العاصمة كانديا Candia (٣٤) .

ولقد عينّت حكومة البندقية ممثلا لها في جزيرة كريت ، وأعطته لقب « دوق كريت » ، واتخذ من كانديا مقرا له(٣٥) . وكانت سلطته تمتد على البنادقة جميعا ، الفرسان منهم والتجار(٣٦) ، وكان يساعده اثنان من القناصلة البنادقة في ادارة الجزيرة ، بصفة مستشارين ، اضافة الى موظف بندقي آخر يدعى بالرئيس أو النقيب Captain . وكان يتم تعيين هؤلاء الموظفين من حكومةالبندقية لمدةمحددة ، ومن ثم يتم استبدالهم بآخرين من البنادقة أيضا(٣٧) . وكان يساعد الدوق أيضا في مهمته مجلس مؤلف من عدد من البنادقة المقيمين في كريت(٣٨) . وبذلك استوطن البنادقة جزيرة كريت ، وقامت فيها حكومة بندقية ، وكانت خطة البنادقة جعل كريت بندقية ثانية(٣٩) .

(32) Miller, The latins, PP. 47 — 48 .
(33) Tafel and Thomas, 11, PP. 129 — 36 .
(34) Lane, A maritime., P. 43 .
(35) Tafur op. cit., PP. 50 — 51 ; Miller, The Latins., P: 48 :
(36) Hodgson, op. cit, P. 48 .
(37) Chambers, op. cit., P. 53
(38) Hodgson , op. cit., P. 48 .
(39) Bury. ' The lombards ' , 1, P. 329 .

وتعود أهمية جزيرة كريت ، بالنسبة الى النشاط التجاري للبندقية ومستقبله في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، في موقع الجزيرة من جهة وفي ثرواتها ومنتجاتها من جهة أخرى ، وذلك أن كريت كانت جسرا أو محطة بالغة الاهمية للقوافل التجارية التابعة البندقية والمتجهة الى مصر والشام(٤٠) ، اكثر من كونها محطة لسفن البنادقة التجارية المتجهة الى القسطنطينية(٤١) . أما منتجات الجزيرة فقد اشتملت بشكل رئيسي على أجود أنواع الخمور(٤٢) ، والتي كانت كانديا سوقا رئيسيا للمتاجر بها (٤٣). وقام التجار البنادقة بنقل خمور كريت الى أوربا الغربية بصفة عامة ومنطقة الفلاندرز بصفة خاصة ، والى مدينة البندقية ذاتها من أجل الاستهلاك المحلي ، والى أقاليم البحر الاسود(٤٤) ، وكذلك الى مصر(٤٥) . كما اشتهرت جزيرة كريت بانتاج الجبن والعسل ، ونقل التجار البنادقة هاتين المادتين الى بلدان شرق البحر المتوسط ، وبصفة خاصة الى مصر(٤٦) . كما جلب البنادقة من كريت الحبوب والزيوت والسكر(٤٧) ، فضلا عن « الذهب والحديد والقصدير وغير ذلك من المعادن »(٤٨) .

وتعرض النشاط التجاري للبندقية ، في جزيرة كريت ، الى أخطار بالغة ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد أدرك سكان كريت من الوطنيين أن ثروات بلادهم تذهب الى جيوب الفرسان البنادقة ومستودعات

(40) Ibid., P. 312

(41) Lane, A maritime, P. 70 .

(42) Canon, op. cit., P. 203.

(43) Ibid., P. 203 — 204 .

(44) Mcneill, op. cit., P. 66.

(٤٥) قال ابن اياس « يجلب من جزيرة اقريطش الخمر الاقريطشي وغير ذلك من الاصناف والبضائع وأشياء لا توجد الا بها » انظر : ابن اياس : نشق الازهار ، ورقة ١٦٨ ب .

(٤٦) قال ابن سعيد أن البندقية صدرت الجبن والعسل من كريت الى الاسكندرية ، وقال ابو الفدا : أيضا : « ويجلب من اقريطش الى الاسكندرية الجبن والعسل». انظر : ابن سعيد ص ١٧٠ ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١٩٥ .

(47) Lane, A maritime ; P. 70 .

(٤٨) ابن اياس ، نشق الازهار ، ورقة ١٩٢ أ .

مدينة البندقية وأسواقها ولهذا ثار السكان ضد الحكم البندقي (١٢١٧ — ١٢١٩) . ولعب الجنوية دورا كبيرا في تحريضهم ومساندتهم ضد البنادقة . ولم تتمكن البندقية من القضاء على الثورة الا بشراء السلام من الثائرين ، حيث وزعت اقطاعات في الجزيرة على أعداد كبيرة من السكان اليونانيين فيها (٤٩) .

ولم تمض بضع سنوات حتى ثار اليونانيون في الجزيرة ثانية ، ضد البنادقة ، وطلبوا مساعدة امبراطور نيقية حنا الثالث . ورغم الانتصار الذي حققته القوات التي بعثها الامبراطور الى كريت ، الا أن الثورة اخفقت ، واضطرت القوات البيزنطية الى الانسحاب من الجزيرة عام ١٢٣٦ واستعاد البنادقة مركزهم فيها (٥٠) .

وتمكنت البندقية فيما بعد من الحصول علىاعتراف بملكيتها لجزيرة كريت من الدولة البيزنطية وذلك في المعاهدة التي وقعتها مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن عام ١٢٦٨ م (٥١) ، ومن خلال المعاهدة التي وقعتها مع الامبراطور أندرنيق الثاني عام ١٢٨٥ م (٥٢) وبذلك فقد اتخذ الوجود البندقي للجزيرة صفته الشرعية ، وأخذ البنادقة يمارسون نشاطاتهم التجارية وغيرها فيها دون خوف منالاباطرة البيزنطيين .

وفي عام ١٣٦٣ م تعرض النشاط التجاري للبنادقة في جزيرة كريت الى خطر كاد يقضي على الحكم البندقي ومستقبل تجارة البندقية في الجزيرة ، وذلك أن سكان الجزيرة ، البنادقة منهم واليونانيين قد ثاروا ضد الادارة البندقية في كريت ، نتيجة استيائهم من الضرائب الباهظة التي كانت حكومة البندقية تفرضها عليهم . وعلى الرغم منأن القومون البندقي قد تمكن من القضاء على الثورة في الجزيرة في العام التالي (١٣٦٤ م) الا أن شللا حقيقيا ألم بتجارة البندقية في الجزيرة خلال ذلك العام ، وخلال الاعوام القليلة التالية لاخفاقها وذلك نتيجة أعمال العنف والدمار الذي

(49) Tafel and thomas , 11, PP. 210 — 13 .

(50) Angold, A Byzantine Government., P. 197 .

(51) Tafel and Thomas, 111, PP. 133 FF.

(52) Ibid., 111, PP. 322 FF.

الم بثروات الجزيرة والمستوطنات التجارية البندقية فيها (٥٣) .

وبالرغم من كل الاضطرابات التي حدثت في جزيرة كريت على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد شكل النشاط التجاري للبنادقة فيها فصلا هاما في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . واعتبرت مستوطناتهم فيها من أهم المستوطنات التجارية البندقية في شرق البحر المتوسط واكثرها فعالية ، بل « ان السيادة اللاتينية في الشرق استندت على جزيرة كريت » كما قال الدوج البندقي جينو Geno في رسالته الى البابا أوربان الرابع في ٨ سبتمبر عام ١٢٦٤م (٥٤) .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري للبندقية في جزيرة نيقروبونت Negroponte (٥٥) فمن المعروف أن هذه الجزيرة كانت من نصيب البندقية بموجب معاهدة تقسيم الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ م (٥٦) الا أن جمهورية البندقية لم تتخذ أية اجراءات لاحتلال الجزيرة ، وذلك لانها لم تكن بقادرة على احتواء كل الجزر والمدن التي خصصت لها بمعاهدة التقسيم (٥٧) . ولهذا قام بونيفاس مونتفرات ــ حاكم سالونيكا (١٢٠٤ ــ ١٢٠٧) ــ بتقسيم جزيرة نيقروبونت بين ثلاثة من البارونات اللمبارديين، متجاهلا بذلك حقوق البندقية في الجزيرة الا أنه بعد وفاة بونيفاس وضع البارونات جزيرة نيقروبونت تحت حماية البندقية ، وذلك تجنبا لوضعها تحت سيادة الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (٥٨) .

وقد نشر تافيل وتوماس ، في مجموعتهما ، نص الامتياز الذي بعثه

(53) Mas latrie, Hist· de chypre, 111, PP· 743 — 45 .

(54) Tafel and Thomas, 111, PP. 56 — 59 .

(٥٥) تقع جزيرة نيقروبونت في بحر ايجه ، وقال ابن سعيد : « وهي من اكبر الجزائر الرومانية وهي مشهورة بخروج السفن والقطائع منها » ، وقال القلقشندي : « ومن أعمال البندقية » جزائر النقربنت » انظر : ابن سعيد ، ص ١٨٣ ــ ١٨٤، القلقشندي ج ٥ ، ص ٤٠٥ .

(56) Robert clari, PP. 125 — 26 ; Bury, ' The lombards ' , 1, P. 311 .

(57 Miller , The Latins, P. 77 .

(58) Hodgson, op. cit., P. 39 .

البارونات اللمبارديون ، أسياد جزيرة نيقروبونت ، الى حكومة البندقية، وهو مؤرخ في مارس عام ١٢٠٩ م ، وينطوي على وعد بأن يكونوا أتباعا مخلصين لدوج البندقية وأن يبعثوا سنويا الى جمهورية القديس مرقص / ٢١٠٠ / هيبربيرون من الذهب وثوبا مطرزا الى الدوج وآخر الى مذبح القديس مرقص . واشتمل الامتياز أيضا على أن يكون للبنادقة الحق في المتاجرة بالجزيرة وامتلاك مستودعات وكنائس في كل مدنها وفضلا على ذلك كله فقد تضمن الامتياز على وعد باعفاء البنادقة من كافة الرسوم والضرائب في كل أرجاء الجزيرة (٥٩) .

ورحبت البندقية بعروض البارونات ، وأعلنت حمايتها على الجزيرة عام ١٢١٢ م (٦٠) وعينت من قبلها حاكما عليها وأعطته لقب البايلو ، واتخذ مقره في مدينة نيقروبونت (٦١) . وكانت مهمة البايلو هذا أن يكون حاكما على الجزيرة ، وممثلا لحكومة البندقية فيها ، وفي الوقت ذاته أن يكون رئيسا لجالياتها التجارية في مدن الجزيرة . ونظرا لصعوبة هذه المهمة اضطرت حكومة البندقية لتعيين اثنين من القناصلة لمساعدة البايلو في ادارة مصالح البندقية في الجزيرة (٦٢) .

ومنذ استرداد البيزنطيين للقسطنطينية ، عام ١٢٦١ م أصبحت نيقروبونت ذات أهمية كبرى بالنسبة الى تجارة البندقية ، فزادت من رواتب البايلو البندقي فيها ، وأنفقت الاموال بسخاء لحمايتها ، وقامت ببناء سور حول الحي البندقي في العاصمة نيقروبونت . ويرى بيوري أن هذا الحي أصبح يشبه في مميزاته وأهميته الحي البندقي في القسطنطينية (٦٣) . وفي الوقت ذاته ازدادت أهمية البايلو البندقي وسلطاته في الجزيرة ، بحيث أصبح من الناحية العملية الحاكم الاول فيها فقد كان مفوضا بالختم والتوقيع عن دوج البندقية في كل ما يتعلق بشؤون الجزيرة والجالية البندقية فيها (٦٤) . وكان يقوم بتقليد البارونات اللاتين في

(59) Tafel and Thomas, 11, PP. 89 — 96 .

(60) Bury, ' The lombards ' , 1, P. 317 .

(61) Ibid., P. 317 ; Miller, The latins., P. 77 .

(62) Miller, The latins., P. 210 .

(63) Bury, op. cit., 1, P. 320 ; 11, PP. 194 — 95 .

(64) Ibid., 1, P. 319 ; Miller, The Latins., PP. 77 — 78 .

مناصبهم ويتلقى منهم يمين الولاء والطاعة باعتباره ممثلا للدوج (٦٥) . وبذلك فان البايلو البندقي في نيقروبونت كان أكثر أهمية من دوقات البنادقة في كريت فيما يتعلق بتأثيره على السياسة العامة للبندقية في شرق البحر المتوسط (٦٦) .

وتمثلت المصالح التجارية الكبرى للبندقية في نيقروبونت في موقع الجزيرة من جهة وفي ثرواتها من جهة أخرى ، فطالما أن الهدف الاول للبندقية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كان تحقيق السيادة التجارية والبحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فان امتلاك جزيرة نيقروبونت كان خطوة بالغة الاهمية لتحقيق هذا الهدف فموقعها في بحر ايجه مكّن البنادقة من أن يجعلوها قاعدتهم او محطتهم الرئيسية في نشاطهم التجاري وحركة اساطيلهم التجارية بين كريت والقسطنطينية (٦٧) ، وما بين البندقية والغرب الاوربي من ناحية ، والقسطنطينية والبحر الاسود من ناحية أخرى . يضاف الى ذلك ، أن السفن التجارية البندقية التي كانت تنقل المتاجر والسلع من الغرب الاوربي ، الى اليونان وجزر بحر ايجه كانت ترسو عند جزيرة نيقروبونت لكي تنضم في طريق عودتها الى البندقية ، الى سفن البندقية القادمة من القسطنطينية والبحر الاسود (٦٨) . وفضلا على ذلك فقد أفاد البنادقة من ثروات جزيرة نيقروبونت في نشاطهم التجاري، وبصفة خاصة ما اشتهرت به الجزيرة من الحرير الخام والحرير المصنع ، اضافة الى الزيوت والخمور والحبوب والشمع والعسل (٦٩) .

وقد واجه النشاط التجاري للبنادقة في نيقروبونت بعض الصعوبات خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فادعاءات الامراء اللاتين في المورة Morea في أحقيتهم بحكم الجزيرة ومحاولاتهم انتزاعها ، هدد الاحياء التجارية للبندقية في الجزيرة ، الا أن البندقية تمكنت من دفع هذا الخطر عنها بمعاهدات السلام التي وقعتها مع أمراء المورة فيما بين عامي ١٢٥٦ –

(65) Hodgson, op. cit., P. 40 .
(66) Bury, op. cit., 1, PP. 329 — 30 .
(67) Lane , A maritime ., P. 43 .
(68) Ibid., P. 70 .
(69) Miller, The Latins., P. 152 .

١٢٦٢ م (٧٠) . كما تمكنت البندقية من الحصول على اعتراف الاباطرة البيزنطيين بسيادتها على الجزيرة ، وذلك بموجب المعاهدة التي وقعتها مع الامبراطور ميخائيل الثامن عام ١٢٦٨ م ، ومعاهدة عام ١٢٨٥ م التي وقعتها مع اندرنيق الثاني (٧١) .

وفي النصف الاول من القرن الرابع عشر تعرض النشاط التجاري للبندقية في نيقروبونت الى الخطر التركي العثماني ، فالبايلو البندقي بالجزيرة كتب الى القومون البندقي ، خلال تلك الفترة يشرح له الاخطار التي تحيق بنقروبونت من جراء القراصنة الاتراك الذين اجبروا اكثر من (١٥) ألفا من سكان سواحل الجزيرة الى الفرار الى الداخل ، ويؤكد ميلر أن البندقية كانت القوة الوحيدة القادرة على الدفاع عن نيقروبونت ضد الخطر التركي ولهذا كان عليها أن تنفق الكثير من مواردها للحفاظ على مصالحها التجارية وجالياتها في الجزيرة (٧٢) . وفي أواسط القرن الرابع عشر (١٣٥٠ – ١٣٥٢ م) أغار الجنوية في خيوس على جزيرة نيقروبونت ويقول المؤرخ البيزنطي غريغوري ، الذي كان في زيارة للجزيرة آنذاك أن الجنوية قد أحرقوا احياء البندقية في مدينة نيقربونت ، ودمروا مستودعات التجار البنادقة وحوانيتهم وأسواقهم ، ثم عادوا الى خيوس حيث علقوا على أبوابها مفاتيح مدينة نيقروبونت (٧٣) . الا أن تجارة البنادقة وجاليتهم في نيقروبونت تعرضت لكراهية سكان الجزيرة اليونانيين (٧٤) ، فالمؤرخ سانودو يقول ان الفلاحين اليونانيين في الجزيرة كانوا يهرعون الى الشواطىء ومعهم المؤن والذخائر عندما كانوا يشاهدون مركبا جنويا يقترب من الجزيرة ، في حين كانوا يظهرون عدم الاهتمام عندما كانوا يشاهدون مركبا بندقيا (٧٥) .

(٧٠) انظر ذلك في :
Tafel and Thomas, 111, PP. 1—12 , 39—43 , 44—46 .
(٧١) انظر تفصيل ذلك :
Ibid., 111, PP. 62 — 89 , 322 — 39 .
(72) Miller, The latins, PP. 245 ; 588 .
(73) Gregorae, op. cit., 11, P. 878 .
(٧٤) يقول الرحالة طافور أن « حكام جزيرة نيقروبونت بنادقة وسكانها اغريقيا » . انظر : Tafur , P. 152 .
(75) Miller, The Latins, P. 209 .

وبالرغم من هذا الشعور العدائي تجاه البنادقة الا أن نشاطهم التجاري في جزيرة نيقروبونت ازدهر على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وشكلت هذه الجزيرة حلقة هامة في النشاط التجاري للبندقية في شرق البحر المتوسط ، وافاد البنادقة من مميزاتها وثرواتها . وتحولت على أيديهم الى مركز تجاري كبير وملتقى تجار الشرق والغرب ، ومحطة نظامية للاساطيل التجارية البندقية الى بيزنطة والبحر الاسود بل تحولت نيقروبونت على أيدي البنادقة ــ كما يقول احد المؤرخين المحدثين ــ الى أغنى مركز صيرفي بندقي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط (٧٦) .

وينبغي لنا ، قبل أن نصل الى نهاية دراستنا عن النشاط التجاري البندقية ، في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، أن نشير الى أهمية مينائي مدينتي مودون Modon وكورون Coron ، الواقعين على خليج مسينا في شبه جزيرة البليوبونيز ، بالنسبة الى هذا النشاط . وذلك ان مودون وكورون كانتا من نصيب البندقية في معاهدة تقسيم الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ م ، وتمكن الاسطول البندقي ، عام ١٢٠٦ م ، من احتلالهما (٧٧) . وكانت أهميتهما التجارية بالنسبة الى البندقية لا تنحصر بما اشتهرت به مودون وكورون من حبوب وخمور وزيوت فحسب وانما في المقام الاول بموقعهما الذي ساعد البندقية لان تجعل منهما محطتين تجاريتين بالغتي الاهمية بالنسبة لاساطيلها التجارية القادمة من البندقية أو الغرب الاوربي الى كريت واليونان والقسطنطينية والبحر الاسود وقبرص ومصر والشام وآسيا الصغرى (٧٨) . ولقد عينت الحكومة البندقية حكام هاتين المحطتين من المدينة الام (٧٩) ، وانتزعت من الاباطرة البيزنطيين ، عام ١٢٦٨ وعام ١٢٨٥ م ، اعترفا بملكيتها لهما (٨٠) وظلت مودون وكورون ذواتا أهمية كبيرة في النشاط التجاري للبنادقة في شرق البحر المتوسط

(76) Ibid., P. 155 .
(77) Miller, The Latins, P. 39 .
(78) Niccolo , op. cit., P. 2 ; Hodgson , op. cit., PP. 133 — 34
(79) Canon , op. cit., P. 194 .
(80) Tafel and Thomas, 11, PP. 62F. , 322 F.

خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وبذلك فان النشاط التجاري للبندقية ، في جزيرة قبرص وكريت ونيقروبونت ومودن وكورون ، جزء لا يتجزأ من نشاطها التجاري بالحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وفصل بالغ الاهمية في التاريخ التجاري البنادقة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وارتبط النشاط التجاري للبندقية في هذه الجزر ارتباطا مباشرا بعلاقات البندقية التجارية ، مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ويضاف الى ذلك أن الاهمية التجارية والاقتصادية الكبرى لهذه الجزر ، بالنسبة لتجارة البندقية ، كانت بالدرجة الاولى كمحطات لاساطيلها التجارية وأسواق لمتاجر الشرق والغرب ، ومستودعات لمتاجر وسلع الشرق الاقصى وبلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

الفصل الثاني

النشاط التجاري للجنوية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط

ارتبط النشاط التجاري للجنوية في جزيرة قبرص ارتباطا وثيقا بالمعاهدات التجارية التي وقعها القومون الجنوي مع الملوك القبارصة على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وتعتبر معاهدة عام ١٢١٨م ، التي وقعها القومون الجنوي مع الملكة آليس شامبيني **A. Champagn**(١) البداية الحقيقية للنشاط التجاري الجنوي في الجزيرة . فلقد اشتملت هذه المعاهدة على اعفاء الجنوية من كافة الرسوم والضرائب ، المتعلقة بعمليات البيع والشراء ، في كافة مدن الجزيرة وموانئها . ومنحت المعاهدة الجنوية الاستقلال القضائي في الجزيرة من كل القضايا المتعلقة برعايا الجنوية فيها الا جرائم القتل والاغتصاب والخيانة التي يتوجب النظر فيها أمام المحاكم الملكية في الجزيرة ، كما تضمنت المعاهدة منح الجنوية قطعتي ارض في كل من ليماسول وفماجوستا لبناء منازل ومكاتب تجارية ومستودعات ، وفضلا على ذلك كله فقد انطوت المعاهدة على تعهد الحكومة القبرصية بحماية أرواح التجار الجنوية وممتلكاتهم ومتاجرهم في حالة تحطم سفنهم أو غرقها قرب الشواطىء القبرصية ، ومقابل هذه الامتيازات تعهد القومون الجنوي بتقديم المساعدات البحرية للدفاع عن الجزيرة عند الضرورة(٢) .

ومن المؤكد أن الجنوية رحبوا بالامتيازات التجارية وغيرها التي منحت لهم في جزيرة قبرص . ونظروا اليها على أنها فرصة طيبة للبدء في تشكيل جاليات تجارية لهم في مدنها وموانئها الرئيسية وتثبيت أقدامهم وحماية

(١) كانت آليس شامبني وصية على العرش القبرصي ، وذلك لان ابنها هنري الاول ابن هيوج الاول لوزنجيان كان ما يزال قاصرا . انظر :
Hill, Hist. of cyprus, 11, P, 85 .

(2) Mas La trie, Hist. de Chypre, 11, P. 39 .

مصالحهم التجارية الكبرى فيها (٣) . وفي عام ١٢٣١ م وقع حنادي أبيلين — الذي كان وصيا على هنري الاول ملك قبرص — معاهدة مع الجنوية اشتملت على تجديد للامتياز المتعلق باعفاء الجنوية من الرسوم الجمركية في الجزيرة ، ومنح الجنوية محكمة خاصة بهم في الجزيرة ، وذلك مقابل دعم الجنوية لحنا في صراعه الدائر(٤) مع قوات الامبراطور فردريك الثاني ونوابه في قبرص(٥) . وبذلك فقد جاءت معاهدة عام ١٢٣١ م ، بين قبرص وجنوه ، لتؤكد الروح الحقيقية التي انطوت عليها معاهدة عام ١٢١٨م .

ووقفت قوات جنوة البحرية الى جانب حنادي ابيلين ، ولعبت دورا هاما في اخضاع نواب الامبراطور فردريك الموالين له في قبرص(٦) ، ولهذا صدق ملك قبرص ، هنري الاول ، على المعاهدة الموقعة بين الجنوية وحنادي ابيلين ، وذلك في مدينة فماجوستا بتاريخ ١٠ يونيو عام ١٢٣٢م ، كما أضاف الملك هنري الى المعاهدة امتيازات جديدة ، اشتملت على حق الجنوية بأن يكون لهم ، في كل من نيقوسيا وباقوس وفماجوستا ، بيوتا ومساكن ، وأفران خاصة بهم(٧) .

ويلاحظ أن نص المعاهدة التي صادق عليها الملك هنري عام ١٢٣٢م ، كان في حقيقته تجديدا لبنود معاهدة عام ١٢١٨م التي وقعتها جنوة مع الملكة آليس ، الا أن الشيء الجديد في هذه المعاهدة هو منح الجنوية الحق في اقامة جاليات تجارية في مدن جديدة مثل نيقوسيا وباقوس .

ويبدو من خلال الوثائق المتعلقة بمعاهدتي عام ١٢١٨م وعام ١٢٣٢م انه لم يكن للجنوية حتى ذلك الوقت قنصل في قبرص ، وانما كان لها — ثلاثة من الموظفين Rector في ثلاث مدن قبرصية ، فماجوستا ، نيقوسيا ،

(3) Hill, op. cit., 11, P. 86 .

(4) Novar, The Wars of Fredrick 11, P. 144 .

(٥) عن الصراع بين الامراء الصليبيين وقوات فردريك الثاني في قبرص انظر : عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ص ٤١ — ٤٢ .

(6) Novar, op. cit., P. 136

(7) Ibid., P. 148 ; Mas latrie ; Hist. de Chypre, 11, PP. 51 — 56 .

ليماسول ، مهمتهم معالجة المسائل المتعلقة بالتجار الجنوية المقيمين في هذه المدن ، وبصفة خاصة ما يتعلق منها بالامور القضائية ، ولكـن في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أصبح الجالية الجنوية رئيسا ، اتخذ لقب بودستا ، واتخذ مقره في مدينة فماجوستا[٨] .

وضعف النشاط التجاري للجنوية في جزيرة قبرص ما بين عامي ١٢٩٢ — ١٣٢٠م ، وذلك لان المنافسة بين البنادقة والجنوية على التجارة الشرقية قد انتقلت من بيزنطة والامارات الصليبية الى قبرص ومياهها . ففي عام ١٢٩٢ م هاجمت بعض السفن البندقية سفنا تجارية جنوية بالقرب من قبرص ، أثناء رحلتها العادية من بيزنطة الى جنوة الا أن الجنوية انتصروا على البنادقة ، فأرسلت البندقية أسطولا آخر في عام ١٢٩٤م ، قام بمهاجمة الجنوية المقيمين في ليماسول وفماجوستا وفي ميناء اياس واستولى الاسطول البندقي على سفينة جنوية كانت ترسو فيه . وسرعان ما ظهر الاسطول الجنوي ، الذي تمكن من الحاق هزيمة قاسية بالسفن البندقية ، وانتزاع كل السلع والمتاجر التي نهبها البنادقة من ميناء اياس[٩] .

وانتقلت المنازعات بين الجنوية والبنادقة في البحر الى جاليتهم التي تعيش في جزيرة قبرص ، وذلك عندما أحرق البنادقة في ميناء فماجوستا سفينة جنوية كانت ترسو فيه وذلك عام ١٢٩٧م . ولم ينتقم الجنويةلهذه الحادثة لان الملك القبرصي ، هنري الثاني ، وعدهم بالتعويض لهم عن خسائرهم ، الا أن الاخير لم يف بذلك ، مما اضطر الحكومة الجنوية لان تقطع علاقاتها التجارية مع جزيرة قبرص . وطلبت من جميع رعاياها مغادرة قبرص[١٠] .

وسرعان ما ازداد الموقف سوءا بين الجنوية والقبارصة ، وذلكعندما رد الملك القبرصي على اجراء الحكومة الجنوية باجراءات اكثر خطورة ،

---

(8) Hill, Hist . of Cyprus, 11, 206 , 211 .

(٩) انظر :
Alastos, op. cit., P. 186 ; Hill, op. cit., 11, PP. 207 — 208 ;
Luke, H., ' The Kingdom of Cyprus ' P. 342 .

(10) Hill, op. cit., 11, PP. 209 — 210 .

حيث أمر سنة (١٢٩٩م) بمقاطعة السلع والمتاجر الجنوية وفي الوقت ذاته استولى على ممتلكات الجنوية في كافة مدن الجزيرة[١١] وأجبر سنة ١٣٠٥م الجنوية الذين لم يغادروا قبرص على أداء يمين الولاء والطاعة لشعب قبرص وملكها[١٢] ، وجردهم سنة ١٣١٢م من أسلحتهم ونقلهم جميعا الى مدينة نيقوسيا[١٣] .

وازاء الدمار الذي لحق بتجارة الجنوية وجاليتهم في قبرص على يد الملك القبرصي منحت الحكومة الجنوية الحماية لكل جنوي يلحق الاذى بالقبارصة والبنادقة في كل مكان . وعلى اثر ذلك بدأ القراصنة الجنوية بالاغارة على الشواطىء القبرصية . وبملاحقة السفن القبرصية والبندقية معا في مياه الجزيرة وموانئها[١٤] . ففي عام ١٣٠٣م كتب المندوب البندقي في قبرص — على سبيل المثال — تقريرا الى حكومته ابلغها فيه أن القراصنة الجنوية قد هاجموا السفن التجارية للبندقية في مياه قبرص والحقوا بها اضرارا بالغة[١٥] . ولقد بلغت أعمال القراصنة الجنوية ، ضد قبرص ذروتها بمهاجمتهم مقاطعة باقوس عام ١٣١٢ وعام ١٣١٦ م[١٦] .

والحقت القرصنة التي قام بها الجنوية ، في المياه القبرصية ابلغ الاضرار بتجارة الجنوية وجاليتهم في قبرص ، اكثر مما الحقت بالقبارصة . ففي عام ١٣١٦م ، رد الملك القبرصي على أعمال القرصنة الجنوية باعتقال جميع الجنوية الذين كانوا يعيشون في قبرص وقتذاك واودعهم سجون نيقوسيا ، بما في ذلك النساء والاطفال ، ولم يتم الافراج عنهم الا عام ١٣٢٠م نتيجة لوساطة البابا حنا الثاني والعشرين[١٧] .

---

(11) Ibid., 11, P. 210 .

(12) Ibid., 11, PP. 210 — 211 .

(13) Ibid., 11, PP. 278 — 73 .

(14) Luke, ' The Kingdom of Cyprus ' , P. 348 .

(15) Hill, op. cit., 11, P. 211 .

(16) Luke , op. cit., 348 .

(17) Ibid, PP. 348 — 49 .

– وبعد أن توسط البابا عام ١٣٢٠ ، بين الجنوية(١٨) والقبارصة بدأت السفارات تتردد بين جنوة وقبرص لتوقيع معاهدة سلام وتجارة ، خاصة وان القومون الجنوي قد ادرك فداحة الخسائر التي أصابت التجارة الجنوية في الجزيرة خلال الفترة من ١٢٩٢ – ١٣٢٠م ، وخطورة استمرار التدهور في العلاقات بينه وبين الحكومة القبرصية على مستقبل التجارة الجنوية لا في جزيرة قبرص فحسب وانما في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بصفة عامة . ونجحت السفارات المتبادلة بين الطرفين في توقيع معاهدة في نيقوسيا بتاريخ ١٦ فبراير عام ١٣٢٩ م . جددت فيها للجنوية جميع الامتيازات التي منحت لهم في معاهدة عام ١٢٣٢م ووعدت الحكومة القبرصية بدفع كافة التعويضات عن الخسائر التي لحقت بالجنوية خلال فترة انقطاع العلاقات بين جنوة وقبرص . كما اشتملت المعاهدة على وعد من الملك القبرصي بأن يدفع ديونا كان قد اخذها الملكان القبرصيان ، عموري وهنري الثاني ، من الجنوية ، كما وعد الملك بأن يدفع تعويضا قدره /٢١٠/ الف بيزانت مقابل تدمير القبارصة لسفينة جنوية أثناء فترة سوء العلاقات . وتعهد الملك في المعاهدة أيضاً بأن يسوي المشاكل المتعلقة بالجالية الجنوية في قبرص وأن يعيد كافة الممتلكات والمنازل والاراضي التي انتزعت من أفراد هذه الجالية ما بين ١٢٩٢ – ١٣٢٠م(١٩) .

وبالرغم من أن المعاهدة السابقة لم تضع حدا نهائيا للمنازعات بين الجنوية والقبارصة في الجزيرة ، وبالرغم من أن القراصنة الجنوية لم يوقفوا نشاطاتهم العدائية في المياه القبرصية بعد توقيع المعاهدة ، فان الجنوية استأنفوا نشاطاتهم التجارية في مدن قبرص وموانئها(٢٠) حتى أن السفير الجنوي سبينولا Sorleone Spinola قد تمكن من توقيع معاهدة اخرى مع الملك هيو الرابع ، في مدينة نيقوسيا في ٢١ فبراير ١٣٣٨ م(٢١) . وانطوت المعاهدة الاخيرة هذه على تجديد لكل الامتيازات التي منحت للجنوية في قبرص بموجب معاهدة ١٢٣٢م ، اضافة الى وعد الملك القبرصي بالنظر في عدد من الشكاوى المقدمة من بعض التجار الجنوية ضد القراصنة

(18) Hill, Hist. of Cyprus, 11, PP. 280 — 81 .

(١٩) انظر نص المعاهدة في :

Mas La trie, Hist. de Chypre, 11, PP. 150 — 58 .

(20) Hill, op. cit., 11, P. 288 .

(21) Mas La trie, Hist. de Chypre, 11, P. 166 .

القبارصة(٢٢) .

وازدهر النشاط التجاري للجنوية في قبرص ازدهارا كبيرا بعد معاهدة عام ١٣٣٨م ، وازدادت اعداد الجنوية في مدن قبرص وموانئها واتخذت السفن الجنوية من الجزيرة محطة رئيسية لرحلاتها التجارية المتجهة الى مصر والشام ، ولم يمض ربع قرن على المعاهدة الاخيرة حتى انتهز الجنوية فرصة وجود الملك القبرصي ، بطرس الاول ، في مدينتهم ، ووقعوا معاهدة في ٥ مارس ١٣٦٣م ، اشتملت تجديدا كاملا لجميع الامتيازات التي منحت للجنوية في جزيرة قبرص ، بموجب معاهدة ١٢٣٢م ، كما تضمنت تثبيت الجنوية في ممتلكاتهم في كل من نيقوسيا وفماجوستا وباقوس ، وفضلا عن ذلك فقد اكدت المعاهدة على حقوق الجنوية المتعلقة بالاعفاءات الجمركية والاستقلال القضائي ، وفقا للشروط التي حددتها معاهدة عام ١٢٣٢ ، بالنسبة الى هاتين المسألتين(٢٣) .

وفي عام ١٣٦٤م ساءت العلاقة بين جنوة وقبرص ، وذلك نتيجة معاقبة السلطات القبرصية لبعض الملاحين الجنوية الذين يخدمون في البحرية القبرصية(٢٤) . واثر هذه الحادثة أمرت الحكومة الجنوية في سبتمبر ١٣٦٤ جميع رعاياها المقيمين في قبرص بمغادرة الجزيرة خلال فترة أقصاها شهر فبراير من العام التالي ١٣٦٥(٢٥) .

ويبدو أن الملك القبرصي ، بطرس الاول ، كان حريصا أشد الحرص على ابقاء العلاقات الودية بين بلاده وجنوة ، وذلك لانه كان يعد لحملته الصليبية ، وبالتالي يحاول كسب القوى البحرية الاوربية الى جانب مشروعه ، بما فيها جنوة . ولهذا وعد الحكومة الجنوية بمعاقبة القبارصة المسؤولين عن الحوادث الدامية عام ١٣٦٤م ، كما وقع معاهدة معها في العام التالي (١٣٦٥م) ، اشتملت على تجديد بنود معاهدة ١٢٣٢م وعلى توسيع الامتيازات القضائية التي تتمتع بها الجالية التجارية الجنوية في الجزيرة

(22) Ibid., 11, PP. 166 — 68 , 170 — 74 , 179 .

(23) Ibid., 11, PP. 248 — 50 .

(24) Hill, op. cit., 11, PP. 312 — 14 .

(25) Mas latrie, Hist. de Chypre, 11, PP. 254 — 59 .

واشتملت المعاهدة على حق السفن الجنوية في الالتجاء الى الموانىءالقبرصية في حالة الخطر . وحذرت المعاهدة أصحاب السفن الجنوية من نقل أي شخص غير جنوي الا باذن خاص من الحكومة القبرصية، كما نصت المعاهدة أنه لا يجوز للسفن الجنوية نقل السلع والمتاجر المحرمة من قبل الكنيسة، مثل الخشب والحديد والقار، من قبرص الى المسلمين في مصر والشام(٢٦).

وبالرغم من أنه من المشكوك فيه أن يكون الجنوية قد التزموا بالبند الاخير الذي انطوت عليه المعاهدة السابقة ، الا أنه من المؤكد أن المعاهدة كانت تطوراً جديدا في طبيعة المعاهدات بين الجنوية والقبارصة ، وان الجنوية استأنفوا نشاطهم التجاري في مدن الجزيرة وموانئها كما كان قبل احداث عام ١٣٦٤م .

الا أن الفوضى التي ألمت بالجزيرة ، في أعقاب اغتيال الملك القبرصي بطرس الاول عام ١٣٦٩ ، قد ألحقت أبلغ الاضرار بالنشاط التجاري للجنوية وجالياتهم في قبرص ، وجعلت الحكومة الجنوية تدرك ان التجديد المستمر للمعاهدات بينها وبين الحكومة القبرصية من عام ١٢٣٢ حتى عام ١٣٦٥م لم يكن يمنع القبارصة من انتهاك هذه المعاهدات ، فالتجار الجنوية في قبرص وجاليتهم في الجزيرة ، لم ينسوا ما أصابهم من أعمال الاعتقال والمصادرة على أيدي الملك القبرصي هنري الثاني ، كما لم يكن بامكانهم تجاهل الاخطار التي تنتج عن استمرار الكراهية التي يظهرها سكان الجزيرة تجاه الجنوية والتزايد المستمر في اعداد البنادقة ونفوذهم في قبرص . وبهذا فربما كانت احوال الجنوية وتجارتهم في قبرص ، بأعقاب اغتيال الملك بطرس الاول ، تشبه الى حد بعيد أحوال البنادقة وتجارتهم في بيزنطة قبيل الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م) ، فاذا كانت البندقية قد اعتقدت أن حماية مصالحها التجارية والاستيطانية في الامبراطورية البيزنطية ، يقتضي احتلال القسطنطينية فان جنوة قد أدركت بدورها أن حماية مصالحها التجارية الاستيطانية في جزيرة قبرص يقتضي احتلال الجزيرة.
وكان أن نشب نزاع بين الجنوية والبنادقة، فيمدينة فماجوستا(٢٧).

(26) Alastos, op. cit., P. 198

(٢٧) لتفصيل ذلك ، انظر :
Alastos, op. cit., PP. 198 — 99 ; Luke , op. cit., P. 362

اثناء حفلة تتويج الملك بطرس الثاني بتاج مملكة بيت المقدس في اكتوبر من العام ١٣٧٢م ، ووقف القبارصة في المدينة الى جانب البنادقة ، وهاجموا الحي الجنوي ونهبوا مستودعات التجار الجنوية وحوانيتهم وبيوتهم ، ودمروا مقر البودستا الجنوي وذهب ضحية ذلك أعداد كبيرة من الجنوية المقيمين في المدينة(٢٨)

وصدمت جمهورية جنوة بالتقرير الذي وصلها من ممثلها في قبرص حول هذه الحوادث(٢٩) ، فأرسلت اسطولا الى قبرص تحت قيادة داميان كاتانو Damian Cattano (٣٠) وطالب داميان عند وصوله (٣٠ أبريل ١٣٧٣م) الحكومة القبرصية بالتعويض عن كل ما لحق بالجنوية في فماجوستا من أضرار اثناء النزاع وباسترداد كافة السلع والمتاجر التي نهبت من مستودعات التجار الجنوية وحوانيتهم ، وبمعاقبة المسؤولين عن الاحداث القبارصة منهم والبنادقة(٣١) .

وقبل أن تنتهي المفاوضات التي بدأها داميان مع السلطاتالقبرصية، بدأ الاسطول الجنوي بمهاجمة شواطىء الجزيرة ، ورد الملك القبرصيعلى ذلك باعتقال كافة الجنوية الذين يعيشون في نيقوسيا وفماجوستا(٣٢) ، وعندئذ قررت القوات الجنوية احتلال الجزيرة ، حيث احرقت ليماسول ، واستولت على باقوس ، واحتلت فماجوستا ووقع الملك القبرصي نفسه أسيرا بأيدي القوات الجنوية(٣٣) ومن ثم احتلت القوات الجنوية العاصمة

(28) Luke, op. cit, PP. 362 — 63 ; Hodgson, op. cit., P. 505.

(29). Hill, op. cit., 11, P. 387 .

(٣٠) قام بتمويل الحملة التي قادها داميان تنظيم تجاري يدعى الماهونا وأصل كلمة Mahona غير معروف بالدقة . ففي الايطالية الحديثة نجد كلمة Manos وتعني تفريغ أو شحن السفن : وفي اليونانية نجد كلمة UOVAS وهي الوحدةوفي اللهجة الجنوية نجد كلمة Mobba وتعني الاتحاد وفي العربية نجد كلمة المعونة Me—unet
انظر :
Mas latrie, Hist. de Chypre, 11, PP. 366 — 68 .

(31) Hill, op. cit., 11, P. 387 .

(32) Ibid., 11, PP. 387 — 88 .

(33) Tafur , op. cit., P. 64 ; Alastos , PP: 119 — 201

نيقوسيا ، واعملت في شوارعها السلب والنهب والقتل(٣٤) .

وفي ٢١ اكتوبر عام ١٣٧٤م ، توصل الجنوية والقبارصة الى معاهدة سلام اشتملت على عدد من البنود تتعلـق بالنشاط التجـاري للجنويـة ومستقبله في الجزيرة منها : أن تتسلم الماهونا تعويضا قدره مليونان واثنا عشر ألف وأربع مئة دوكات ، كتعويض على نفقات الحمـلة ، وان يحتفظ الجنوية بمدينة فماجوستا ، وان يتخلى الملك القبرصي عن أيـة سلطـات قضائية في فماجوستا(٣٥) .

ان استيلاء الجنوية على مدينة فماجوستا كان حدثا بالغ الاهمية في تاريخ التجارة الجنوية في الحوض الشرقي البحـر المتوسط ، ونقطة تحـول في النشاط التجاري للجنوية في جزيرة قبرص . فبالرغم من أن اعدادا كبيرة من التجار غير الجنوية قد غادروا فماجوستا بعد احتلال الجنوية لها(٣٦) ، الا أن ذلك لم يكن عائقا أمام الجنوية لاحتكار تجارة فماجوستا من خـلال تنظيم الماهونا التجاري ، بل لقد تمكن الجنوية من احتكار التجارة في جزيرة قبرص كلها تدريجيا(٣٧) ، وذلك لان الجنوية في فماجوستا كانوا يقومـون بمصادرة أو اعتقال أية سفينة تجارية ، قادمة من الغرب الاوربي ، لا ترسو في ميناء فماجوستا . والدليل على ذلك القاء الجنوية القبض على عدد من السفن التجارية التابعة البندقية ، التي كانت تحاول الرسو في مينـاء غير ميناء فماجوستا ، عام ١٣٨٣م . واضطر السناتو البندقي الـى اصـدار تعليمات ، في ذلك العام ، يمنع بموجبها التجار البنادقة من حمل السـلع والمتاجر الى جزيرة قبرص(٣٨) .

وتمكن الجنوية من تجديـد احتلالهم لمدينـة فماجوستـا وتجديـد

---

(34) Hill, op. cit., 11, PP. 399 — 400 .

(٣٥) انظر تفصيل ذلك في :
Alastos, op. cit., P. 201 , Hill, op. cit., 11, PP. 409 — 414 ; luke, op. cit., PP. 364 — 66 .

(36) Hill, op. cit., 11, P. 413 .

(37) Alastos, op. cit., P. 202.

(38) Hill, op. cit., 11, P. 438 .

امتيازاتهم التجارية والقضائية في بقية المدن القبرصية ، وذلك من خـلال معاهدة عام ١٣٨٣م ، التـي وقعهـا القومون الجنـوي مـع الحكومـة القبرصيـة(٣٩) .

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها القبارصة ، عام ١٣٩٦م وعام ١٤٠٢م ، لاسترداد فماجوستا من الجنوية(٤٠) ، فقـد استمرت قبضـة الجنوية تمسك لا في ميناء فماجوستا فحسب وانمافي معظم تجارة الجزيرة وثرواتها(٤١) . وبذلك حقق الجنوية تفوقا كبيرا على البنادقة في جـزيرة قبرص ، واستعادت التجارة الجنوية بعضا من مكانتها في الحوض الشرقي البحر المتوسط .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري للجنوية في جزيرة خيوس Chois فانه ارتبط بأهمية هذه الجزيرة بالنسبة الى النشاط التجاري للجنوية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتعتبر جزيرة خيوس من أغنى جزر بحر أيجه واكثرها خصبا(٤٢) ، والمكان الوحيد في العالم وقتذاك الـذى كانت تنمو فيه أشجار المصطكي(٤٣) ، حتى أن شهرةهذه الجزيرةواهميتها الاقتصادية والتجارية ارتبطتا ارتباطا كبيرا بانتاج المصطكي التـي كانـت تصدر الى معظم بلدان العالم آنذاك(٤٤) .

ويرى بعض المؤرخين المحدثين ، أمثال بنت Bent (٤٥) ، وفلاستو

---

(39) Mas latrie, Hist. de Chypre, 11, P. 421 .

(40) Alastos, op. cit., P. 202 .

(٤١) استمرت مدينة فماجوستا بأيدي الجنوية حتى عام ١٤٦٤م . انظر :
Ibid., P. 213 .

(42) Miller, ' The Genoese in Chios ' , P. 418 .

(43) Tafur, P. 113 .

(٤٤) اشتهرت هذه الجزيرة لدى الجغرافيين والمؤرخين المسلمين باسم « جزيـرة المصطكي » انظر : ابن سعيد ، ص ١٨٤ ، القلقشندي ، صبح الاعشي ، ج ٨ ، ص ٥١ ، العمري ، التعريف ص ٥٩ .

(45) Bent, J. T., ' The lords of chios ' , P. 467 .

Vlasto (٤٦) ان جزيرة خيوس كانت من نصيب جمهورية البندقية بموجب معاهدة تقسيم الامبراطورية البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة عام ١٢٠٤ م ، الا أن الباحث آرجنتي Argenti (٤٧) الذي نشر كل الوثائق المتعلقة بالنشاط التجاري للجنوية في جزيرة خيوس ، كشف مؤخرا زيف هذه الرواية ، واكد ان خيوس كانت من نصيب الامبراطور اللاتيني القسطنطينية بلدوين ولم تكن من نصيب البندقية . ومعنى هذا انه لم يكن للايطاليين بصفة عامة وللجنوية بصفة خاصة أية نشاطات تجارية في هذه الجزيرة في السنوات التالية لسقوط القسطنطينية بيد اللاتين عام ١٢٠٤ م .

ان البداية الحقيقية للنشاط التجاري الجنوي في جزيرة خيوس ترتبط – كما بين الباحث آرجنتي – بمعاهدة عام ١٢٦١ م ، التي أبرمتها الحكومة الجنوية مع الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوغرس والتي منح الجنوية بموجبها الحق في اقامة مستوطنة لهم في الجزيرة وامتلاك سوق وكنيسة وابنية فيها ، وان يكون لهم فيها قنصل ومحكمة ذات سلطتين قضائية ومدنية على الجنوية ومن يسكن معهم في الحي الخاص بهم من غير الجنوية(٤٨) .

ان العلاقات الوطيدة التي ربطت الجنوية بميخائيل الثامن كما بينا في الفصل الثاني من هذا البحث ، مكنت التجار الجنوية من الافادة من الامتيازات التي منحت لهم في جزيرة خيوس بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م . فقد قاموا بتصدير مادة المصطكي من الجزيرة ، واتخذوا منها محطة بالغة الاهمية لقوافلهم التجارية المتجهة الى القسطنطينية والبحر الاسود والشام وآسيا الصغرى(٤٩) .

وكان أن طلب آل زكريا(٥٠) – أصحاب مناجم الشب في فوكيا –

(46) Vlasto, A Hist. of the Island of Chios, P. 13.

(47) Argenti, The occupation of chios by The Genoese, 1, PP. 54 — 55 .

(48) Ibid., 1, PP. 52 — 53 ; Miller, The Latins, PP. 118 ; 578 .

(49) Tafur, op. cit., P. 113 ; Miller , The Latins , P. 423 .

(٥٠) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني .

من الامبراطور اندرنيق الثاني (١٢٨٢ – ١٣٢٨) أن يعهد اليهم بالدفاع عن الجزر المجاورة لفوكيا اذا كانت بيزنطة عاجزة عن القيام بذلك . وكانت الذريعة التي استخدمها رئيس آل زكريا ، بينديتو ، في مفاوضاته مع الامبراطور ان الجزيرة كانت محطة تجارية مزدهرة منذ أيام ميخائيل الثامن ، الا أن اعمال القرصنة من جهة وضعف الحكومة البيزنطية من جهة اخرى قد انتقص من القيمة التجارية والاقتصادية للجزيرة(٥١) .

ويبدو أن اندرنيق الثاني لم يعبأ بطلب آل زكريا ، ولهذا قام بينديتو باحتلال الجزيرة عام ١٣٠٤ م(٥٢) . وطالما ان الامبراطور لم يكن في وضع يمكنه من الدفاع عنها – نتيجة انشغاله بالخطر العثماني – فقد اضطر الى قبول الامر الواقع ، وأبرم اتفاقية مع بنديتو زكريا اشتملت : على حق الاخير بأن يحكم الجزيرة مدة عشر سنوات ، دون ان يدفع اتاوات الى الدولة البيزنطية مقابل ذلك وعلى اعتراف بينديتو بأن الجزيرة من أملاك بيزنطة(٥٣) .

وحكم بينديتو زكريا – من مقره في فوكيا – جزيرة خيوس(٥٤) وبذلك احتكرت هذه العائلة – الى جانب الشب – تصدير المصطكي من خيوس حتى أن هذه العائلة تمكنت من الحصول على اذن خاص من البابا، عام ١٣٢٠ م ، سمح لها بموجبه ببيع المصطكي في الاسكندرية والقاهرة لمدة سنتين ، وجدد آل زكريا هذا الترخيص عام ١٣٢٢ م لمدة أربع سنوات اخرى ، وكذلك عام ١٣٢٥ م لمدة ثلاث سنوات أيضا(٥٥) ويؤيد ذلك ما أشار اليه العمري (٧٤٢ هـ/١٣٤١ م) عن العلاقات الطيبة التي كانت تربط « اصحاب جزيرة المصطكي » بسلاطين المماليك وعن تردد السفن التجارية الجنوية ، الحاملة للمصطكي ، ما بين جزيرة خيوس والموانىء المصرية(٥٦) . ولهذا كله ازدادت ثروات آل زكريا الجنوية ازديادا كبيرا ،

(51) Argenti, op. cit., 1, PP. 54 — 55 .

(52) Ludolph , op. cit., P. 29 , Argenti, 1, P. 55 ; Geanakoplos, Michael., P. 210 .

(53) Vlasto, op. cit., PP. 14 — 15 ; Argenti, op. cit. P. 55 .

(54) Argenti; op. cit., 1, P. 56 .

(55) Argenti, op. cit., 1, P. 59 .

(٥٦) ابن العمري : التعريف ، ص ٥٩ .

حتى ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى القول أن الدخل السنوي لجزيرة خيوس ، في ظل آل زكريا بلغ قرابة ١٢٠/الف قطعة ذهبية[٥٧] . وهـذا يفسر لنا اسباب نقل آل زكريا مقر حكومتهم او ادارتهم من فوكيا الى خيوس[٥٨] .

وتعرض النشاط التجاري للجنوية بعامة ، ومصالح آل زكريا بصفة خاصة ، في جزيرة خيوس، خلال سيطرة آل زكريا عليها (١٣٠٤ – ١٣٢٩) الى أخطار كثيرة تمثلت في الغارات المتكررة التي كان يشنها البنادقة من ناحية[٥٩] والاتراك العثمانيون من ناحية أخرى[٦٠] ، فضلا عن كراهية سكان الجزيرة اليونانيين للسيطرة الجنوية ومقاومتهم لها ، وفي الانقسام الذي دب بين أبناء بينديتو زكريا[٦١] . ويبدو أن كل هذه العوامل قد مكنت القوات البيزنطية من استرداد الجزيرة ، وطرد آل زكريا منها عام ١٣٢٩ م ، بعد ربع قرن من استيلائهم عليها واستثمارهم لثروتها وموقعها[٦٢] .

وكان استرداد البيزنطيين لجزيرة خيوس خسارة تجارية كبرى بالنسبة الى جمهورية جنوة ومصالحها الاقتصادية الواسعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ونظرا لان خزينة القومون الجنوي ، وقتذاك ، لم تكن بقادرة على تمويل اسطول لاحتلال الجزيرة واعادة السيطرة الجنوية عليها[٦٣] ، فقد اوكلت الحكومة الجنوية هذه المهمة الى عدد من نبلائها ومواطنيها الاثرياء ، الذين شكلوا تنظيما تجاريا اطلقوا عليه اسم ماهونة خيوس Mahona of chios . وساهم كل منهم بجزء من

(57) Argenti, 1, P. 60 , Vlasto, op. cit., PP. 15 — 16 .
(58) Argenti, op. cit., 1, P. 56 .
(59) Bent, ' The lords of Chios ' , P. 468 .
(60) Vlasto, op. cit., P. 15 .
(61) انظر تفاصيل ذلك في :
Ludolph, op. cit., P. 29 ; Vlasto, PP. 15 — 18 ; Bent, op. cit., PP. 468 — 96 .
(62) Ludolph, P. 29 ; Kantakazuenous, PP. 468 — 96 .
(63) Miller, ' The Genoese ' , P. 418 .

رأس المال اللازم ، لاعداد اسطول قادر على استرداد جزيرة خيوس[٦٤] . وتعهدت الحكومة الجنوية بأن تمنح تنظيم الماهونا الحق في ادارة الجزيرة وجمع الضرائب فيها واحتكار المصطكي والمتاجرة به وذلك كله بالنيابة عن القومون الجنوي[٦٥] .

وتمكن الاسطول الجنوي ، الذي أعدته الماهونا ، من احتلال جزيرة خيوس عام ١٣٤٦[٦٦] . واعترف سكان الجزيرة اليونانية بالسيادة الجنوية على الجزيرة مقابل اعتراف الجنوية لهم بحقوقهم الدينية وامتيازاتهم التجارية[٦٧] . واضطرت بيزنطة لان تعترف عام ١٣٦٣ م ، باحتلال الجنوية لجزيرة خيوس وحقهم في استثمار مواردها مقابل تعهد الجنوية بحماية الحقوق الدينية والقضائية لسكان الجزيرة[٦٨] .

ولما كان معظم أفراد تنظيم الماهونا من عائلة جنوية ثرية هي عائلة جستنياني[٦٩] . لهذا فعندما احتلت قوات الماهونا الجزيرة غادر جميع آل جستنياني مدينة جنوة الى خيوس[٧٠] ، حيث تسلموا ادارة الجزيرة بالنيابة عن القومون الجنوي . واحتكروا تجارة المصطكي وبقية ثروات الجزيرة ، وجمعوا الرسوم الجمركية من كافة السفن غير الجنوية التي ترسو في مينائها ، وانتزعوا الضرائب من سكان الجزيرة اليونانيين[٧١] . وبذلك أثرت عائلة جستنياني ثراءا فاحشا ، وأصبحت الجزيرة القاعدة الرئيسية لشركة آل جستنياني التياستمرت تمسك بجزيرة خيوس حتى اواسط القرن السادس عشر[٧٢] .

(64) Argenti, op. cit., 1, PP. 88 — 90 .
(65) Miller, ' The Genoese' , P. 421 .
(66) Argenti, 1, P. 93 ; Miller, ' The Genoese ' , PP. 418 — 20 ; Vlasto, PP. 20 — 22 .
(67) Argenti, 1, PP. 97 — 102 ; Bent , op. cit., PP. 469 — 70
(68) Bent, ' The lords ', P. 471 , Vlasto, op. cit., PP. 32 — 33
(69) Bent, op. cit., P. 472 .
(70) Ibid., PP. 472 — 73
(71) Vlasto, op. cit., PP. 28, 42 — 43 .
(72) Ostrogorsky, op. cit., P. 468 .

وتمكنت جمهورية جنوة ، من خلال تنظيم الماهـونا وآل جستنياني من تحقيق مصالحها التجارية الكبرى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بصفة عامة وفي خيوس وبيزنطة والبحر الاسود بصفة خاصة ، ففضـلا عن احتكار الجنوية لتصدير مادة المصطكي الى معظم أرجاء العالم وقتذاك ، فقد كانت الجزيرة تتمتع بميناء تجاري بالغ الاهمية بالنسبة الى حمـاية القوافل التجارية الجنوية المتجهة الى الشام والدردنيل ، كما يقرر ذلـك بوضوح الرحالة طافور[٧٣] ، وكذلك لحماية القوافل التجاريـة الجنويـة المتجهة الى البحر الاسود ، وذلك لان الهدف الاول من احتلال الجنويـة للجزيرة ــ كما برهن على ذلك ميلـر Miller هـو حمايـة المستوطنات التجارية الجنوية في البحر الاسود ، وبخاصـة في كافـا وطانـا ، ضـد الهجمات التي كان يقوم بها المغول ضد هاتين المستوطنتين[٧٤] . وشعـر البنادقة بالحنق لاحتكار منافسيهم الجنوية تجارة البحر الاسود وبيزنطة من جهة واحتلالهم جزيرة خيوس من جهة ثانية ، ولهـذا فقـد حاولـت البندقية الاستيلاء على الجزيرة ، فأرسلت اسطولا تحت قيـادة نيقـولا بيزاني لاحتلال الجزيرة ١٣٥١ ــ ١٣٥٢ ، الا أن الاسطول الجنوي تمكن من فك الحصار عن خيوس وأجبر الاسطول البندقي على الفرار[٧٥] . وفي أواخر القرن الرابع عشر تعرض الجنوية في خيوس الى الخطر العثماني ، فاضطروا الى دفع اتاوة الى السلطان مـراد الاول (ت ١٣٨٩ م)[٧٦] ، وعانوا ضائقة كبيرة عندما منع السلطان بيازيد الثاني عام ١٣٩١ م تصدير الحبوب من آسيا الصغرى الى خيوس[٧٧] . كما دفع الجنوية في الجزيرة منذ عام ١٤١٥ أتاوة سنوية الى السلطان العثماني محمـد الاول قـدرها أربع آلاف دوكات ذهبية[٧٨]. وذلك لحماية وجودهم في خيوس ومصالحهم التجارية في البحر الايجي .

وهكذا فان النشاط التجاري للجنوية في خيوس يشكل فصلا هامـا

(73) Tafur, op. cit., P. 113 .

(74) Miller, ' The Genoese in Chios ' , P. 418 .

(75) Bent, ' The lords of chios ' , P. 474 .

(76) Miller, ' The Genoese in chios ' , P. 427 .

(77) Vlasto, op. cit., P. 33.

(78) Miller, ' The Genoese in chios ' , P. 427 .

في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

والخلاصة أن النشاط التجاري لمدينة جنـوة في جزيـرتي قبرص وخيوس جزء لا يتجزأ من النشاط التجاري للجنوية في الحوض الشـرقي للبحر المتوسط ، ومرحلة بالغة الاهمية في التاريخ التجاري الجنوي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وحقق الجنـوية تفوقـا كبـيرا علـى البنادقة في جزيرة قبرص باحتلالهم ميناء فماجوستا ، وبالتالي امتلاكهم محطة بالغة الاهمية بالنسبة للاساطيل التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . كما أن احتلال الجنوية لجزيرة خيوس ، بواسطـة ماهـونة خيوس التي ضمت الاثرياء من ابناء مدينة جنوة ، يعتبر تجربـة مبكـرة للشركات التجارية ، التي ظهرت في العصر الحـديث في الغـرب الاوربي والتي حققت نفوذا واحتكارا كبيرين في التجارة الشرقية .

الخاتمة

وهكذا فقد كانت التنظيمات التجارية والمالية والمصرفية ، التي تبنتها الجمهوريات الايطالية التجارية (البندقية وجنوة وبيزا) ، من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار النشاط التجاري لهذه الجمهوريات في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وتمكنت هذه الجمهوريات التجارية ، من خلال تلك التنظيمات من تمويل تجارتها مع بلدان شرق البحر المتوسط باستخدام منظم لاكبر قدر ممكن من رؤوس الاموال ، ومن تحقيق السيادة لعملاتها الذهبية في اسواق مدن وموانيء الحوض الشرقي للبحر المتوسط . يضاف الى ذلك ان الجمهوريات لايطالية التجارية تمكنت ايضا من خلال هذه التنظيمات التجارية وغيرها من الافادة من ثروات ومنتجات بلدان شرق البحر المتوسط فضلا عن بلدان الشرق الاقصى .

وبرهنت الدراسة على ان البندقية تمكنت من تحقيق التفوق التجاري في بيزنطة والبحر الاسود خلال سنوات الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦١ م) ، الا ان البنادقة أخفقوا في اقامة علاقات تجارية مع الاباطرة البيزنطيين في نيقية . وأوضحت الدراسة ، من ناحية أخرى ، التدهور الذي أصاب تجارة جنوة في بيزنطة والبحر الاسود في عهد الاباطرة اللاتين ، وفشل الجنوية في اقامة علاقات تجارية « نشطة » مع امبراطورية نيقية . وأوضحنا في فصول الرسالة أن هذه المعادلة قد انقلبت بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م ، حيث بدأ عصر تدهور تجارة البندقية وانحطاطها في الامبراطورية البيزنطية ، وتفوق تجارة جنوة في بيزنطة والبحر الاسود . وأشرنا الى ان النشاط التجاري للبنادقة والجنوية في الامبراطورية البيزنطية يشكل جزءا هاما في تاريخهم الاقتصادي ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وأوضحت الدراسة الى ن الجمهوريات التجارية الايطالية نظرت الى الحركة الصليبية على أنها مشروع تجاري . وحصلت على امتيازات

تجارية وغيرها في جميع المدن والموانيء الصليبية ، كما تحقق لها فوائد جمة نتيجة قيام الامارات الصليبية في الشام . وأشرنا كيف تمكن التجار الايطاليون من مضاعفة دورهم في التبادل التجاري بين الشرق والغرب عن طريق المدن الصليبية ، وأثبتنا ان النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الامارات الصليبية ، يشكل فصلا هاما في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في العصور الوسطى .

وارتبط النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ارتباطا وثيقا بالاهمية الاقتصادية والتجارية لمصر والشام وبالمصالح التجارية الكبرى للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتمكنت الجمهوريات الايطالية التجارية من اقامة علاقات تجارية نشطة مع سلاطين الايوبيين والمماليك في مصر والشام ، واسنندت هذه العلاقات على معاهدات تجارية واضحة ، حاول الاطراف الالتزام بها حفاظا على المصالح التجارية المتبادلة بينهم . واستفادت الجمهوريات التجارية الايطالية من هذه المعاهدات في الحصول على مزيد من الامتيازات التجارية وتحقيق الحماية لتجارها وفنادقها في موانيء مصر والشام . وبينت الدراسة ان الجمهوريات الايطالية تمسكت بمصالحها الاقتصادية والتجارية الكبرى في مصر والشام — دون الاهتمام — معظم الاحيان بالدعوات الصليبية والمواقف البابوية المعادية للعرب المسلمين .

يضاف الى ذلك ان النشاط التجاري للبندقية في جزيرة قبرص وكريت ونيقروبونت ومودون وكورون يشكل جزءا لا يتجزأ من نشاطها التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وفصلا بالغ الاهمية في التاريخ التجاري للبنادقة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وارتبط النشاط التجاري للبندقية في هذه الجزر ارتباطا مباشرا بعلاقات البندقية التجارية مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . اما النشاط التجاري لمدينة جنوة في جزيرتي قبرص وخيوس فقد شكل مرحلة بالغة الاهمية في التاريخ التجاري لجنوة ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . واشرنا الى ان احتلال الجنوية لخيوس ، بواسطة ماهونة خيوس ، يعتبر تجربة مبكرة للشركات التجارية

التي ظهرت في العصر الحديث في الغرب الاوربي ، والتي حققت نفـوذا واحتكارا للتجارة الشرقية .

والخلاصة ان النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحـوض الشرقي للبحر المتوسط ، شكل وحـدة موضوعيـة ، وجسد العـلاقات الاقتصادية والحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، وقـدم تجربة مبكرة لعمليات الاستيطان التجاري الاوربي في بلدان شرق البحـر المتوسط ووضع الاصول الاولى للمسألة الشرقية . يضاف الى ذلـك ان النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحرالمتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، مهد للنظم الاقتصادية التي انبثق منها اقتصاديا اوربا الحـديث بتنظيماته التجاريـة والماليـة والنقديـة والبحريـة .

المصادر والمراجع

اولا : المصادر الاوربيـة :

— Anna, Comnen, The Alexiad, (Eng. Trans. by E. A. S. Dawes): London, 1967 .

— Amari, M., Diplomi Arabi del R. Archivio Florentino ; 1863.

— Anonymous, Pilgrims, in Palestine Pilgrims Text Society (P. P. T. S.) , London, 1897 .

— Anonymous, The city of Jerusalem, in P. P. T. S. , London, 1896 .

— Argenti, P., (ed.) , The Occupation of Chios by the Genoese and the administration of the Island 1346 — 1566, vol, 1, Text, Cambridge , 1958 .

— Adler, E. N. , (ed.), Jewish Travellers, London, 1930 .

— Burchard of Mount Sion , Adescription of the Holy Land , in P. P. T. S. London, 1897 .

— Carpini, J. P. , The voyage of J. de plano Carpini unto the North East Part of the World in the year 1246, London, 1964 .

— Casola, P. Canon Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Manchester, 1907 .

— Chronicle of Morea, (Eng. Trans.), Newyork and London, 1964 .

— Clari, R., The Conquest of Constantinople , (Eng. Trans.), Newyork, 1936 .

— Dennis, G. T., (ed.) , official documents of Manuel, 11 Palaeologus , Byzantion, XLI (1971), PP. 45—58.

— Ernoul's account of Palestine, in P. P. T. S., London, 1896 .

— Fulcher of Chartres, A Hist. of the expedition to Jerusalem 1095 — 1127 , Translated By F. R. Ryan, Knoxville, 1969 .

— Fetellus, Description of Jerusalem and the Holy Land, in P. P. T. S. , London, 1897 .

— Gesta Francorum, The deeds of the Franks, (Eng. Trans.) London, 1962 .

— Gordon, J., (ed.), ' The Novgorod Account of the Fourth crusade ' , Byzantion, 43 (1973) .

— Gregorae, N. Byzantine Historia, in Corups Scriptorum Historiae Byzantinae (C. S. H. B.) , 3 vols. Bonn, 1829, 1880 , 1855 .

— Guide — book to Palestine, in P. P. T. S., 1894 .

— Kantakouzenos, Historiarum, 3 vols. in C. S. H. B. , Bonn, 1828 — 32 .

— Kinnamos, J., Epitome Historum, in C. S. H. B., Bonn, 1836 :

— Mandeville, Travels, Texts and translations, London, 1953 .

— Mas La trie, Hist. de L'ile de Chypre, 3 vols. Paris, 1861 .

— Mas La trie, Traité des paix et de Commerce et documents diveres Concernat les selations des Chretians avec les Arabes de L'afrique au mouen age, Paris, 1865 .

— Menahem ; M. Ben R., The Journal, in Jewish Travellers (ed. Alder) , London, 1930 .

— Niccolo, Fra. of Poggibonsi, Avoyage Beyond the Seas (1346 — 50) , Eng. Trans. , Jerusalem, 1945 .

— Nicetas, Choniates, Historia, in C. S. H. B., Bonn, 1835 .

— Novar, Philip de, The wars of Frederick 11, against the Ibelins in Syria and Cyprus, Translated By J. 1. Lamont Newyork, 1936 .

— Odoricus, B., The Journal of Friar B. Ordoricus, Newyork and London, , 1964 .

— Otto of Freising ,
  — The Two cities, Trans. By C. C. Mierow , Newyork, 1928 .
  — The deeds of the Frederick Barbarossa, Trans. By C. C. Mierow, Newyork, 1953 .

— Phocas, J., The Pilgrimage of J. Phocas in the Holy Land, in P. P. T. S., London, 1896

— Poloner, J., Description of the Holy Land, in P. P. T. S., London, 1894 .

— Roger of Wendover, Flowers of history, Translated By J. A. Giles, London, 1849 .

— Rubruquis, W., The Journal of Friar W. de Rubruquis unto the east parts of the World A. D. 1253 , London, 1964 .

— Sanuto, M., Secrets For True Grusaders to help them to recover the Holyland, in P. P. T. S. , London, 1896 .

— Suchem, Ludolph von, Description of the Holy Land and the Way thither, in P. P. T. S., London, 1895 .

— Tafel, G. L. F. And Thomas, G. M. , (ed.) , Urkunder Zur alteren Handels — und Staatsges chichte der Republik Veneding Mit besonderer Berucksichtiqung auf Byzanz Und dieLevanto, 3 vols. (1856 — 57).

— Tafur, P., Traveles and Adventures 1435 — 1439 , Translated By M. Letts, London, 1926 .

— Theoderich, S. Description of the Holy Places, in P. P. T. S. , London , 1895 .

— Villehardouin, G. The Gonquest of Constatinople, London, 1976 .

— Vitry, de J., The History of Jerusalem , in P. P. T. S., London, 1896 .

— William of Tyre, A History of deeds done beyond the Sea, 2 vols. Translated By E. A. B. Bebcock and A. C. Kery, Newyork, 1943 .

— Wurzburg, J., Description of the Holy Land, in P. P. T. S., London, 1896 .

ثانيا ـ المراجع الاوربية :

— Alastos, D. Cyprus in History , London, 1955 .

— Angold, M., Abyzantine Government in exile, Government and Society under the Lskarids of Nicaea (1204 — 1261) , Oxford. 1975 .

— Ashtor, E., Asocial and Economic history of the Near east in the middle ages, London, 1976 .

— Atiya, A. S.,

— Crusade in the Later middle ages, London, 1938 .

— Crusade, Commerce and culture, Bloomington, 1962 .

— Ault, W. O., Europe in middle ages, Boston, **1946** .

— Baker, J. N. L., Medieval Trade Routes, London, 1938 .

— Bautier, R. H. The Economic development of Medieval Europe, London, 1971 .

— Baynes, N. H., and Moss, H., Byzantium , Oxford, 1961 .

— Beazley , C. R. The dawn of Modern Geography, 3 vols. Oxford, 1901 — 1906 .

— Bent, J. T., ' The Lords of Chios ' , The English Historical Review, IV (1889) , PP. 467 — 80

— Boase, T. S. R. , Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, London, 1971 .

— Boulnois, L. The Silk Road, Trans. by D. Chamberlin, London, 1966 .

— Brand, C. M. , Byzantium confronts the West 1180 — 1204 , Cambridge, 1968 .

— Brundage, J. A., The Crusades, Motives and Achievements, Massachusetts, 1964.

— Brown, H. F., Venice, An Historical Sketch of the Republic, London, 1893 .

— Studies in the History of Venice, London, 1907

— The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the close of the twelfth century' , The Journal of Hellenic Studies, XL (1920) .

— Bury, J. B.,

— ' The Lombards and venetians in Euboia (1205 — 1303) ' , JHS, VII (1886) , PP. 309 — 352 .

— ' The Lombards and Venetians in Euboia (1303 — 1340) ', JHS, VIII (1887), PP. 194 — 213 .

— ' The Lombards and Venetians in Euboia (1340 — 1470) JHS, IX (1888) PP. 91—117

— Byrne, E. H. , — ' Commercial Contracts of the Genoese in the Syrian trade of the Twelfth Century ' , Quarterly Journal of Economic, XXXI (1916). PP. 128 — 170 .

— ' Easterners in Genoa ' , Journal of The Economic and Social History of the Orient, XXXVIII (1918). PP. 176 — 187 .

— ' Genoese trade with Syria in the twelfth century ' A merican History Review XXV (1919 — 1920) . PP. 191 — 219 .

— Genoese shipping in the twelfth and thirteenth centuries, cambridge, 1930 .

— ' The Genoese Colonise in Syria ' , in the Crusade and other historical essays Presented to D. C. Munro ed. by L. J. Paetow (Newyork 1968) .

— Cahen, C., ' L'alun avant phocée ' , Revue d' histoire Economique et Sociale, 41 (1963). PP. 433 — 47 .

— Cipolla, C. M., Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World, Cincinnati, 1956 .

— Chalandon, F., Les Comnenes, Tom. 11, Paris, 1912.

— Chambers, D. S., The imperial age of Venice 1380 — 1580, London, 1970 .

— Charanis, P. — ' Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire ' , The Jorunal History, XIII (1953) PP. 412 — 42 .

— ' Piracy in the Aegean during the reign of Micheal VIII Palaeologus ' , APHOS, vol. 8. (1950) , PP. 127 — 136 .

— Conder, C. R. ; The Latin Kingdom of Jerusalem (1099 to 1291 A. D.) , London, 1897 .

— Danstrup, J., — ' Indirect taxation at Byzantium ', classica et mediaevalla, VIII (1946 — 1947) . PP. 139 — 167 .

— ' Manuel's Coup against Genoa and Venice in the Light of Byzantine Commercial Ploicy ' , Classica et Mediaevalla , X (1949), PP. 195 — 219 .

— Diehl, C., Hist. of the Byzantine Empire, Princeton, 1925 .

— Finlay, G., Hist. of Greece ; Vol. 111, Oxford ; 1877 .

— Finley, J. E. ' Corinth in the Middle Ages ' ; Speculum, VII (1932) . PP. 477 — 499 .

— Fischel, W. J., ' The spice trade in Mamluk Egypt ' ; JESHO , 1 (1958) .

— Fleming, W. B. The History of Tyre, Columbia, 1915 .

— Geanakoplos, D., —' The Emperor Michael Palaeologus and the West, Cambridge, Mass. 1959 .

— ' Byzantium and the Crusades 1354 — 1453 ' ; in Setton, M. K. , A Hist. of the Crusades, Vol. 111, Philadelphia, 1975 .

— Gies, J. , Life in a medieval city, Newyork, 1973 .

— Grousset, R. , Historie des croisades, 3 vols., Paris, 1934 — 36.

— Goitein , S. D. , — ' The main industries of the mediterranean area as reflected in the records of the Cairo Geniza' JESHO , IV (1961) .

— A Mediterranean society, 2 Vols, Berkeley and Los Angeles, 1967 — 1971 .

— Haynes, E. B., Glass Through The ages, London, 1970 .

— Heyd, W., Hist. du Commerce du Levant au Moyen age, 2 Vols., Lepzing, 1923 .

— Hill. G., History of Cyprus, 3 Vols., Cambridge, 1940 — 52 .

— Hitti, P. K.History of Syria, London , 1951 .

— Hodgett , G. A. , Asocial and Economic history of Medieval Europe, London, 1972 .

— Hodgson, F. C., Venice in the thirteenth and Fourteenth centuries,, London, 1910 .

— Hoover, C. B., — ' The Sea Leon in Genoa in Twelfth century ' , QJE, XL (1926) . PP. 495 — 529 .

— Hussey, J. M. , The Byzantine World, London, 1967 .

— Hutchinson, L. , ' Oriental trade and the rise of the Lombard Communes ' , QJE, XVI (1901 — 1902), PP. 413 — 432 .

— Jorga, N., The Byzantine Empire, Trans. By A. H. powles London, 1907 .

— Labib, S. Y., — Handelsgeschte Agyptens in spatmttelalter (1171 — 1517) , Wiesbaden, 1965 .

— ' Egyptian Commercial policy in the Middle ages ' , in Cook , M., Studies in the Economic history of the Middle East, London , 1970 .

— Laiou, A. E., — ' Marino Sanudo Torsello, Byzantum and the Turks ' speculum, XLV (1970) PP. 374—72.

— Constantinople and the latins, The Foreign policy of Andronicus II 1282 — 1328 ,Cambridge, Mass., 1972 .

— Lamonte, J. L. , Feudal monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100 to 1291, Cambridge, Massachusetts, 1932 .

— ' John d' Ibelin ' , Byzantion XII (1937 . PP. 4 — 17 .

— Lane, F. C. ; — ' Venetian shipping during the commercial Revolution ' , AHR, XXXVIII (1933) , PP. 219 — 239 .

— ' Family Partnerships ' , JEH, IV (1944) PP. 178 — 96 .

— ' Merchant Galleys ' , Speculum, XXXVIII (1963) , PP. 179 — 205 .

— ' The Economic meaning of the Invention of the Compass ' , AHR, LXVIII (1963) , PP. 605 — 617 .

— Venice, Amaritime Republic ; London, 1973 .

— Lane — Poole, S., A History of Egypt in the middle ages, London, 1936 .

— The Story of Cairo, London, 1902 .

— Lapidus, 1., M , Muslim cities in the Later Middle ages, Cambridge, Mass. 1967 .

— ' The Grain Economy of Mamluk Egypt ' , JESHO, XII (1969) , PP. 1 — 15 .

— Latouche R., The Birth of Western economy ; London, 1961 .

— Lopez, R. S. ; — The Dollar of the middle ages ' , JEH, XI (1951) PP. 209 — 234 .

— Italian leadership in the medieval Business world ' JEH VIII (1948). PP. 63 — 68 .

— Market expansion : The Case of Genoa ' , JEH, XXIV (1964) PP. 445 — 464 .

— The Commercial Revolution of the middle ages, 950 — 1350 , Cambridge, 1976 .

— Lopez, R. S., and I. W. Raumond, Medieval trade in the Mediterranean World, London, 1955 .

— Luke, H., ' The Kingdom of Cyprus 1291 — 1369 ' ; in Setton, K. M., A Hist. of Crusades, Vol. 111, (1975) .

— Lybyer, A. H., ' The Ottoman Turks and the Routes of Oriental trade ' EHR, XXX (1915).

— Luzzatto, G., An Economic history of Italy, Trans. By P. Jones, London, 1961 .

— Mayer, H. E., — The Crusades, Trans. By J. Gillingham, Oxford, 1972 .

— ' On The Beginnings of the Communal movement in the Holy Land ; The Commune of Tyre ' , Traditio , XXIV (1968) . PP. 443 — 457 .

— Messier, R. A. ' The Almoravids ' , JESHO , XVII (1974) , PP. 31 — 47 .

— Miller, W., — The Latins in the Levant, London, 1908 .

— ' The Last venetian Islands in the Agean ' , EHR, XXII (1907) , PP. 304 — 308 .

— ' Genoese in Chios ' , EHR, XXX (1915) . PP. 418 — 432 .

— ' The Ionian islands under venetian Rule ' , EHR, XVIII (1903). PP. 209 — 239 .

— Mis Kimin, H. A., 'The Economic of Early Renaissance Europe, 1300 — 1460 , Cambridge, 1975 .

— Muir, W., The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, London, 1896 .

...

— Mcneill, W. H., Venice, The Hinge of Europe 1081 — 1797 , Chicago and London, 1974 .

— Nicholson, R. L., Tancred, Chicago, 1940 .

— Nicol, D. M. The Byzantine Family of Kantakouzenos, Washington, 1968 .

....

— Obolensky, D., Byzantium and the Slaves, London, 1971 .

— Origo, I., ' The domestic enemy ; The eastern slaves ' ,in Speculum , XXX (1955) , PP. 321 — 366 .

— Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Eng. Trans. By J. Hussey, London , 1956 .

— Pernoud, R., The Crusaders, Eng. Trans. By E. Grant ; London. 1963

....

— Pirenne, H., — Medieval Cities, Eng. Trans., By F. D. Halsey, Princeton, 1939

— Economic and Social History, Eng. Trans. By I. E. Clegg, London, 1947 .

— History of Europe, London, 1961 .

— Pounds, N. J. G., An Economic History of Medieval Europe, London, 1974 .

...

— Power, E., ' The Oppening of the land Routes to Cathay ' , in Newton, A. P., Travel and Travellers of the middle ages, London, 1926 .

— Prawer, J., — ' The Settlement of the Latins' , Speculum, 27 (1952) , PP. 490 — 503 .

— The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972 .

— Rabie, H., The Financial System of Egypt A. H. 564 — 741 A. D. 1169 — 1341, London, 1972

— Reynolds, R. L. ' in Search of a Business Class in Thirteenth century Genoa ' ; JEH , V (1945) ; PP. 1 — 19 .

— Riley — Smith, J. — The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174 — 1277 , London, 1973 .

— ' Government in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants' , in The

Relations between East and West (ed. by D. Baker) Edinburgh, 1973 .

— Roover, R. — ' The Commercial Rovolution of the Thirteenth Century ' , Bulletin of the Business Historical Society, XVI, no. 1 (1942) ,PP. 34 — 39 .

— Runciman, S., — A History of the crusades, 3 vols. Cambridge, 1954 .

— The Sicilian Vespers, Cambridye, 1958 .

— Setton, K. M. (ed.) A History of the Crusades, 3 vols. Philadelphia, 1958 — 1975 .

— The Papacy and the Levant (1204 — 1571), Vol. 1, Philadelphia, 1976 .

— Slessarev, V. ' Ecclesiae Mercatorum and The Rise of Merchant Colonies ' , Business History Review, XLI (1967) , PP. 177 — 97 .

— Smail, R. C. , The crusaders , London, 1973 .

— Stillman, N. A. ' The eleventh century merchant house of Ibn AWkal ' , JESHO , XVL (1973) , PP. 15 — 88 .

— Thompson , J. W. , Economic and social History of the Middle ages, 2 Vols. Newyork, 1959 .

— Tolkowsky , S. The GateWay of Palestine, A Hist. of Jaffa, London, 1924 .

— Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire, 2 vols., Madison, 1958 .

— Vlasto, A. M., A History of the Island of Chios, London, 1913

— Vryonis, S. , Byzantium and Europe, London, 1967 .

— Waley, D., The Italian City — Republics, London, 1969 .

— Watson , A. M. , ' Back to Gold — and Silver ' , EHR , XX (1967) , PP. 1 — 34 .

— Wolf, R. L. , ' Romania : The Latin Empire of Constantinople ' , Speculum, XXIII (1948) PP. 1 — 34 .

— ' The Latin Empire of Constatinople ' , Traditio, 11 (1944) , PP. 213 — 244 .

— Yewdale, R. B. , Bohemond 1, Prince of Antioch , Princeton, 1917 .

المصادر العربية

ثالثا : المصادر العربية :

— ابن اياس (محمد بن أحمد ، ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م) :

— جوهر السلوك في اخبار الخلفاء والملوك ، مخطوط مكتبة جامعة كمبردج — رقم ٧٤ .Add

— نشق الازهار في عجائب الاقطار ، مخطوط — المتحف البريطاني — رقم ٧٥٠٣ .

— ابن بطوطه (أبو عبد اللـه محمد ، ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م) :

— تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار جزءان ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

— ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد ، ت ٦١٤ هـ/١٢١٧م) :

— رحلة ابن جبير ، بيروت ، ١٩٦٨ م .

— ابن حبيب (الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م) :

— درة الاسلاك في دولة الاتراك ، مخطوط ثلاثة أجزاء — مكتبة بودليان (اكسفورد) رقم ٥٩١ ، ٣١٩ ، ٢٢٣ Marsh .

— تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، مخطوط — المتحف البريطاني ، رقم ٧٣٣٥
الجزء الاول منه نشره الدكتور محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٧٧ م .

— ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي ، ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨ م) :

— بذل الماعون في فوائد الطاعون ، مخطوط — معهد الدراسات الشرقية والافريقية (جامعة لندن) — رقم ١٣٩٩٨

— ابن دقماق (ابراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩ هـ/١٤٠٦م) :

— الانتصار لواسطة عقد الامصار ، الجزء الرابع والجزء الخامس ، القاهرة ، ١٨٩٣ م .

— الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ، مخطوط — مكتبة بودليان (اكسفورد) — رقم ٢٨ . Digby or .

— ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى ، ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) :

— كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العزبي ، بيروت ١٩٧٠ م .

— ابن صصري (محمد بن محمد)

— كتاب الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، تحقيق وليام برينر ، بركلي ولوس انجيلوس ، ١٩٦٣ م .

— ابن طولون (محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، ت ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م) :

— اعلام الوري بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد الدهان ، دمشق ، ١٩٦٤ م .

— ابن ظهيرة (محمد بن محمد ، ت ٨٨٨ هـ/١٤٨٣م) :

الفضايل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ م

— ابن عبد الظاهر (محي الدين أبو الفضل عبد اللـه ، ت ٦٦٢ هـ/ ١٢٩٢م) :

— الالطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية ، القاهرة ، ١٩٢٠ م .

— الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (النص الكامل نشره عبد العزيز الخويطر) — رسالة دكتوراه — جامعة لندن ، ١٩٦٠ م .

— تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصـور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

— ابن العديم (كمال الدين أبي القاسم ، ت ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م) :

— زبدة الحلب من تاريخ حلب — ثلاثة أجزاء — تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٦٨ م .

— ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م) :

— تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات . المجلد السابع والثامن والتاسع ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٦ — ١٩٤٢ م .

— ابن القلانسي (أبو يعلى حمزه ، ت ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م) :

— ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ م .

— ابن المجاور (جمال الدين ابي الفتح)

— صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر ، ليدن ، ١٩٥١ م .

— ابن مماتي (أبو المكارم اسعد بن الخطير ، ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م) :

— قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، القاهرة ، ١٩٤٣ م .

— ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧ م) :

— مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، الجزء الثالث :

تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٠ م ، والجزء الرابع : تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ م .

— أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) :

— تقويم البلدا ن، باريس ، ١٨٤٠ م .

— الادريسي (أبو عبد الله محمد بن ادريس ، ت ٦٥٠ هـ/١١٦٠م):

— نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، روما ، ١٨٧٨ م .

— البلـوي (خليل بن اياس ، ت القرن الثامن) :

— تاج المفرق بتحلية علماء المشرق . مخطوط — دار الكتب المصرية — رقم ٢٠٢ جغرافيا .

— بنيامين التطيلي (رحلته ٥٦١ — ٥٦٩ هـ/١١٦٥ — ١١٧٣ م) :

— رحلة بنيامين ، ترجمها من العبرية عزرا حداد ، بغداد ، ١٩٤٥ م .

— بيبرس المنصوري (الامير ركن الدين ، ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٥ م) :

— زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوط — المتحف البريطاني ، رقم ٢٣٣٢٥ Add.

— الحنبلي (أحمد بن ابراهيم)

— شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط — المتحف البريطاني — رقم ٧٣١١ Add.

— الدمشقي (أبو الفضل جعفر بن علي ، ت أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) :

— كتاب الاشارة الى محاسن التجارة ، القاهرة ، ١٣١٨ هـ .

— الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن ايبك ، ت ٧٣٦ هـ/١٣٣٥ — ١٣٣٦م) :

— كنز الدرر وجامع الغرر — الجزء التاسع :

— الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت ريمر ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

— شافع بن علي (نصر الدين العسقلاني ، ت ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م) :

— الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور ، مخطوط ، مكتبة البودليان (اكسفورد) رقم ٤٢٤ Marsh

- صالح بن يحي (ت ٨٤٠ هـ/١٤٣٦ م) :
  - تاريخ بيروت . تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- الصفدي (حسن بن عبد الله ، ت القرن الثامن الهجري) :
  - نزهة الملك والممالك ، مخطوط ـ المتحف البريطاني، رقم ٦٢٦٧ .Or
- الصيرفي (علي بن داود ، ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ م) :
  - نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، ثلاثة أجزاء تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ م .
- عبد الباسط (القاضي ، ت أواسط القرن التاسع الهجري) :
  - نيل الامل في ذيل الدول ، مخطوط ، جزءان بودليان (اكسفورد) رقم ٦١٠ ، ٢٨٥ Hunt .
- العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م):
  - التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ، ١٣١٢ هـ .
  - مسالك الابصار وممالك الامصار ، الجزء الاول ، تحقيق أحمد زكي ، القاهرة ، ١٩٢٤ م .
- العيني (محمود بن أحمد ، ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م) :
  - تاريخ البدر في أوصاف اهل الاصر ، مخطوط ، المتحف البريطاني ـ رقم ٢٢٣٦٠ .Add
- غرس الدين (خليل بن شاهين الظاهري ، ت ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م) :
  - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشره بولس راويس باريس ، ١٨٩٤ م .
- القلقشندي (أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) :
  - صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩١٩ م .

- مجير الدين (ابن عبد الرحمن العمري العيلمي) :
  - كتاب تاريخ قاضي القضاة مجير الدين ، مخطوط ، المتحف البريطاني ، رقم ١٥٤٤
- المخزومي (علي بن عثمان ، ت أواخر القرن الثاني عشر الميلادي) :
  - المنهاج في علم خراج مصر ، مخطوط ، المتحف البريطاني ، رقم ٢٣٤٨٣ .Add
- المقريزي (أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) :
  - اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشره مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠ م .
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جزءان ، القاهرة ، ١٨٥٣ ـ ١٨٥٤ م .
  - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ثلاثة أجزاء ، الجزء الاول والثاني نشرهما محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢ م . والجزء الثالث حققه سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ م .
  - كتاب ثغر دمياط ـ بودليان (اكسفورد) رقم ٣٦١
  - شذور العقود في ذكر النقود ، نشره الكرملي ، القاهرة ، ١٩٣٩ م .
- المؤرخ المجهول
  - أوراق جمعت فيها فضائل مصر ، مخطوط ، مكتبة جامعة كمبردج ، رقم ٩١ .Qq
- المؤرخ المجهول
  - تاريخ الدولة التركية ٦٥٠ ـ ٨٠٥ هـ ، مخطوط ، مكتبة جامعة كمبردج ، رقم ١٤٧ .Qq
- النويري السكندري (محمد بن قاسم بن محمد ، ت ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م) :

- الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في واقعة الاسكندرية ، جزءان ، مخطوط – دار الكتب المصرية ، رقم ٤١٩٣ تاريخ .

رابعا : المراجع العربية والمترجمة :

- ابراهيم راشد مصطفى البراوي
  حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي – رسالة دكتوراه – آداب القاهرة ، ١٩٤٤ .
- بلوك (مارك)
  « مشكلة الذهب في العصر الوسيط » ترجمة توفيق اسكندر في كتاب « بحوث في التاريخ الاقتصادي » القاهرة ١٩٦١ .
- بور (ايلين)
  نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ترجمة محمد توفيق حسن بيروت ، ١٩٥٧ م .
- جمال الدين الشيال
  الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى الوقت الحاضر . القاهرة ١٩٥١ م .
- جيبون (ادوارد)
  اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، الجزء الاول ترجمة محمد أبو ريده ، القاهرة ١٩٦٩ – والجزء الثالث ترجمة محمد سليم سالم القاهرة ١٩٦٩ .
- حسنين ربيع
  النظم المالية في مصر زمن الايوبيين، القاهرة١٩٦٤م.
- ديل (شارل)
  البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، القاهرة١٩٤٨م.

- سعاد ماهر
  البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- سعيد عبد الفتاح
  - اوربا العصور الوسطى ، جزءان القاهرة ١٩٧٢ .
  - الحركة الصليبية ، جزءان القاهرة ١٩٧١ .
  - العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .
  - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣ .
  - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ م .
  - قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .
  - الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي – المجلة التاريخية المصرية – عدد (١١) عام ١٩٦٣ .
- شيخو (الاب لويس)
  بيروت : تاريخها وآثارها ، مجلة المشرق عدد (٢٣) عام ١٩٢٥ .
- عبد العزيز سالم
  طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي – الاسكندرية ١٩٦٧ .
- عفاف سيد محمد صبره
  علاقة البندقية بمصر والشام من بداية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر – رسالة دكتوراه – لم تنشر – كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٧ .
- علي ابراهيم حسن
  مصر في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٤ .

ـ كراتشكوفسكي « غناطيوس يوليا نوفتشي »
تاريخ الادب الجغرافي ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٥ .

ـ كرامب وجاكوب
تراث العصور الوسطى ، جزءان ، الجزء الاول ترجمة محمد بدران ومصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٥ والجزء الثاني ترجمة سعيد عاشور ، وآخرين القاهرة ١٩٦٧ .

ـ كولتون ج ج
عالم العصور الوسطي في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ـ الاسكندرية ١٩٦٧ .

ـ ماير ب . أ
الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، القاهرة ١٩٧٢ .

ـ متز (آدم)
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده ، بيروت ١٩٦٧ .

ـ محمد جمال الدين سرور
ـ دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .
ـ دولة الظاهر بيبرس القاهرة ١٩٦٠ .
ـ سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ .

ـ نجاة الباشا
التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى القرن الثامن للهجرة ، تونس ١٩٧٦ .

ـ نعيم زكي
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة ١٩٧٣ .

ـ نقولا زيادة
دمشق في عصر المماليك ـ بيروت ، ١٩٦٦ م .

ط . أ . ٣٠٠٠/١٩٨٠

م ـ ر ـ ٧٦٧١ ت ١٩٨٠/١/٥